

تأليف

فهد المارك

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

هذه شيم الملك عبد العزيز موحّد شبه الجزيرة العربيّة
أهديها إلى روح الملك الشهيد (فيصل بن عبد العزيز) الذي
وطّد أركان هذه الوحدة، وبذل جهودًا فعّالة
في تضامن أمّته العربيّة والإسلاميّة.

وإذا كانت أمنيّتي أن أهديها إليك في
حياتك، فإنّ انتقالك إلى دار البقاء زادني حرصًا
على تنفيذ هذه الأمنيّة، وحفزني إلى العمل
بتلك النيّة.

فهد المارك



صاحبا الجلالة الملكان عبد العزيز آل سعود وفيصل بن عبد العزيز (رحمهما الله



صاحب السمو الملكي الأمير فهد

المقدِّمَة

كتبت هذه المقدمة . قبل أن أبدأ بكتابة مواد الكتاب ثم أعدت كتابتها من جديد[1] ، والسبب الذي دعاني إلى ذلك هو أني من خلال مواصلتي في كتابة مواد الكتاب وفصوله واجهت أمراً يطيب لي التعبير عنه بما هو آت :

الانسان يتطور مستمراً من أمه الى أسرته الى أمته فانسانيته

لا أستطيع إلا أن أعترف بأن النشأة الاقليمية والقبلية الضيقتي النطاق ـ اللتين عشتهما ونشأت عليهما إبان الطفولة ـ كانتا تحول دون نظرة الاعجاب التي يجب أن أنظر بها إلى عبد العزيز من خلال توحيده لشبه جزيرة

(١) وقد أبقيت بعض ما كتبته كمقدمة أولا واعتبرته تمهيداً يلي هذه المقدمة .

العرب ، ولا عجب فالمرء يولد أَنانياً بفطرته ، فهو عندما يكون بالمهد لا يعرف ولا يحب سوى ثدي أَمه ، ثم ينتقل بعد ذلك بحبه إلى أُسرته ، ومن الأُسرة ينتقل هذا الحب إلى أُمته ، واذا تجاوز الإنسان بحبه هـذه المرحلة القصوى بلغ بعد ذلك أَعلى المنازل مكانة وسمواً وهي حبه للإنسانية .

وهذا الانتقال وذلك التجرد والتدرج لا يأْتي ولا يتم بين عشية وضحاها ، وإنما يأتي عن طريق مرور الزمن من ناحية ، وعن طريق التجارب والمطالعة المستمرة واتساع المدارك ، والتنقل والهجرة والاختلاط المباشر بالأَمم من ناحية ثانية .

وكان أَول مرحلة ابتعدت بها عن النطاق الاقليمي والمحيط القبلي ، جاءت عن طريق هجرتي التي تركت فيها مسقط رأْسي ، بل تركت فيها المملكة العربيـة السعودية بسن كنت به فوق الطفولة ودون بلوغي سن الرشد بسنتين .

وأَخيراً جاءت الصهيونية ، وزرعت بذرتها الخبيثة في قلب عالمنا العربي ، وأَلحقت بالشعب الفلسطيني من

القتل والتشريد وهتك الأَعراض ، أَلحقت بهم أعمالاً شاهدتها بعيني رأسي ، أَعمالاً يندى لها جبين من لديه مثقال ذرة من الرحمة الإنسانية ، والضمير اليقظ .

وقدر لي أن أَعيش نكبة ١٩٤٨ ، جندياً متطوعاً ، فكانت النتيجة الحتمية أَن تأْثير تلك الكارثة على كياني جعلني أَدرك للوهلة الأُولى أَن قيام دولة العصابة الصهيونية التي يهدد وجودها مستقبل أَبنائنا وأَحفادنا بالمصير نفسه الذي لقيه الشعب العربي الفلسطيني جاء نتيجة عملية لتجزئة أُمتنا العربية ، وآمنت إيماناً راسخاً أَن لو اتحدت هذه الأُمة بأَي معنى من معاني الاتحاد ؛ فإنه لم يكن للصهيونية موضع قدم في أَرض العرب .

ومن هذا المنطلق جاءت نظرتي للملك عبد العزيز في توحيده لبلادنا نظرة مليئة بالإعجاب ، وطافحة بالتقدير ، وزاخرة بالاحترام .

ولا بد لي من الإجابة على السؤال القائل : متى تخمرت في ذهني مواد كتاب (من شيم عبد العزيز) ؟ ..

ولدت الفكرة في مخيلتي منذ أَن باشرت التأليف في

كتابي الجزء الأول (من شيم العرب) الذي صدر عام ١٣٧٥ - أما لماذا تأخرت عن طبع الكتاب ونشره خلال هذه المدة ؟ ...

فالجواب على ذلك يعود إلى كون المصدر الوحيد الذي أَستوعبه (من شيم عبد العزيز) محصوراً على عدد من أبناء الشعب الثقات الذين عاصروا الملك عبد العزيز ،ورووا عنه رواية من عاش الأحداث ورآها عن كثب ،ونقلها بصدق وأمانة - كما سيرى القاريء ذلك - فمن أجل ذلك تريثت في طبع الكتاب واثقاً أن تريثي سيكون أكثر فائدة ، وأن لا أعجل لعلي أستقصي (من شيم عبد العزيز) المكنوزة في صدور الرجال ما هو أوفر مما حظيت به .

وفي تريثي هذا استفدت كثيراً فوق الفائدة التي كسبتها أولاً وذلك أنني في خلال هذه الفترة التي تريثت بها أضفت إلى ما عندي (من شيم عبد العزيز) مواداً لم تكن متوفرة عندي من قبل ..

اليك المناسبة التي انتقلت بسببها من حيز التفكير الى حيز التنفيذ

جاءت المناسبة التي نقلتني من دور التفكير في تأليف

كتابي هذا إلى حيز التنفيذ العملي . جاءت عن طريق البيان الذي عممه المسؤولون عن المؤتمر الأَول للأُدباء السعوديين الذي افتتح في أَول يوم من شهر ربيع الأَول عام ١٣٩٤ هـ.

لقد ورد في صدر ذلك البيان المادة رقم (٤) المبوبة على الحروف الأَبجدية بحرف الحاء ـ وردت بالنص الحرفي الآتي :

ح ـ جهاد الملك عبد العزيز .

وقد أَبديت ملاحظتي حول عدة مواد في ذلك البيان وفي مقدمة ملاحظتي تلك هذه الفقرة بالذات أَبديتها في مقالي الذي نشرته جريدة (المدينة) بتاريخ ١٨ـ١١ـ١٣٩٣ وها هو النص الحرفي الذي أَبديته للجريدة المذكورة .

لما كان للملك عبد العزيز جوانب نبوغ وعبقرية متعددة الأَطراف : جوانب في أَخلاقه ، وجوانب في سيرته ، لم يكتب عنهما بعد . والسبب في ذلك يعود إلى كون تلك الجوانب لا يعرفها معرفة علم راسخ الجذور إلا الجيل الذي عاصره ، سواء الرجال الذين حاربوا معه أَو الرجال المنصفون الذين حاربوه ومن ثم انتصر على قلوبهم

مادياً وأَخلاقياً أَكثر من انتصاره العسكري ، فإن هذه الجوانب المهملة ينبغي أَن تكون هي المادة الرئيسية في شخصية موحد جزيرة العرب ، وكم هو جميل أَن تكون المادة المطروحة كما يلي (ما هو السر في أَخلاق الملك عبد العزيز الذي وحد به جزيرة العرب) .

كنت أَود أَن المسؤولين عن المؤتمر الأَول للأُدباء السعوديين طرحوا هذا السؤال .

كانت تلك المادة التي طرحها المسؤولون عن المؤتمر هي الحافز الرئيسي الذي دفعني إلى تنفيذ تلك الفكرة الراسخة في ذهني منذ عشرين سنة .

ما أكثر من كتب عن عبد العزيز ومن سيكتب عنه

سيجد الكتَّاب والمؤرخون ، في حياة الملك عبد العزيز ، وفي سيرته وفي أَخلاقه ، وفي سجاياه . وفي نضاله وفي فتوحاته وانتصاراته العسكرية مورداً لا ينضب معينه ، وأَهم من هذا وذاك ، سيجد الباحثون والمحققون في انتصارات الملك عبد العزيز الأَخلاقية منهلاً عذباً لا ينفد

وكم يجد هؤلاء وأولئك من هذه المعاني التي درست في صدور الشيوخ الذين عاصروه أكثر مما كتب وما سيكتب .

ولا عجب فعبد العزيز معجزة من معجزات الدهر ، وفلتة من فلتات التاريخ ، وعبقري من العباقرة الأفذاذ ، وعظيم من عظماء الرجال الذين لا يأخذهم الغرور ولا تسكرهم النشوة اذا قهروا أعداءهم وانتصروا عليهم ، ولا يستسلمون لليأس ولا تخور عزائمهم اذا فشلوا في معركة ما .

واذا كان علماء الاجتماع يصنفون شخصية الزعماء والقادة وفقاً لما تتوفر في ذات ذلك الزعيم وتتجسد في طباعة واحدة من المعاني الثلاثة الآتية :

الأول — زعيم تأتي به الملمات وتصهره التجارب وتصقله نوائب الزمان وتزده تقلبات الدهر ومحن الأيام والسنون علماً ومعرفة .

الثاني — زعيم ورث الزعامة والمجد عن آبائه . فوطد أسس ما ورثه وأشاد مجداً عالياً فوق مجد أسلافه .

الثالث - زعيم منحه الله جميع صفات الزعامة . ومختلف معاني القيادة .

فاذا كانت واحدة من هذه الصفات في رأي علماء الاجتماع كافية أن تؤهل من يتصف بها ، ويرزق إياها لزعامة الرجال ، ولقيادة البشر ؛ فان الملك عبد العزيز توفرت فيه جميع هذه السجايا الثلاث وتجسدت في شخصيته ولازمته كلها كملازمة الروح للجسد .

وهكذا خلق عبد العزيز زعيماً وقائداً بكل ما تشير إليه تلك المواد الثلاث من المعاني .

أولاً - نجده زعيماً صهرته التجارب وجاءت به الملمات بأحسن ظرف مناسب .

ثانياً - هو زعيم وان كان جاء للزعامة عن طريق الوراثة ، فإنه جاء وتلك الوراثة قد تقلص نفوذها ، وتلاشى سلطانها ، ولم يبق من مجدها إلا الأساطير ، فأعاد إليها سلطتها ووطد جذور نفوذها ، وبنى فوق مجدها الغابر بنياناً وطيد الأصول شامخ الفروع منيع الجانب خالد الذكر .

والبند الثالث والأخير هو ما يصح أن يقال عن عبد العزيز أنه من نوع الزعماء الذين توفرت فيهم صفات الزعامة، ليكونوا قادة يضيئون الطريق لشعوبهم ويوحدون شتاتهم . ويجمعون شمل قوم كرجال شبه الجزيرة العربية ، الذين وان كان أهلها متجسداً في أخلاقهم وشيمهم العربية كثيراً من القيم السامية والأخلاق الكريمة الفاضلة والشيم العربية الأصيلة ، إلا أنهم مع توفر هذه القيم الموروثة تنقصهم الوحدة ـ التي لا تتم سعادة الأمم إلا بها ، ولا يكمل نموها الاقتصادي ويسمو مجدها العسكري إلا بوحدتها .

وهكذا كان البطل عبد العزيز ، جاء في ظرف كان من خيرة الظروف المناسبة ليوحد شبه جزيرة العرب ، ويؤلف بين قلوب أهلها ، ولا يعرف ما لعبد العزيز من حسنات في رسالته هذه الوحدوية إلا من يعرف التناحر والضغائن والعداء بل سفك الدماء بين أمير مقاطعة وأخرى ، الذين يشكلون اثنتي عشره وحدة سياسية ، بل وبين رئيس قبيلة ورئيس قبيلة أُخرى من قبائل شبه الجزيرة الذين يشكلون هم الآخرون سبعاً وعشرين قبيلة ، وكل رئيس قبيلة يغزو

الآخر ويستبيح ماله بل ودمه ، ناهيك باختلال الأَمن المضطرب والمزعزع لا في أَرجاء شبه الجزيرة العربية فحسب ، بل وفي السبل المؤدية إلى الأَرض المقدسة ، فكم يتعرض حجاج بيت الله للنهب والسلب بل والقتل أَحياناً من قطاع الطرق الذين شعارهم : (رزقي على الحاج ورزق الحاج على الله) .

وكم يتضاعف احترام وإجلال العربي الواعي المنصف للملك عبد العزيز عندما يرى أَن وجود السرطان الصهيوني في قلب أُمتنا العربية كان سببه الأَول والأَخير ليس إلا تفرقة هذه الأُمة تلك التفرقة ، التي لم تكن ولن تكون فيما لو وفقت هذه الأُمة لزعيم عربي لا يكفي أَن يتوفر له الزمان والمكان والظروف والفرص التي أُتيحت لعبد العزيز فحسب ، بل أَن توفق هذه الأُمة لزعيم عربي تتوفر في شخصيته أَخلاق القيادة وصفات الزعامة، وسجايا العباقرة التي عن طريقها استطاع أَن يوحد جزيرة العرب .

أَجل لقد وحّد عبد العزيز هذه الجزيرة بانتصاراته الأَخلاقية والمعنوية قبل أَن يوحدها بانتصاراته العسكرية

والمادية .

وما هذه الوحدة التي ننعم بها والخيرات التي نرفل فيها إلا ثمرة من نعم الله الذي اختار عبد العزيز ليقوم بتأديته لهذه الرسالة الوحدوية الشريفة . يقول الأُستاذ أَسعد داغر : الملك عبد العزيز ، هو أَول من وضع لبنة في صرح بعث القومية العربية ، وكان أَول من نادى بالقيادة العربية المشتركة ، أَول من وحّد القيادة بين الجيشين الشقيقين السعودي والمصري – كان ذلك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ – نقلاً عن كتاب شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز ص ٧٤٠ للأُستاذ خير الدين الزركلي .

والسؤال الذي أَجدني ملزماً بمواجهته هو الآتي :

إذا كان لكل إنسان صفة بارزة على جميع أَخلاقه وطاغية على كل سجاياه ، فما هي هذه الصفة البارزة في أَخلاق وسجايا وشيم الملك عبد العزيز الوافرة المتعددة الجوانب ؟ .

الجواب على هذا السؤال يكاد يكون متعذراً ، والسبب

في تعذره يعود إلى كون المرء عندما يدرس حياة هذا العبقري العظيم دراسة تدبر وإمعان ، يجد نفسه حائراً لا يستطيع أَن يصدر حكمه في تفضيل أَو تقديم صفة من صفاته على الأُخرى ، الأَمر الذي دعاني إلى أَن أُوجه هذا السؤال نفسه إلى أَكثر من واحد من الرجال الذين عاصروا عبد العزيز ، كالأَمير الفارس سلمان بن محمد آل سعود الذي لا زال على قيد الحياة ، وكالفارس الآخر سلطان الجبر ، وغيرهما ، فكل من سأَلته هـذا السؤال أَجد لديه حيرة وتردداً ،عاجزاً أَن يصدر حكمه النهائي على تفضيل أَو تقديم سجية من سجايا موحد جزيرة العرب على الأُخرى .

ولما كنت حريصاً كل الحرص بأَن أَعمل إلى معرفة هذه الحقيقة ، فانني أَجد الجواب على سؤالي عند جميعهم يقول : إن أَهم وأَبرز سجية في أَخلاق عبد العزيز - هي عفوه عن المسيء ، ومعاملته لأَعدائه باصطناع المعروف وبذل الفضل واستمالتهم بالحسنى ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

واذا كان عشرات المؤلفين الذين أَلفوا الأَسفار عن

الملك عبد العزيز ، ومئات الشعراء والخطباء ، وكتاب المقالات الذين أَشادوا بمجد وفتوحات الملك عبد العزيز .

اذا كان كل واحد من هؤلاء وأُولئك ، اختص بجانب أَو أَكثر من جوانب سجايا وأَخلاق عبد العزيز ، فإن من دواعي شرفي أَن أُساهم بالكتابة بجانب (من شيم موحد جزيرة العرب)

هذه الشيم التي شغفت حباً بحفظها وتخليدها مهما كان مصدرها .

هذه الشيم التي أَضعها بين يدي القاريء ، أَستمدها كلها من محفوظاتي التي نقلتها بكل أَمانة من الرواة الثقات الذين عرفوا عبد العزيز عن كثب ، وما عدا ذلك فان شيئاً قليلاً نقلته من كتب بعض المؤلفين وما من مؤلف نقلت عنه إلا وذكرت اسمه واسم مؤلفه .

ملاحظة تسترعي الانتباه

والملاحظة التي لا بد لي من الإشارة إليها ، هي الآتية :

لما كانت مواد كتابي هذا محصورة على ما أَسعدني الجد

بالحصول عليه (من شيم عبد العزيز) تاركاً الأَحداث التاريخية في حياته وفتوحاته ـ للمؤلفين الأَوائل .

الذين ملؤوا هذا الفراغ مشكورين على جهودهم الموفقة ، فقد أَضفت إلى شيمه ثلاثة فصول معتبراً أَنها من أَهم حسناته وإِنجازاته وهذه الفصول هي :

أَولاً ـ توطيده لأَمن البلاد المزعزع والبالغ من الفوضى قبل عهده حداً لا مثيل له .

ثانياً ـ تعرضت إلى ذكر الحياة الاجتماعية القاسية التي يعانيها المواطنون قبل توحيده لبلاده ، كما ذكرت التطور الاجتماعي والاقتصادي في عهده .

أَما الفصل الثالث الذي أَضفته إلى شيم موحد جزيرة العرب ، فهو مواقفه الحاسمة ، وأَستهدف من ذلك أَن تكون شيم ذلك القائد الملهم (دستوراً) يسعى إلى الاقتداء به ، ويطبقه كل فرد من أَشباله الأَفاضل ، ومن أُسرته الكريمة بصورة خاصة ـ بصفتهم أَجدر من يطبق هذا التراث القيّم ـ كما أَود ، بصورة عامة ، أَن يقتدي به كل حاكم عربي .

نعم ، أَود من هؤلاء وأُولئك أَن يتصفوا بأَخلاق ومثل

وشيم وعفو وتسامح ذلك العظيم الذي أدرك بفطرته وبثاقب فكره أن يقدم انتصاره الأخلاقي والمعنوي على قلوب الرجال - قبل انتصاره المادي والعسكري على رقابهم .

وإذا كان القاريء لا يرى غرابة فيما أُقدمه له مما استطعت العثور عليه (من شيم عبد العزيز) فانه سيرى في هذا الكتاب جانباً (من شيمه) التي لم يكتب عنها بعد .

واني لوطيد الاعتقاد أنه سيأتي من بعدي كاتب يوافي القراء بسفر (من شيم عبد العزيز) فاتني العثور عليها - كما فات من ألف قبلي عثوره على الجانب الذي أسعدني الجد بالعثور على قسم من (شيم موحد جزيرة العرب) غفر الله له . ولا عجب فيما اذا وجد القاريء أكثر مواد هذا الكتاب تحتوي على ما نقلته عن الرجال الثقات ليس الذين عاصروا عبد العزيز وهم من ذويه وأعوانه وحسب ، بل من الرجال الذين كانوا له من ألد أعدائه ، وقديماً قالت العرب : « الفضل ما شهدت به الأعداء » .

فهد المارك



تمهيد

ما أكثر ما كتب عن عبد العزيز ! وما أكثر الذين كتبوا عنه !! وكثير منهم يختلفون اختلافاً بعيد المدى عن أولئك الكتاب الاجانب الذين تصدوا للكتابة في تاريخ حياة العباقرة الافذاذ كعبد العزيز ، أو الذين كتبوا عن تاريخ الامم .

إننا نرى قسماً من مؤرخينا عندما يذكر حادثة تاريخية يقف بكتابته عند ذكر الزمان والمكان اللذين وقعت فيهما الحادثة ، مضيفاً إلى ذلك سرد الحادثة دون ذكر العبرة منها والاستنتاج من حكمتها ، وهذا أمر يخالف الحكمة المرادة من دراسة التاريخ ، تلك الحكمة التي قال عنها الأدباء والحكماء : إن الغاية من دراسة التاريخ ليست

محصورة في سرد الحوادث ، وذكر الزمان والمكان اللذين وقعت فيهما الحادثة ، وإنما الغاية أن يستنتج المؤرخ العبرة والحكمة من وقوع ذلك الحادث .

وإذا كانت حياة عبد العزيز مليئة بالأحداث ذات العبر ، ومن أهم الأحداث التي بدأها في أول فتوحاته ، فتحه للرياض التي كانت امتداداً لما بعدها من الفتوحات ، فإننا نجد كثيراً من المؤرخين ، حينما يصلون إلى ذكر تلك الحادثة لا يتجاوز أحدهم ذكر الزمان والمكان اللذين وقعت فيهما مع سردها سرداً خالياً من العبر التاريخية ذات المعاني التالية :

أولا ـ أبعاد تلك الحادثة ومضاعفاتها ، وهي أبعاد ومضاعفات لها أهمية وشأن أشد خطراً وأعظم إقداماً من تلك المغامرة العظيمة الفذَّة .

ثانياً ـ ينبغي استنتاج الأحداث والوقائع والظروف والأسباب التي جعلت تلك المغامرة تعتبر (انتحارية) ولكن عندما يستعرض المؤرخ الظروف والأسباب ، يجد أن تلك المغامرة مضمونة النصر لا محالة

ثالثاً – أخذ العبرة التاريخية التي جعلت بطل المغامرة ينتصر على خصم يفوقه أضعافاً مضاعفة بالعتاد وبالجياد وبالمال وبالرجال ، كما أنه لا يقل عنه شجاعة وإقداماً بل واستهتاراً بالحياة .

هذه المعاني الثلاث ، قلَّ أن قرأْت لكاتب مًّا بحثا استعرضها استعراضاً واضح المعالم .

وهناك أمر أهمله المؤرخون أيضاً ، وهو لا يقل أهمية وعظم شأْن عما سبق ذكره ، أَلاَ وهو التعبير الواضح عما ينبغي للقاريء أن يعرفه في تحليل شخصية عبد العزيز ، واذا كانت الإحاطة بتحليل شخصية هذا العبقري ليست من السهولة بمكان ، على اعتبار أن لشخصيته جوانب لا يستطيع الكاتب مهما كان لديه من موهبة البيان والبلاغة أن يحيط بها بصورة وافية كاملة ، إلاَّ أَنَّ الشيء الذي يحتاج القاريء المبتدىء والمنتهي إلى معرفة كنهه هو عرض السرِّ الكامن في شخصية عبد العزيز ، وتوضيح وتفسير ذلك السر العظيم ، والجوهر الأَصيل ، الذي من خلاله استطاع أن يوحد مملكته المترامية الأَطراف ، الفسيحة

الأرجاء .. والحقيقة أن ذلك السر جدير أن يكون دستوراً يعمل به كل حاكم يريد أن يملك قلوب مواطنيه وخاصة في مثل عصرنا هذا الذي قال عنه الشاعر الزهاوي :

لا يحكم الناسَ في عصرٍ نَعيشُ به
إلا الذي لقلوب الناس يَمْتَلِكُ

* * *

الحقيقة التي أومن بها إيماناً قوياً

وهناك حقيقة أجدني مضطراً إلى التعبير عنها بكل وضوح ، وهي إذا كنت أحترم الشيم وأقدّر المثل والقيم ، فإنني أرى للصدق من هذه الشيم وتلك القيم منزلة سامية تشبه بجلالة قدرها وعظم شأنها منزلة الرأس من الجسد .

وعقيدتي هذه بجلالة قدر الصدق جعلتني في استمراري بتسجيل مواد هذا الكتاب أعاني أحياناً أزمة ضمير عنيفة وقاسية ، وذلك عندما أنوي الكتابة في حادثة يوجد عندي قسم من أصلها وجوهرها ، وإنما ينقصني القسم الآخر ، كما تنقصني معرفة فروعها وتفاصيلها .

وكم تتضاعف تلك الأزمة شدة وعنفاً في كياني ،

عندما يكون الراوي للحادثة قد توفاه الله ، في حالة كهذه أَجدني لا مَفَرَّ لي من مواجهة أَحد الأُمور الثلاثة الآتية :

١ - إما أَن أَورد الحادثة مقتصراً منها على القسم الجزئي الذي نقلته عن الراوي ، مغفلاً القسم المكمل للحادثة ، وعندئذ تكون الحادثة كالجسم المشلول .

٢- وإماأَن أُغفل الحادثة ، وهناك أَشعر كأَنني أَضعت شيئاً ثميناً من شيم صاحب الترجمة التي أَحرص على الاحتفاظ بها .

٣ - وإما أَن أُحاول إكمال ذلك القسم من عندي ، فإذا حاولت أَن أَفعل ذلك شعرت بوخز الضمير الذي يعذبني ، بصورة مقلقة ومؤلمة ، إلى درجة أَتخيل أَن هناك جلَّاداً شاهراً سيفه فوق رأَسي ، يراقبني مراقبة دقيقة وصارمة ، كأَنه يحاول أَن يحزَّ عنقي مجرد أَن أَزيد كلمة في الأَصل الذي رويته ، أَو أُضيف جملة إلى الجوهر الذي نقلته .

وهل هناك أشد من مراقبة الضمير ، ومحاسبة الوجدان ، على المرء الذي يكتب الشيم بحافز الهواية لكونها شِيَماً ، وعلى من يرى الصدق قمة الشيم وذروة القيم ؟ ..

إنني حينما أَواجه هذه الأُمور الثلاثة يهون عليَّ احتمال الأَمرين السابقين ، بقدر ما يصعب عليَّ احتمال الأَمر الأَخير ، بل يتعذر عليَّ احتماله أَصْلاً ، حتى لو أَردت سلوك ذلك السبيل الوعر ، فإن محاسبة الوجدان ووخز الضمير ، وشعوري بالجلاَّد الذي يراقبني أَقوى وأَشد من إرادتي .

هذه الحقيقة لم أَشعر بثقل وطأَتها على كل جارحة من جوارحي إلا عندما اصطدمت بها وجهاً لوجه .

والشيء الذي يسرني أَن أَقوله هو أَنه إذا كان لكل إنسانٍ في هذه الحياة هواية تتوق نفسه إليهاوهومغرم بها ، يهواها كهوى العاشق الولهان ، فإن هوايتي منصبَّةٌ على احترامِ الرجال الذين تتجسد في نفوسهم المثل العليا ، والقيم المثلى ، من وفاءٍ وإباءٍ وسخاءٍ وشجاعة ونخوة وعفوٍ .. الخ .

كل هذه الشيم وما لازمها من مروءة ونخوة ، وشهامة ونجدة ملهوف ، وعدل وما إلى ذلك من السجايا الفاضلة ، أراني مغرماً بها ، بصرف النظر عن كوني مطبقاً عملياً لكل هذه الشيم ، أو لبعضها ، أو أنني صفر اليدين من كثير منها أو منها كلها .

ولا غرابة في ذلك ، فكم يهوى الإنسان أخلاقاً ترنو نفسه إليها وتهتز كل جارحةٍ من جوارحه لسماعها ، ولكنه لا يطبقها عملياً ، بقدر ما يهواها نظرياً .

وقد نجد من يحب شخصاً ما ، ويعطف عليه ، ويمنحه الهبات ، ولكنه لا يعيره أدنى نوع من الاحترام .

وكم نجد إنساناً يفرض احترامه على أعدائه قبل أصدقائه وينتزع منهم تقديرهم لشخصه ، ويرغمهم على إعزازه وإجلاله .

وإذا كان من النادر أن نجد في علم التاريخ شخصاً اتفق رجال عصره الأعداءُ فضلاً عن الأصدقاءِ على احترامه احتراماً مصدره الشيم التي طُبعت بدمه ولحمه وناتجاً عن

المثل التي فطرت نفسه عليها ، فإن صاحب الترجمة الذي نمهد للحديث عن شيمه ومُثُلِهِ في هذا السِّفْر ، من نوادر الرجال الأَفذاذ الذين هم من هذا الوزن العظيم .

* * *

قلّ أن نجد من إذا انتصر على عدوّه اللّدود جعله وليّاً حميماً

واذا كان يندر أَيضاً ندرة تشبه المستحيل أَن عرف في تاريخ حكام الأمم وملوكها من إذا قهر عدوّه وسلبه مجده ونزع منه سيادته على قومه ، بل وقتل رجاله ثم جعل بعد ذلك هذا العدو يحبه محبة تعلو محبته أَبناءه ، بل وعلى استعداد هذا العدوّ بالأَمس أَن يفتدي هذا المنتصر عليه بنفسه ، أَجل ! إذا كان يوجد في الدنيا حاكم يتصف بهذه الأَخلاق التي يتعذر وجودها إلا بين العباقرة الأَفذاذ من عظماء الرجال ، فإن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود من نوع أُولئك الرجال ، وهو الحاكم الذي عندما ينتصر على أَعدائه عسكرياً لا ينظر إلى هذا الانتصار

المادي نظرة جدية ، ما لم يثق أنه استطاع أن ينتصر على أعدائه انتصاراً معنوياً وأدبياً وأخلاقياً.

انتصاراً يغسل به جميع رواسب العداوة ومخلفات الضغائن من قلوب خصومه .

انتصاراً يجعله يثق ويطمئن إلى أن خصمه انقلب من عدوٍّ لدود ، إلى ولي حميم ، ولن يفكر هذا العدو بالانقضاض عليه ، حتى لو أُتيحت له الفرصة لذلك .

انتصاراً يجعل له من أعدائه الألدّاءِ أَصْهَاراً وأقرباء ، ويربط به أواصر نسبهم بنسبه .

انتصاراً يجعل الكرماءَ من أعدائه الذين يملكهم الفضل والمعروف ، يجعل هؤلاء يقاتلون أهلهم وذويهم بجانب عبد العزيز ، كما سنورد عدة أدلة وشواهد تثبت صحة ذلك ، كما يجعل العدو اللئيم عندما يتنكر لمعروف عبد العزيز وفضله ويحاول أن يثير الفتنة بوجهه ، لا يجد له أعواناً يناصرونه ، فيسهل عند ذلك قبره وقبر فتنته في مهدها .

أريد بهذا السّفر
مواصلة الرّسالة التي بدأتها

واذا كنت عندما سعيت في جمع وتأليف شيم العرب ، وبذلت جهداً في جمعها وتدوينها إلى أَنْ طبعتها وأبرزتها للمكتبة العربية ، حتى أَن فصل (حماية الجار) أَصبح يدرس الآن لطلاب الصف الحادي عشر في مدارس (الجمهورية العربية السورية) .

إذا كنت نظرت إلى هذه الشيم من حيث هي قِيَمٌ ومُثُلٌ جديرة أن يقتديَ بتطبيقها الخلفُ كما طبقها السلف .

إذا نظرت إليها من هذه الزاوية ، بدون أَن أهتمَّ بعلوّ

منزلة صاحبها أَو انخفاضها عَلَماً كان ذائع الصيت أَو نكرةً خامل الذكر ..

نظرت إلى هذه السجايا الفاضلة نظرةً صادرة عن إيمان بأَنها غاية في حد ذاتها .

نظرت إليها بأَنها رسالة خُلُقِيَّةٌ ينبغي مواصلتها .

وإذا كان هذا هو مَبْدَئي الذي أُؤمن به في نظرتي هذه للشيم العربية ، نظرة منبثقة عن تقديري لأَهلها ، أَنَّى كانوا ، فإنني في تسجيلي لهذه الشيم التي طبعت في نفسية عبد العزيز ، أَجِد قيامي بهذا العمل يتضمن عدةَ معان حيّة أُلخصها كما يلي :

أَولاً ــ أَراني أُواصل الرسالة التي ابتدأْتها في إصداري الأَجزاء الأَربعة « من شيم العرب » والخامس في طريقه إلى النشر .

ثانياً ــ إذا كان هدفي من تأْليفي لشيم العرب ، كما ذكرت ، هو أَن يقتديَ الخلف بأَخلاق السلف ، وشيمهم ، فإن في شيم عبد العزيز وأَخلاقه ما هو جدير بأَن

يكون تراثاً حياً ، لا يقتصر على أبنائه وأحفاده وجميع اسرته الكريمة فحسب ، بل أن يكون نبراساً وضّاء يهتدي ويقتدي به كل حاكم عربي .

آملاً أن تكون هذه الشيم دستوراً عملياً يسعى إلى الأخذ به وتطبيقه كل رئيس حكومة عربي ، وكل رئيس دولة ، بل وكل حاكم عربي يستهدف بأخلاقه وسلوكه ومُثُلِهِ توحيد أمة العرب على النهج الذي وحد به عبد العزيز الجزيرة العربية .

وأخيراً لا بد من أن أختم هذه المقدمة بما هو آت :

أ ـ إنَّ مواد هذا الكتاب محصورة في جانب من الجوانب الخاصة بمثل الملك عبد العزيز وشيمه كالوفاء والعفو والسخاء والشجاعة ، وما إلى ذلك ، أما الجوانب الأخرى ذات الأحداث التاريخية فإنني لم أتعرض لها ، اللهم إلا إذا كانت هناك حادثة تاريخية ذات صلة بشيم صاحب الترجمة ، ومن ثَمَّ لا يسعني فصل الشيم عن الحادثة ، ففي حالة كهذه أجد أن لا مناص لي من ذكر الحادثة بكل أبعادها ، لكي أعطي القارىء صورة واضحة

المعالم عن أهمية تلك الشيم المتصلة بالحادثة ومثال ذلك قصة فتح عبد العزيز للرياض ، لما كانت هذه الحادثة في منتهى الروعة ، ولها مع ذلك الصلة المباشرة بشجاعة عبد العزيز التي أعددت لها فصلاً بهذا العنوان ، فإنني مضيت مستطرداً في الكتابة عن هذه الحادثة ، واستطرادي هذا جاءَ نتيجة لكوني لم أَرَ كاتباً استوفى وصف هذه الحادثة من جميع جوانبها ومن شتى أَبعادها ومختلف مراميها وأَهدافها .

ب ـ إذا كان الشاعر العربي يقول :

وشمائل شهد العــدوُّ بفضلها
والفضل ما شهدت به الأَعــداءُ

فإن القارىء سوف يرى في هذا السفر عدداً وافراً من أَعداء عبد العزيز الأَلِدَّاء الذين كان لهم من العدل والإنصاف وصفاء الضمير ما يجعلهم يشهدون لعبد العزيز بالفضل ، ويعترفون له بالمثل وسمو الاخلاق .

ج ـ وهذا البند مشتق من البند الثاني وهو اذا كان

أعنف الخصوم الذين تصدى عبد العزيز لمحاربتهم هم آل الرشيد ورجال قبيلتهم شَمَّر ورجال عاصمة إمارتهم حائل ، ولما كان أيٌّ مواطن يعي تاريخ بلادنا لا يجهل أَن جميع مقاطعات المملكة السعودية المتعددة لم يكلف عبد العزيز للسيطرة عليها والقضاء على سيادة حكامها أَكثر من فترة محدودة بما في ذلك الحجاز ، فإننا نجد عبد العزيز ظل واحداً وعشرين سنة وهو يناضل ويكافح نضالاً وكفاحاً مريرين حتى تمت له السيطرة على تلك الإمارة مؤمناً إيمانا راسخا أَنه لا يمكن أَن يبلغ أُمنيته في توحيده لهذه المملكة ما لم يتم له النصر على إمارة ابن رشيد التي تشكل القسم الكبير من شمالي نجد .

واذا كان هذا هو الواقع الذي لا يجهله الا من جهل معرفة تاريخ نضال عبد العزيز ، فلا عجب والحالة هذه إذا وجد القارىء في الصفحات الأُولى من فصول هذا الكتاب بحثاً مستفيضاً في الموضوع الذي له صلة بسيطرة عبد العزيز ، لا أَقول على حكم آل الرشيد وسلطتهم ، بل سيطرته على أَفئدتهم ، وأَسره لقلوبهم ، واستيلائه على

نفوسهم ، وبالتالي هيمنته على كل جارحة من جوارح كل فرد منهم .

وإنني إذ أُشير إلى هذه الحقيقة التاريخية في هذه المقدمة فإن هدفي من وراء ذلك هو أن لا يفاجأ القارىء بما سيراه في الصفحات الآتية .

د ـ اذا لم يكن أي مؤلف يصدر سفراً كهذا ، إلا وسوف يذكر في كل موضوعاته المصدر الذي نقل عنه روايته ، ومن ناحية ثانية : يضع في نهاية صفحات الكتاب جدولا يعرض فيه أسماء المصادر من الكتب التي نقل كتابته عنها فإنني من حيث الاولى وضعت المصدر الذي رويت الحادثة عنه .

أما من حيث وضع جدول أَسماء المصادر ، فلم أَفعل شيئاً من ذلك لان روايتي في كتابي هذا تختلف عن رواية بعض المؤلفين ، وإذا كان بعضهم ينقل روايته عن المؤلفين الذين سبقوه فان روايتي في هذا الكتاب قد أَخذتها من أَفواه الرجال الذين كانوا شهود عيان للحادثة ، وقد آخذها تارة من الرجال الذين يروون الحادثة عمن عاشوها وشاهدوها

بصورة مباشرة ، وحينما وجدت نفسي مضطراً إلى ذكر السند الذي أُوافي به القارىء ، حرصت بأَن أَضع الصورة الشمسية للراوي نفسه . وقد وفقت للحصول على عدد لا بأْس به من صور الرواة ممن توفاهم الله كالامير الفارس سلمان بن محمد آل سعود ، وكالشيخ إبراهيم السالم السبهان ، لقد أَخذت صورة لكل واحد منهما وجعلت صورتي معهما ، وهناك عدد من الرواة الاحياء أَخذت صورهم وبعضهم كنت ملاصقاً له بالصورة إثباتاً للحادثة ، ومنهم من كان منفرداً ، وما من صورة من هذه الصور إلا وهي وثيقة تاريخية أَردت من وضعي لها أَن تكون مؤيدة للحادثة ومثبتة لها .

ولما كان ما من انسان إلا وله حسنات وكبوات — كما ورد في المثل القائل : (لكل جواد كبوة ولكل إنسان هفوة) ، فإنني لا أَدَّعي أَن عبد العزيز معصوم عن الزلل ، وإنما الذي أعتقده جازماً أَن كفة شيمه وحسناته سوف ترجح بلا شك على هفواته. وإذا كنت حصرت كتابتي على الشيم والطيبات من الأَفعال فانني أَرجو أَن يكون لي بذلك

اسوة حسنة بـ (مَلَك اليمين) (١).

وهكذا حاولت ما استطعت أَن أستقصي الحقائق من مصادرها ، أَعني من رواتها الثقات ، كما حاولت وسع جهدي أَن تكون كتابتي مقصورة على الحسنات والشيم ، فإن وفقت باجتهادي فهذا ما أَصبو اليه وأَرجوه ، وإن لم يحالفني التوفيق ، فلا يلام المرء بعد الاجتهاد .

---

(١) ورد في الحديث النبوي الشريف ان كل انسان موكل به ملكان : واحد عن يمينه وواحد عن يساره فالأول مختص بكتابة الحسنات والثاني يحصي الزلات والسيئات ، وروي أن أعرابياً سأل : لماذا يلتفت المصلي عن يمينه وعن يساره في نهاية الصلاة ويقول : السلام عليكم . فقيل له : يسلم عن يمينه على الملك المختص بالحسنات . ويسلم عن يساره على الملك الثاني المختص بالسيئات . فقال : والله لا أسلم على من يحصي علي سيئاتي ، انما أسلم على صاحب الحسنات . فذهب يسلم على صاحب اليمين .



الفصل الأوّل

عَبْدُ العزيز في نظر ذوي الفراسَة وَهوَ في سِنّ الطُفولَة



يوجد بين رجال الجزيرة من له نظرة صائبة لا في بني الإنسان فقط ، بل حتى في نظرته إلى الخيل ـ فتجد منهم من يقول عن هذه الفرس انها (مشوعرة) أَي مشؤومة ، ويحدد هذا التشاؤم فيقول : سوف يصاب فارسها بطعنة خفيفة أَو طعنتين خفيفتين أَو سيقتل فارسها الأَول والثاني معاً الخ ...

وقل أَنْ يخطىء الصواب ـ صاحب هذه الخبرة التي أَكثر ما تكون متوفرة في رجال البادية .

في الفترة التي تفاقم فيها الشقاق بين الامام عبد الله الفيصل وبين إخوته ، وأَبناء إخوته ، ذلك الشقاق الذي كان سبباً لتقويض صرح سيادة آل سعود آنذاك ـ كما

هو شأْن أَي شقاق يحل بين الأُسرة بل وبين الأُمة في كل زمان ومكان .

في تلك الفترة برز على مسرح الأَحداث في نجد أَمير حائل محمد العبد الله بن رشيد ـ الذي كان مطلق السيادة في تلك البلاد أَي نجد من عام ١٣٠٨ هـ إلى أَن توفاه الله عام ١٣١٥ وذلك منذ معركة المُلَيْدَاء سنة ١٣٠٨ ـ إلى سنة وفاته .

وقد جاءَ الأَمير محمد إلى الرياض ، في الفترة التي كان عبد العزيز لا زال في سن الطفولة وكان بين رجال الأَمير محمد شخص يدعى صالح بن رَخِيص ، وصالح هذا معروف بأَنه لا يخطىء الهدف في نظرته الصائبة التي يصدر حكمه من خلالها على من يتفرس فيه النبوغ من الأَطفال ، وما أَن نظر صالح إلى الطفل عبد العزيز ـ حتى قال كلمته المحفوظة في صدور الرجال الشيوخ التي أَطلقها بلهجته الشعبية الآتية :

« إمَّا لمحمد وإما لهذا الصبي ـ بَسّْ عَسَى يُرِيْحْنَا اللهُ منْه وإلاَّ فهِي لهْ » !!

معنى ذلك ان صالح بن رخيص . توسم بالصبي عبد العزيز صفات الزعامة ورأى على محياه مقومات القيادة ، ومن خلال نظرته هذه أصدر حكمه بكلمته تلك التي يعني بها أن زعامة البلاد إما أن تكون لأميره محمد بن رشيد ، وإما لهذا الصبي ، مدركاً أن الزمان يسير بجانب الصبي الذي لا زال يافعاً ، بينما أميره مقبل على سن الكهولة ، ومعنى ذلك أن الصبي كل يوم يصعد درجة إلى العلى حتى يصل قمة المجد ، بينما أميره كل يوم ينزل درجة إلى أن يصل مثواه الأخير .

وكان صالح هذا بمنزلة المستشار عند الأمير محمد ، بصفته بعيد النظر وكثيراً ما يركن إلى رأيه الأمير الرشيدي .

* * *

شبح عبد العزيز يطارد محمد بن رشيد

على الرغم من أَن الأَمير محمد بن رشيد تعمد أَن يتجاهل الكلمة التي قالها ابن رخِيص ، وعلى الرغم أَيضاً من ان ابن رَخِيْص قبر كلمته هذه بمهدها إما بوحي من أَميره محمد ، وإما بإدراك منه ان معنى كلمته هذه لا ترضي أَميره ، رغم هذا وذاك كانت كلمة ابن رخيص هذه كالسم البطيء في نفس ابن رشيد ، الأَمر الذي جعل شبح الصبي عبد العزيز يطارده ويُقِضُّ مضجعه ، بصورة صامتة متوارية ، وكان يحاول أَن يخفي مخاوفه من ذلك الشبح ، حتى عن أَقرب المقربين إليه ، ولا عجب فالأَمير محمد في توطيده إمارة آل رشيد يعتبر بدهائه وحنكته ، وسياسته وبعد نظره ، وشدة حذره ، أَشبه ما يكون بعبد الملك بن

مروان بين حكام بني أُمية ، وكأَبي جعفر المنصور بين حكام بني العباس ، ولكن الأَمير بِقدر ما أَراد أَن يخفي حذره ومخاوفه من شبح الطفل ، كانت مطاردة الشبح له أقوى من جلده وصبره ، الأَمر الذي اضطره إلى أَن يكشف القناع لشخص من رجاله المقربين ممن توفرت فيه الأُمور الآتية :

اولاً ـ الإِخلاص الذي يبلغ درجة التفاني للأَمير .

ثانياً ـ ثقة الأَمير العمياء به بأَنه أَهلٌ لكتمان السر .

ثالثاً ـ قناعة الأَمير بهذا الشخص بأَنه لا يقل عن صالح بن رَخِيص معرفة وفراسة بوصوله إلى الحقيقة التي يشخص بها الرجال تشخيصاً وقدرة وفراسة يتمكن من خلالها أَن يصل إلى الغاية التي يستهدفها أَميره ، وهي إِذا كان ما توسمه صالح بن رخيص بالصبي حقيقة يؤيدها هذا الشخص الذي سينتدبه الأَمير لهذه المهمة ، وهو الفارس علي المِجْرَاد تأْييداً مطابقاً لنظرة سلفه ـ صالح ـ أَم أَنه يعود إليه بنظرة مخالفة لما قاله ابن رخيص .

وهكذا كلف الأَمير ابن رشيد علي المجراد المشهور بصلابته وصراحته . وقدرته على أَداء المهمة التي اختاره أَميره ليقوم بها بإتقان ، كلفه بان يذهب إلى (الكويت) البلد الذي يقيم فيه الصبي عبد العزيز هو وأُسرته ، وطلب الأَمير من رسوله أَن لا يعود إليه حتى يأْتي برأْيه فيمن يتوسم فيه النجابة والنبوغ من أَبناءِ الإمام عبد الرحمن الفيصل ، بدون أَن يحدد الأَمير لرسوله الشبح الذي يطارده ، وبدون أَن يعلم المجراد ايضاً برأَي ابن رخيص ، خوفاً من أَن يتأَثر ابن مجراد برأْي ابن رخيص .

* * *

اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله

« أثر شريف »

هذا العنوان بالذات سبق أَن أَوردته في مؤلفي الجزء الرابع « من شيم العرب » في ص ٢٨٨ .

ولما كان الموضوع الذي أُواصل الكتابة فيه جزءاً لا يتجزأ ، مما أَوردته في مؤلفي المذكور ، فإنه ليطيب لي أَن أَصله بصنوه على اعتبار ان المعنى في كليهما متصل اتصالاً مباشراً ـ ابتداءً من صفحة ٢٩٣ إلى صفحة ٢٩٩ جزء ٤ـ وهو ما يحسن بي أَن أورده بنصه :

عندما اختار الأَمير محمدُ عليَّ المجراد لهذه المهمة قال له : إنني سوف أندبك لمهمة ذات طابعين : طابع ظاهري وطابع سري .. فأَما الطابع الظاهري فهو التظاهر أَمام الناس

أنك مسافر إلى الكويت لتحمل رسالة لأمير الكويت الشيخ مبارك الصباح ، وهذه الرسالة وان كانت سلبية ولكنها كافية لتكون مبرراً لمهمتك الأساسية التي ستكون سرّاً دفيناً بيني وبينك .

حوار بين الأمير ورسوله :

علي المجراد ـ : ما هي الرسالة السرية أطال الله عمرك ؟!

الأمير ـ : الرسالة سرية كما ذكرت لك وستكون سرّاً بيني وبينك .

علي ـ : أنا ـ يا طويل العمر رجل صريح ولا أصلح للقيام بالأعمال التي لها ظاهر وباطن .

الأمير ـ : أنا أعرف الناس بخلقك ، ولذلك من المستحيل أن أختارك دون غيرك إلا بعد أن نقبت عن الكثير من رجالي الذين يصلحون لمثل هذه المهمة فلم أجد من يقوم بها خير قيام سواك ، فأنت الوحيد الذي أستطيع أن أعتمد عليه لمثل هذه المهمة .

علي ـ : لو أمرتني أن أذهب إلى مغامرة أعتقد أنني

سوف أُلاَقِي حتفي فيها إنني سوف أَذهب راضياً ، بدون أَن أُبدي أَدنَى تردد ، ولكنني أَتردد في قبول هذه المهمة لكونها ذات وجهين علنية في ظاهر أَمرها أَمام الناس ، وفي باطن أَمرها سرية ومكتومة إلى أَبعد حدود الكتمان . وهذا مما يجعلني أَخشى أَن تكون هذه المهمة مهمة تجسس تلك السجية التي تنافي شيمتي كل المنافاة !!

الأَمير ـ : وهل تظن أَنني إذا أَردت أَن أَندب للتجسس أَحداً لا أَجد من يقوم بمثل هذه المهمة ويؤديها على أَكمل وجه؟ اني لم أَخترك لمهمة التجسس التي أَعلم أَنها لا تنسجم مع خلقك ، ولكنني اخترتك لمهمة ، وإن كان الأَمر يقتضي الآن أَن تكون سرية ولكنها في الحقيقة ليست سرية ، اللهم إلا في نطاق محدود أَي في أَثناء رحلتك . وأَما بعد عودتك فإن شئت أَن تعلنها فلك أَن تفعل ، وإن شئت أَن تخفيها فالأَمر متروك لك .

علي ـ : هأَنذا مستعدٌّ للسفر في أَي يوم تأْمرني به ؟

الأَمير ـ : بقدر ما يمكنك من السرعة .

علي ـ : بإمكاني أَن أُسافر غداً لأَنني لا أَرى ما يدعو

إلى التأخير ما دام الأمر يهمكم إلى هذا الحد .

الأمير – : بورك فيك ، وغداً سوف أشرح لك المهمة التي ندبتك لها وإن شئت أن أخبرك بها الآن فلا مانع عندي .

علي – : أكون شاكراً لكم إذا شرحتم لي مهمتي بوضوح لكي يطمئن قلبي .

الأمير – : ألا تعلم أنه لا خوف علي من أيٍّ زعيم ينافسني السيادة في نجد سوى آل اسعود ؟ .

علي – : هذا شيء مفروغ منه .

الأمير – : ولكنني مع ذلك لا أخشى أبداً من واحدٍ من رجال آل السعود الذين تجاوزوا سنَّ الفتوة لأنني قد عرفتهم جيداً وأدركت أن حَظي متفوق على من ناصبته وناصبني العداء منهم وإنما الذي أخشاه نبوغ فتى من فتيانهم لا أعرف مدى تفوُّقِ حظي عليه .

علي – : وماذا تريد أن أفعله حيال ذلك ؟؟ ...

الأمير – : أريدك أن تذهب إلى الكويت بمهمة ظاهرها

يوحي بحمل رسالة للشيخ مبارك الصباح كأنها ذات أهمية وبال ، وباطنها المتواري هو أن تسبر لنا غور ابني الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود وهما محمد وعبد العزيز ، هذان الفتيان هما أنهد أبناء الإمام عبد الرحمن الفيصل ، ولكنني لا أعلم مدى كل منهما في ميدان النجابة ، فأريد منك أن تظل في الكويت المدة الكافية التي تمكنك من الاحتكاك بهما عن كثب ، وبالشكل الذي يمكنك من كشف حالة كل واحد منهما ، وتشخيص إمكانياتهما من شتى الوجوه ، وعليك أن توجد الوسائل التي تبرر طول مقامك في الكويت ، فيما إذا استعصى عليك الوصول إلى معرفة حالة الفتيين في أمد قريب .

علي – : إن كل شيء يمكن معرفته بعد التمحيص والإمعان إلا معرفة كنه حقائق الرجال ، فإن ذلك تضيع فيه المفاهيم ، وليس من السهل أن يحكم المرء على شخص ما بمجرد جلسة يوم أو يومين ، وإنما يحتاج الأمر إلى خبرة عملية وامتحان طويل ، وبعد ذلك للمرء أن يحكم برأيه بعد التجربة الطويلة ، وهذا الحكم أيضاً قد يكون

صواباً ، وقد يكون شططاً وجنوحاً هذا بالنسبة للرجال المجربين الذين تجاوزوا سن الفتوة ، فما بالك بالحكم على الفتيان الذين مواهبهم لا زالت كامنة ولم تصقلها التجارب بعد ؟ !

الأَمير – : إنني عندما اخترتك دون سواك من رجالنا الكثيرين اخترتك لأَجل ثقتي بقدرتك على تحليل شخصية الفتى الذي لا زال مجهول المستقبل ، خاصة من أُسرة آل سعود ، أَما الرجال الكهول فقد كشفهم لنا الزمان .

علي – : سوف أَفعل جهدي لتنفيذ ما أَمرتني به والتوفيق بيد الله .

الأَمير – : اذهب على بركة الله !!

وودع عليٌّ الأَميرَ محمداً وذهب إلى الكويت ممتطياً راحلته ، يصحبه أَربعة من رجاله وهم الطاهي وصاحب القهوة والبدوي المختص بحفظ الرواحل ورعايتها ، وصاحب شداد (رحْل) الراحلة ، أَي مرافقه الخاص . لقد قطع الأَرض البعيدة المدى الكائنة بين مدينتي حائل



الشيخ مبارك الصباح – حاكم الكويت –

والكويت بأقصر مدة يمكن أن يقطعها مسافر بوسيلة كوسيلته ، وما إن وصل الكويت حتى نزل ضيفاً عند الشيخ مبارك الصباح الذي استقبله استقبالاً حافلاً بالعناية والإكرام ، ثم قدم الضيف رسالة الأمير التقليدية التي لا تخلو من أن يكون فيها من المعاني ما يوهم القارىء بأنها ذات أهمية ، الأمر الذي جعل الشيخ مباركاً الذكي الداهية لا يخطر بباله أن هذه الرسالة ليست إلا وسيلة لا غاية .

لقد ظل علي المجراد موضع حفاوة وعناية عند الشيخ مبارك ، وفي اليوم الثالث لقدومه استأذن من الشيخ مبارك لزيارة الإمام عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، بحجة أنه عزيز قوم وسلالة حكامه الأسبقين ، فمن المروءة إجلاله عملاً بقول الشاعر حسان بن ثابت :

نُسوِّدُ ذَا المال القليل إذا بدت

مروءته فينا وإن كان معدما

فلم يتردد الشيخ مبارك في الموافقة على طلب ضيفه حيث بعث من رجاله مرافقاً من أجل أن يدله على منزل الإمام ، ومن هنا بدأت فصول المسرحية . لقد تظاهر

الرجل بكثير من الإجلال والتقدير للإمام وأُسرته ، كما أَكَّد للإمام عبد الرحمن بأَن وفاءه لحاكمه الحالي ـ أَي ابن رشيد ـ لا يتنافى أَبداً مع وفائه واحترامه لحكام وطنه السابقين آل سعود ، وأَن الشيمة العربية تقضي باحترام ذوي المجد السابق والسيادة القديمة ... ولما كان ابن مجراد من الرجال المعروفين بالشهامة العربية وبالمروءة الجمة فإن كل ما يتظاهر به من هذه السجايا التي يفرضها خلق العربي الكريم تكون من مثل ابن مجراد طبعية لا تستغرب ، مما جعل زيارته للإمام ولأَبناء الإمام تتكرر بصورة مقبولة حتى أَصبح بينه وبين الإمام وابنيه عبد العزيز ومحمد إلفة ووئام وكلما زادت الأَيام وزادت هذه الالفة ازداد معهما الرجل فراسة ودراسة لنفسية الفتيين .

ظل الرسول حائراً بين الفتيين

كانت المشكلة التي اصطدم بها الرجل وجهاً لوجه هي أَنه وجد الأَنظار كلها متجهة نحو أَحد الفتيين بما في ذلك والدهما الإمام ، بينما فراسته وتنبؤاته الخاصة كلها عكس ذلك ، فظل الرجل في حيرة من أَمره ، الأَمر الذي جعله

يضطر إلى أن يهتبل وسيلة تبرر له تمديد إقامته ، لكي يصل إلى نتيجة أكثر وضوحاً مما وصل إليه ، وقد فعل الرجل ذلك ولكن طول المدة التي قضاها لم تبدل شيئاً من نظرته الأُولى التي كانت على طرفي نقيض من نظرة الرجال المحيطين بالفتيين ، وكلما أطال المدة ، وزاد احتكاكه بالفتيين الأَخوين عبد العزيز ومحمد (انظر الصورة) زاد إعجابه بالأَول الذي كانت الأَنظار منصرفة عنه ومتجهة كلها نحو الثاني بما في ذلك والدهما كما ذكرنا آنفاً ، وبالتالي قرر العودة إلى أَميره ليحمل له الرأْيين المتضاربين ، فذهب إلى الشيخ مبارك ليستأْذن منه للعودة إلى أَميره ، فأَذن له مبارك ، وأَودعه رسالة جواباً على رسالة الأَمير ، فخرج الرجل من مدينة الكويت مع رفاقه الأَربعة فوصل مدينة حائل عاصمة إمارة آل رشيد بسرعة لا تقل عن سرعته عند ذهابه للكويت ، فقابله الأَمير الذي كان ينتظر عودته بفارغ الصبر مقابلة ودية ، ثم خلا به على الفور سائلاً إياه عن نتائج مهمته .

فقال علي : إنني في الحقيقة لا زلت في حيرة بين



الملك عبد العزيز وأخوه محمد وبينهما مبارك الصباح

ابني الإمام ..

الأَمير : ما هو مصدر حيرتك ؟ .

علي : إن مما وضعني في حيرة أن أنظار الرجال المحيطين بالإمام عبد الرحمن الفيصل كلها متجهة نحو محمد ، والذي زادني حيرة في أمري هو أَنني أَشعر أَن الإمام نفسه يشارك رجاله الإعجاب بمحمد ، ونظرة الوالد عادة تكون هي الحكم الفاصل بالنسبة لأَبنائه .

الأَمير : حقاً ما تقول ، فالوالد أَدرى الناس بمعرفة أَبنائه وإنما الذي أَخشاه أَن محمداً يفوق أَخاه عبد العزيز بالعمر وعادة ينظر الأَب إلى الأَكبر بعين الاعتبار بحكم فارق السن .

علي : من حيث الفارق في السن لم يكن بينهما ما يدعو إلى ذلك ، فقد سأَلت عن هذه الناحية فأُخبرت بأَن الفتيين متقاربان في العمر بحكم أَن كل واحد منهما من أُمّ ، ولكن القضية فيما يبدو لي قضية خلاف بعيد وبون شاسع بين رأَي كل من حاشية الإمام والإمام نفسه وبين رأَيي الخاص .

الأَمير : دعني من رأَي الحاشية ومن رأَي الوالد الذي عادة ما يكون أَعلم من غيره بالنجيب من الخامل من أَبنائه ، دعني منهم جميعاً ووافني برأْيك الخاص .

هذا ما كان يخشاه الأمير من مطاردة الشبح له :

علي : الذي أَراه وأَكاد أَن أَجزم به حسب خبرتي وتجاربي التي قل أَن تخطىء في هذا الشأْن وما أَقوله باختصار بالنسبة للمهمة التي نُدِبت من أَجلها هو أَنه لا خوف على حكمكم من خطر يهدد كيانه إلا من عبد العزيز الذي لم تكن الأَنظار متجهة إِليه الآن بقدر ما هي متجهة إلى أَخيه محمد .

الأَمير : ان الذي يهمني في هذا الموضوع بالذات هو رأْيك الخاص .

علي : من حيث رأْيي الخاص فهو كما أَوضحته لطويل العمر ، فقد أَكون مصيباً وقد أَكون مخطئاً . ولكن بالنسبة لفراستي وتجاربي الطويلة التي أَستند إِليها دائماً في تحليل شخصيات الرجال والفتيان معاً بالنسبة لذلك فإِنني أَجد أَن بين جنبي الفتى عبد العزيز قلباً أَلمعيًّا ونفساً لا يقف مدى

طموحها عند حدٍّ ، وروحاً تتجسد في جوانحها صفات الزعامة بكل معنى من معاني هذه الكلمة ...

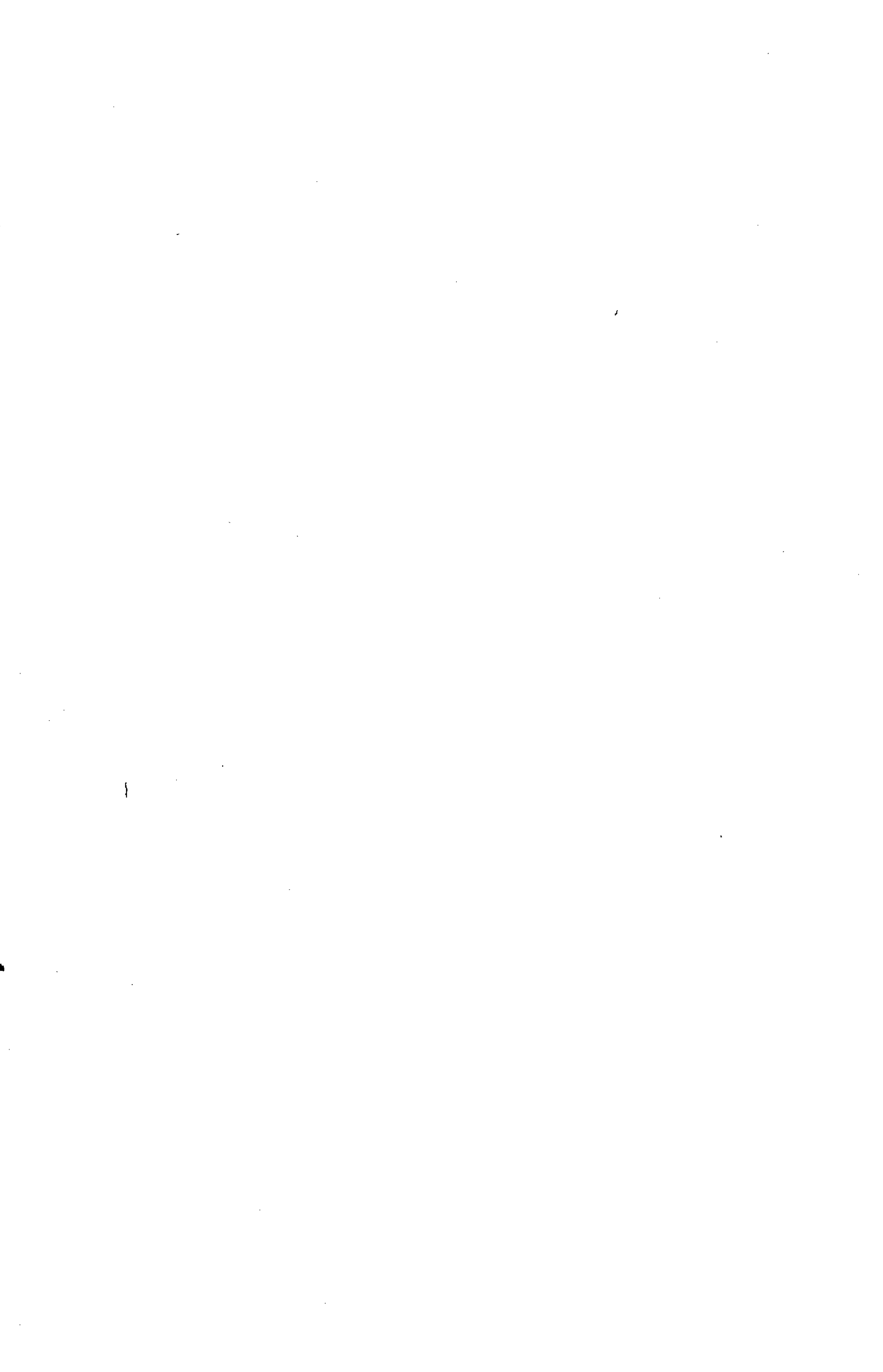
الأمير : إنني إن أشك في إخلاصك فمعنى ذلك أنني أشك حتى في نفسي ، ولولا إخلاصك اولا ثم مقدرتك على معرفة تحليل شخصية الرجال تلك القدرة التي لا أعرف أحداً من رجالنا يشاركك بها ، لولا هذه وتلك لما اخترتك على غيرك ، ووكلت إليك أمر هذه المهمة دون سواك .

وهكذا ظلَّ شبح الفتى يطارد الأمير بصورة أشد وأعنف من ذي قبل ، إلى أن توفى الله الأمير ، وفي نهاية الأمر تحققت تنبؤات ابن رخيص وابن مجراد معاً ..

وبعد : فإن علي المجراد لقي حتفه رحمه الله في المعركة المسماة بوقعة (الطُّرْفِيَّة) وهناك من يسميها بوقعة (الصريف) تلك المعركة الطاحنة الواقعة بين المرحومين عبد العزيز المتعب بن رشيد وبين مبارك الصباح من جانب آخر وقد انتصر فيها الأول انتصاراً كان بداية النهاية وذلك في عام ١٣١٨ هـ .

الفَصْل الثّانى

ثقة عَبدِ العزيز بنفسِه ورَأي الرّجالِ فيه بعد بُروزه على مَسرحِ الأحداث



الثقة بالنفس تكاد تكون عاملاً رئيسياً - من عوامل الطموح الذي يصل به المرء إلى السبيل الذي تتوق إليه همته ، وقلَّ أن نجد في أَسفار التاريخ رجلاً بلغ من المجد ذروته ومن الصيت قمته ، إلا وكانت ثقته بنفسه باعثاً إلى علو همته ، وذيوع صيته ، وحافزاً له إلى بلوغه أَحد الأَمرين الآتيين :

إما إلى مغامرة يلاقي بها حتفه إن خانه الحظ ، وإما إلى تحقيق هدفه وأَمانيه وآماله ، إن أَسعده الجَدُّ .

وتاريخ الرجال ذوي الثقة بالنفس والطامحين إلى قمة السلطة والوجاهة أَكثر من أَن يحصى ، وأَوفر من أَن يحصر ، وإنما القليل جدًّا الذين إذا وصلوا ذروة ما يصبون

إليه يظلون متربعين فوق هذه الذروة إلى أن يوافيهم أجلهم المحتوم ، بصورة طبيعية ، على نفس الصورة التي لقي بها ربه عبد العزيز ، بعد عمر طويل قضى الكثير منه بالمغامرات والفتوحات حتى وحّد بلاده المترامية الأطراف ، الفسيحة الأرجاء .

وأقلُّ من القليل من هؤلاء الذين يصلون إلى الذروة بالتماس الوسائل النزيهة ، الصريحة البعيدة عن الغدر ، والانتهازية ، كالوسائل الشريفة التي حقق عبد العزيز عن طريق التماسه لها الوصول إلى منتهى ما أوحت به ثقته بنفسه ، وما داعب طموحه من آمال بعيدة المرمى .

أمثلة عامة لرجال ذوي طموح وثقة بأنفسهم :

قبل أن أورد ما نقلته عن الرواة الثقات عما يختص بثقة عبد العزيز بنفسه مذ كان فتياً، قبل ذلك أودُّ أن أوافي القارىء بشواهد تاريخية ، وأدلة واقعة ، صدرت عن عدد وافر من الرجال .

وغايتي من عرض هذه الشواهد ، وتلك الأدلة هي إثبات صحة ما سوف أورده عن ثقة عبد العزيز بنفسه ، تلك الثقة



الملك عبد العزيز

التي صحبها طموح ومغامرات بها حقق عبد العزيز المجد والسؤدد اللذين كانا يداعبان أمانيه ويدغدغان آماله منذ أن كان يافعاً .

والأمثلة التي أوردها هي :

يحدثنا التاريخ عن كافور الإخشيدي أنه عندما اختلسه النخاسون قال لمختلسيه : لكم أن تفعلوا ما شئتم . ولكنني أعاهدكم الله أن لي نفساً لا يقف طموحها دون مملكة أجلس على أريكتها ، أو أن أدفع حياتي ثمناً في سبيل السعي إليها ، ولن تطمئن نفسي ، بعد أن سلبتم حريتي وشردتموني عن أهلي إلا أن أحظى بمجد رفيع أحققه ، ما لم يفاجئني أجل سريع يثنيني عنه ، وقد حقق عن طريق ثقته بنفسه وطموحه ما أراد ، حيث تربع على عرش مصر وسورية والحرمين ، وإن كان الحظ أسعده دون أن يقوم بمغامرة تعرضه لامتحان يلاقي به حتفه .

وهناك شاهد آخر نقلته عن الشيوخ الثقات الذين أدركوا الأيام الأخيرة من عهد عبد الله العلي بن رشيد ، المؤسس الأول لإمارة آل رشيد .

يقول الرواة : إن عبد الله بن علي (الفلاح التقي المتواضع الورع) ذهب هو وشقيقه عُبيد ـ يمتطي كل واحد منهما دابته ، ذهب الصبيان ليأتيا بعشب من الصحراء المجاورة لمزرعة والدهما ، ليقدماه للنواضح (السواني) وهي الإبل التي تخرج الماء من القليب لسقي الزرع والنخل * وعندما وضع كل منهما الحمولة على دابته انفلتت دابة عبد الله من يده ودخلت بين غابة من شجر الطلح الكثيف ، بصورة ظلت بها حمولة الدابة معلقة بين الأشجار ، في الحين الذي كان الصبي عبد الله واقفاً شارد الذهن ممسكاً بيده قبضة من الحشيش المتعلق بين الأشجار ـ فانتبه أخوه عبيد للمظهر الذي يمثله شقيقه عبد الله ، فصاح بأخيه : (مالك يا عبد الله وما الذي أصابك ؟) فكأن عبيدا بكلمته هذه أيقظ أخاه عبد الله من سبات عميق ، فكان جواب عبد الله لأخيه ما معناه :

لا تلمني يا عُبيد (عبيد الأخ الأصغر)فوالله انني في للحظة التي رن فيهاصوتك في أذني كنت راكباً فوق صهوة فرس حمراء أتصور نفسي في معركة حامية وأجدني

فيها الأَمير المطاع لفرسان قبيلتنا شَمَّر ، فآمر قسماً منهم بالغارة وقسماً بالكمين . » !!

قال عبد الله العلي بن رشيد هذه الكلمة وهو فتى في العقد الثاني من عمره قالها ابن الفلاح المتواضع في فترة مبكرة من عمره ، وإن دل ذلك على شيء ، فإنما يدل على أَن ثقة هذا الفتى جعلت خياله وطموحه وآماله تصل به إلى القمة التي أَصبح بها زعيم قبيلته شمر بلا منازع ، زعامة رفع بها أَبناءه وأَحفاده وأَحفاد أَحفاده وكل من يمت إليه بصلة القربى أَو المصاهرة من مواطنين عاديين ، وإن كانوا عريقي الحسب والنسب – رفعهم إلى قمة مجد ظلوا يتبوؤنها أَحقاباً من الدهر ، إلى يومنا هذا .

وإذا كنت أَوردت الدليل الأَول حسب رواية التاريخ ، كما أَوردت الدليل الثاني عن الثقات القريبي العهد فإنه ليطيب لي أَن أُورد دليلاً كنت شاهد عَيانٍ على جزء منه .
كان ذلك في اليوم الثاني من انقلاب الزعيم حسني الزعيم الكائن في ١٩٤٩/٣/٣٠ في ذلك اليوم جاءَ المقدم بشير الحواصلي الشامي الولادة والجنسية (أنظر الصورة) جاءَ إلى سفارة المملكة العربية السعودية في دمشق ، وكان الحديث في ذلك اليوم والأَيام

التي تليه يدور حول انقلاب الزعيم حسني الزعيم ، وهناك ذهب الحواصلي يوجه حديثه للسفير الشيخ عبد العزيز بن زيد ، حديثاً ابتدأه بقوله : (أنا لا أَستغرب ما قام به الزعيم من مغامرة بانقلابه هذا ، وإنما أَستغرب من رئيس الجمهورية شكري القوتلي الذي يسلم حسني الزعيم رئاسة الأَركان ، والزعيم معروف بأَنه مغامر . وكل أَحلامه وآماله محصورة بأَن تتاح له فرصة ليقوم بمغامرة كهذه) ويمضي الحواصلي بسرد القصة الآتية فيقول :كان الزعيم برتبة (كبتن) أَي ثلاث نجمات ـ وكنت بنجمة واحدة ، وكان هو الآمر للسرية التي كنت فيها ، وكان ذلك في عهد الاحتلال الفرنسي ، وفي ليلة من الليالي وكان نصف الليل الأَول قد ذهب وبدأ نصف الليل الثاني عندما جاءني الزعيم ، وأَمَرَ السرية ان تقوم بنفير عام ، وكنا وقتها باسكندرونة ، إذ كانت تابعة لسورية ، فذهبنا بكامل أَسلحتنا لا ندري ماذا يأْمرنا به ، وعندما وصلنا إلى (نادي الضباط) الكائن هناك ، أَمر الزعيم أَن يأْخذ كلٌّ جندي منا استعداده للهجوم ، وإطلاق النار ، حالما نسمع أَنه أطلق

النار من مسدسه ، فذهب حاملاً مسدسه ، إلى أن وصل إلى الحاكم العسكري الفرنسي ، الذي كان برتبة (كولونيل) وصوب فوهة مسدسه إلى رأسه وقال : (لك مهلة خمس دقائق تستطيع أن تسحب كلامك بها وإلا ستموت أنت ومن في النادي جميعاً) !! ويمضي الحواصلي فيقول : فما وسع الحاكم العسكري أمام الموت المحتم إلا أن يسحب كلامه ذليلاً خانعاً . ومن ثَمَّ عاد إلينا الزعيم يأمرنا بالانسحاب ، وعندما سألته عن السبب الذي جاءَ بنا من أجله قال : إن الحاكم العسكري شتم العرب وقال : إنهم جبناء . ثم أضاف الزعيم قدنقبل ان يمتص مقدرات بلادنا هؤلاء الكلاب ، ولكن لا نقبل أن يمتهنوا كرامتنا ، ويتهمونا بالجبن ، فأردت أن أضعه بين اعترافه بالجبن على نفسه وانحنائه أمام شجاعتنا وبين قبوله الموت فاختار الملعون الذلة والاعتراف لنا بالشجاعة ، ويواصل المقدم بشير حديثه قائلاً : إنني عندما أَنَّبْتُ الزعيم ولمته على مغامرته الجنونية هذه ، انحرف إليَّ وقال : اسكت يا بشير !! أُقسم لك لئن أحياك الله وأحياني لسوف ترى اليوم الذي



المقدم رشيد الحواصلي وعلى يساره الشيخ عبد العزيز بن زيد

سأكون فيه (هتلر سورية !!) .

عندما خرج المقدم الحواصلي من السفارة ، قلت للسفير ابن زيد : ألا تظن أن هذه الحادثة فيها شيء من المبالغة ؟ ! فرد السفير بقوله : ليس فيها أدنى شيء من المبالغة لأن مغامرة الزعيم هذه بانقلابه أكثر بكثير مما حدثنا به المقدم الحواصلي ، وواصل ابن زيد حديثه إلى أن أورد تحليلاً فلسفياً يكاد يكون معقولاً . وهذا التحليل هو بحد ذاته الذي دعاني إلى الاستطراد في قصة الزعيم هذه التي قد يظن القارىء الذي يقرأ بسرعة لا تدبر فيها أنني أقحمت هذه القصة بينما أراها جزءاً مكملاً لثقة عبد العزيز بنفسه ، ولا سيما بإضافتي لتحليل السفير ابن زيد عندما قال : إنَّ أي إنسان لديه ثقة بنفسه وطموح إلى تولي السلطة لا يخلو أمره من المعاني التي يكون بها إما أنه من سلالة حكام زال حكمهم ، ويشعر أنه فقد تراثاً من حقه أن يرثه ويسترده ، وإما أن يكون من نوع الرجال الذين يشعرون أن لديهم كفاءة وعقلاً راجحاً ومقدرة تخولهم إذا ما لو أتيحت لهم الفرصة أن يقوموا بإدارة الحكم

خير قيام ، وأما الأمر الثالث هُوَ أن يكون المرء ـ كحسني الزعيم ـ لديه ثقة بنفسه وطموح لا حد لهما ، وهو عار من الأولى ومن الثانية ، وإنما مصدر طموحه وثقته بنفسه (الهبال) الحماقة والجنون فقط ، ثم ختم ابن زيد حديثه بقوله : وإلا فهل يمكن ان يقوم بمغامرة انقلاب كهذا إلا مجنون كحسني الزعيم [1] .

سبق أن قلت قبل قليل: إنني عندما أوردت هذه الأدلة فإن غايتي من ذلك أن أثبت أن ثقة عبد العزيز بنفسه التي سوف أتحدث عنها كان مصدرها العاملين اللذين عبّر عنهما ابن زيد في تحليله السالف الذكر ، فشعور عبد العزيز بأنه من سلالة حكام فقدوا حكمهم هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ثقته بقدرته على إعادة حكم آبائه ، وبالتالي شعوره بثقته بنفسه الناتج عما يحس به من مواهب القائد الموهوب ، تلك الملكة وهذه القدرة الكامنة بين جوانحه هي التي أوحت إليه ثقته وطموحه ومغامراته التي حقق بها توحيد هذه المملكة بعد نضال مرير.

(١) لو استمر حسني الزعيم حاكماً لسورية أمداً طويلاً وكان له نصيب من الدعاية وقليل من التوفيق لما سمعنا من ينعته بالجنون !

كان الصديق المغفور له معالي عبد العزيز الأحمد السديري الذي كان وزيراً للزراعة ـ من خيرة الرجال الأفذاذ الصادقين ، الذين آنس بهم ، لا لتواضعه وبُعْدِ نظره ، ورجاحة عقله ، وصدق روايته فحسب ، بل لأَنَّ أَواصر الصداقة توطدت بيننا إلى أَبعد الحدود ، الأَمر الذي شعرت أَن وفاته كانت عليَّ من أَشد الفواجع ، وكنت كثيراً ما استفدت منه برواية الأَحاديث والقصص ، ذات الصلة بشيم العرب ، بصورة عامة ، وبشيم الملك عبد العزيز بنوع خاص .

فأَما ما كان من شيم العرب التي رويتها عنه ، فقد أَوردتها في مكانها المناسب [1]. وأَما المعاني التي رويتها عنه من شيم عبد العزيز فإِنه يسعدني أَن أُورد بعضاً منها في هذا الفصل الخاص بثقة عبد العزيز بنفسه التي أَنا بصدد الحديث عنها .

---

(١) انظر ما كتبته عن الصديق عبد العزيز السديري في ص ــ ٢٧٣ ــ في الجزء الأول « من شيم العرب » الطبعة الأولى .



أمير الجوف عبد العزيز السديري واقفاً

يقول السديري ـ : إن عبد العزيز في يوم من الأيام كان غارقاً بتفكيره شارد الذهن ، جالساً في نادٍ في الكويت يضم عدداً وافراً من رجال أهله القدامى ، فلاحظ شرود ذهنه أحد الرجال الجالسين فوجه اليه السؤال التالي :

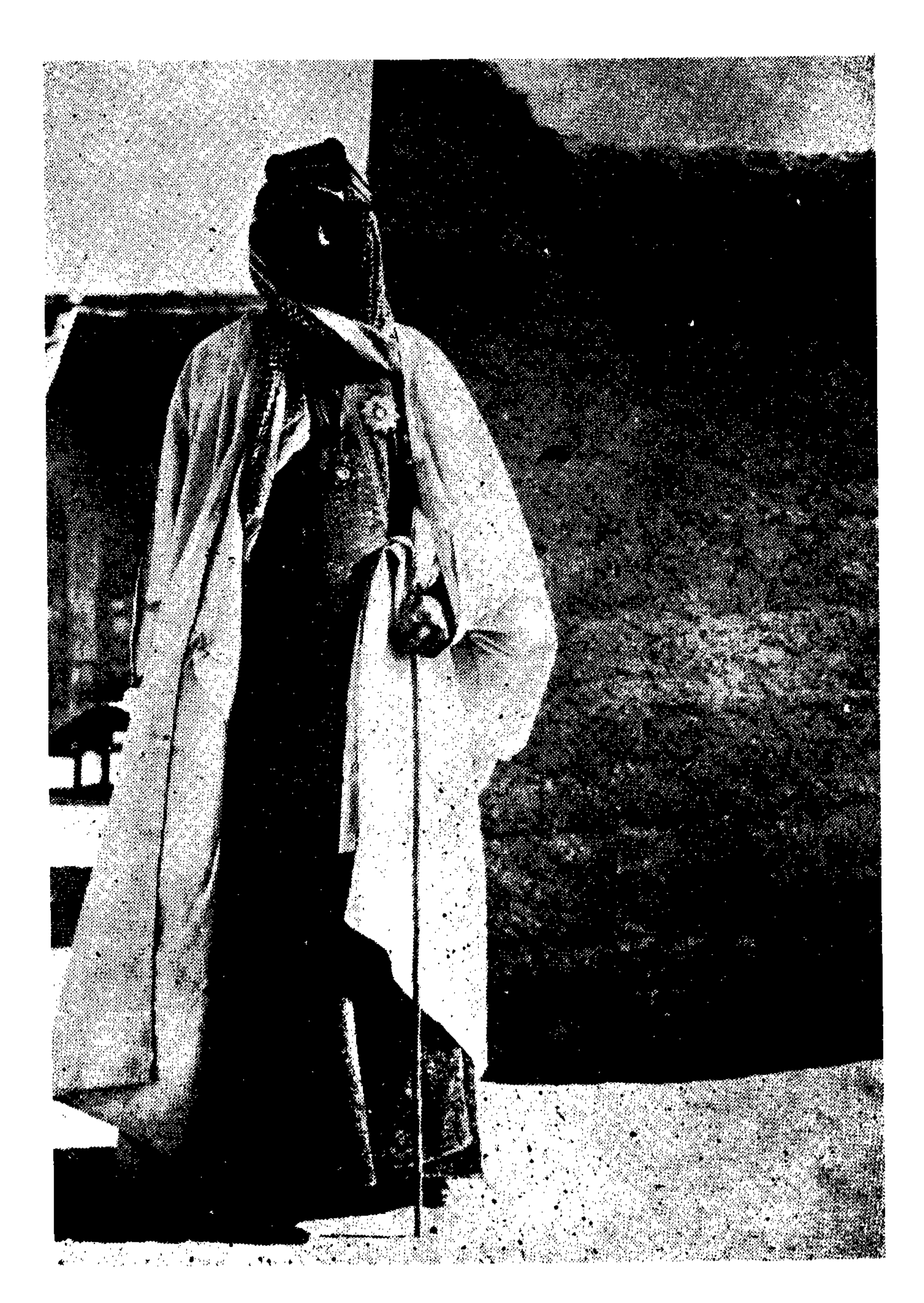
ما لك يا عبد العزيز كأنك لست جالساً معنا ، لا تشاطرنا الحديث لا مستمعاً ولا متحدثاً ؟ ! ..

فكان الجواب من عبد العزيز قوله : أتأمل نفسي فتىً لا يملك إلا هذا (المحجان) [1] ومع هذا أتأمل أنني سوف أحكم نجداً من شرقيها إلى غربيها ، وتأملي هذا هو الذي يشغل فكري عن مشاركتكم الحديث وعن استماعي لحديثكم !! .

هذا وإن ما سمعته عن المغفور له الأمير السديري يجعلني لا أستغرب ما ذكره الأخ إبراهيم بن خميس ـ رحمه الله ـ في كتابه « اسود آل سعود » (ص ٥٢) وخلاصة ما نقله ابن خميس عن الرواة وأورده في الكتاب المذكور : أن عبد

---

(١) المحجان ـ هو عصا ـ معكوفة الرأس تساق بها الراحلة اذا أراد راكبها أن تعدو عدواً سريعاً ، ويقال له (مشعاب) .



الملك عبد العزيز وبيده عصا تشبه (المحجان)

العزيز عندما كان بصحبة والده في الكويت ، كان كل ليلة يخرج من منزل والده في ساعة متأخرة من الليل ، ولا يعود إلا بعد انبلاج الفجر ، مما جعل والده يضع مراقبين للفتى من رجال أسرته ، وعندما تبع أثره المراقبون ، وجدوه متربعاً بمفرده فوق مرتفع من الأرض ، في مكان صحراوي بعيد عن العمران كل البعد ، وعندما سأل المراقبون الفتى عن سر خروجه وخلوته بنفسه كان الجواب من الفتى اليافع قوله ما معناه : إنه أراد أن يخرج في هذا الجو الصافي ليرسم الخطة التي يحتل بها الرياض ، ويطرد ابن رشيد ، والأتراك عن منطقة نجد بكاملها على الصورة نفسها التي قام بها جده الإمام تركي بن عبد الله آل سعود الخ ..

* * *

ثقة عبد العزيز بنفسه تجعله لا يقبل أن يكون مرؤوساً

من الصعب جداً على المرء الذي رزقه الله موهبة القيادة ، ومنحه أَخلاق الزعامة أَن يقبل لنفسه أَن يكون مرؤوساً ، وحتى لو أَراد أَن يروض نفسه لقبول ذلك ، فإنه لا يستطيع ، فطباعه سوف تفرض عليه التمرد ، وعدم الإذعان .

ومن المستحيل على من خلقت صفات الزعامة في كيانه أَن يقوم بعمل مثمر ما دام انه مرؤوس ، كما يقوم به المرء الذي تقبل طباعه أَن يكون مرؤوساً .

وقد تفرض الظروف القاسية على من وهبه الله صفات القيادة والرئاسة أَن يكون مرؤوساً مرغماً ، ولكنه في نهاية

المطاف سيفشل فشلاً ذريعاً ، ومن ثم يعود نافراً ورافضاً قبول الأَمرَ الواقع .

ويأْتي بعد ذلك الحظُّ فيلعب دوره الإيجابي فتارة تسير مواهب القيادة وطموح صاحبها وثقته بنفسه ، كل هذه المعاني تسير جنباً لجنب هي والحظ ، فيصعد صاحبها أَسمى منزل تتوق إليه نفسه ، كما هو الأَمر الواقع لصاحب الترجمة ، وتارة يخون صاحبها الجد إما عن سوء التصرف وإما عن عدم الظروف الملائمة ، وإما عن هذه وتلك .

وقد كان عبد العزيز من النوع الأَول ، وإن كان الزمان الذي ولد فيه والمكان الذي ترعرع فيه غتياً يافعاً ـ غير قابلين لبروز مواهب القيادة الكامنة بين جنبيه ، والراسخة بدمه ولحمه ، إلا أَنه رغم ذلك فرض نفسه على التاريخ فرضاً ، ورفض أَن يذعن أَو يرضخ للأَمر الواقع ، أَو يقبل أَن ينضوي تحت قيادة الشيخ مبارك الصباح الذي خرج من الكويت قاصداً منازلة عبد العزيز بن رشيد الذي كان صاحب السيادة على نجد .

أراد مبارك الصباح أن ينتزع من ابن رشيد زعامة نجد ويجعلها لنفسه ، وكانت الظروف لمبارك الصباح كلها مواتية، فالشيخ سعدون بن منصور بن سعدون الذي يعتبر رئيس أكبر قبيلة في العراق ، ومن أشهر زعماء العرب في وقته كان تحت إمرة مبارك الصباح ، وأهم من ذلك كان الإمام عبد الرحمن الفيصل آل سعود سلالة الحكام الشرعيين لنجد كان بجانب مبارك الصباح ، ورؤساء القصيم آل أباالخيلْ. وآل سُلَيم كلهم مُنْضَوُوْنَ تحت لواءِ ابن صباح ، ناهيك برؤساءِ القبائل الذين هم أيضاً تحت قيادته ، كقبيلة العجمان بقيادة ابن حِثْلَيْن وابن مُنيخر وقبيلة مطير بقيادة سلطان الدويش ، وكان ابن صباح ضامناً لنفسه النصر وواثقاً أنه مجرد ما يهزم ابن رشيد سوف يضم زعامة نجد إلى زعامته في الخليج العربي ، ولماذا لا يثق ابن صباح بالنصر ما دام جميع هؤلاء تحت إمرته ؟ !

اللهم إلا الفتى عبد العزيز الذي رفض رفضاً باتاًّ أن ينضوي تحت لواء ابن صباح .

ولما كان الفتى بارًّا بوالده إلى أقصى درجة تعبر عن برّ الابن بأبيه ولم يعرف عن عبد العزيز أنه خالف والده في أيّ أمر يأمره به ، فإنه وجد صراعاً في كيانه بين إذعانه وقبوله رئاسة ابن صباح ، الأمر الذي يخالف فطرته ، وينافي أخلاقه كزعيم جبلت نفسه على أن يترأس الرجال لا أن يكون مرؤوساً ، وبين مخالفته أوامر والده الذي لم يسبق له أن خالفه قط .

فلم يسع الفتى – على حد الرواية التي نقلتها عن المرحوم عبد العزيز السديري – إلا أن سلك سبيلاً يرضي به والده من ناحية ، ويرضي به من ناحية أخرى مواهبه التواقة إلى عدم ارتباطه بقيادة ابن صباح ، وطموحه إلى السيادة والمجد اللذين تصبو نفسه لتحقيقهما .

وهذا السبيل – هو أن ذهب إلى والده ، وقال له : لك يا والدي أن تختار بين أمرين وفي رواية اخرى قال : لك يا عبد الرحمن الفيصل أن تختار لي أحد الأمرين – : إما أن تسجنني ، وإما أن تترك سبيلي لأسير حرًّا طليقا كيف أشاء ؟ .. أما أنني أقبل لنفسي الإذعان تحت قيادة ابن

صباح فهذا أمر مستحيل !! .

فما كان من والد الفتى إلا أن سأل الله لابنه التوفيق، وتركه وشأنه ، فذهب من فوره إلى الرياض قاصداً في حالة انتصار ابن صباح على ابن رشيد أن يستقل بمدينة الرياض، دون أن يجعل لابن صباح موضع قدم فيها، بل أراد أن ينفذ مخططه الذي يدور في ذهنه وهو سيادته على نجد.

وهذا يعني أن لو انتصر ابن صباح على ابن رشيد في معركة الصريف سنة ١٣١٨ هـ ، معنى ذلك أن عبد العزيز سوف لا يجعل لابن صباح سيادةً على نجد ، كما كان يطمح إليها .

أما وقد كانت نهاية تلك المعركة النصر الساحق لابن رشيد والهزيمة العنيفة لابن صباح فتحطمت بعدها جميع آماله الرامية إلى سيادة نجد والخليج ما عدا بلاده الكويت. فقد قفل الفتى من غزوته التي أراد أن يحتل بها الرياض ،ذلك البلد الذي وقع بينه وبين أهله مقاومة .الأمر الذي جعل أهل الرياض معذورين لعدم استقباله .ما دام أنَّ في ذمتهم عهداً لامير البلد ابن رشيد ،هذا ما احتج به اهل الرياض ،والأمر الثاني أن ابن رشيد انتصر على ابن صباح ،ولم يعد ما يبرر قبول أهل الرياض للفتى

عبد العزيز ، وسوف يأْتي في الصفحات القادمة توضيح لما وقع بين عبد العزيز وبين أَهل الرياض من حرب دامت أَربعين يوما .

وهكذا ترك عبد العزيز الرياض دون أَن يدخل إلى قلبه الكبير اليأْس أَو يتسلل إلى فؤاده القنوط ، بل ترك الرياض وهو ينشد قصيدته التي لم أَحفظ منها إلا البيت الذي يعبر أَصدق التعبير عن عزمه وتصميمه على العودة إلى بلاده عندما قال :

يا دارنا لا تحزنينْ   لاَ بُدّ ما نَرْجِعْ عليْكْ

خرج من الرياض وذهب إلى الكويت ، وثقته بنفسه لم تتزعزع ، ومخططه الذي رسمه في ذهنه لا زال راسخا في قلبه الأَلمعي ، وإذا كانت وقعة الصريف عام ١٣١٨ هـ لم تتح للفتى الفرصة التي يحقق من خلالها أَهدافه ، فإنه أَعاد الكرة مرة ثانية غازيا الرياض ، أَو بالأَحرى أَعاد الكرة غازيا سرية ابن رشيد التي في الرياض برئاسة عجلان ، أَعادها بعد ذلك بعام واحد فقط . كما سنوضح ذلك في مكانه المناسب .

آمال عبد العزيز عام ١٣٢٣
تحققت في عام ١٣٤٠

جدير بهذا الموضوع أن يوضع في الفصل الذي جاء عنوانه كما يلي :

(إذا استولى عبد العزيز على البلاد عسكرياً ملك قلوب أهلها أخلاقياً) أو في فصل (الوفاء بالعهد) كما أنه قابل أن يكون في (فصل العفو) .

والحقيقة أن هذا الموضوع يحمل معنى متعدد الجوانب وقابلاً أن يكون في كل فصل من الفصول السالف ذكرها ، وإنما اخترت أن يكون في هذا الفصل لأن وضعه في هذا المكان أكثر مناسبة مما سواه من الفصول المذكورة وإليك تفاصيله :

عندما استولى عبد العزيز على مدينة بُريدة في مستهل

ربيع الأول من عام ١٣٢٢ تلك المدينة التي كانت خاضعة لنفوذ عبد العزيز بن رشيد ، وقد تم لعبد العزيز بن سعود احتلال هذا الحصن المنيع الذي فيه سرية ابن رشيد بقيادة عبد الرحمن بن ضبْعان .

تم له ذلك بعد حصار طويل ومثابرة وثبات ، وصبر وجلد أبداه رئيس السرية ورجاله دام شهرين وبضعة أيام ، بعد ذلك اتفق الإمام عبد العزيز وآمر السرية ابن ضبعان على أن يتم التسليم بصورة يتفق عليها الطرفان .

الطرف الأول عبد العزيز يتعهد بأن يضمن لابن ضبعان سلامته -هو ورفاقه وأن لا يمس أحداً منهم بسوء كما يتعهد عبد العزيز بأن يضمن لهم الرواحل والمؤونة حتى يصلوا إلى أميرهم في حائل .

ويتعهد الطرف الثاني بأن يسلم لعبد العزيز السلاح والعتاد اللذين لابن رشيد في بريدة .

ما كان قولا أصبح واقعا :

عندما استسلم رجال ابن رشيد لعبد العزيز ضمن

الشروط المذكورة ، ذهب عبد العزيز يحدث الرجال المستسلمين حديثاً وردت فيه جملة تحمل ما تصبو إليه نفسه من آمال وأماني ، وما يدغدغ طموحه من أحلام ، واثقاً من نفسه أنه سوف يحققها على طول المدى ، والجملة التي قالها عبد العزيز والرد على جملته هذه أوردهما كما نقلتهما عن الرواة بصورة متواترة ومشهورة وآخر الرواة الأمير سعود بن هذلول مؤلف كتاب « تاريخ ملوك آل سعود » . رويتها عنه في ٢٥ رجب ١٣٩٥ (٢ اغسطس ١٩٧٥) والجملة التي قالها عبد العزيز جاءت على الوجه الآتي :

(اذا شاءَ الله وطال عمري فوالله لا بدَّ أن أضع قدمي هذا في برزان [١]) : هذا ما قاله عبد العزيز لرجال ابن رشيد ، فقام أحد الشبان من جنود ابن رشيد وقال جواباً لكلام عبد العزيز : (لا يمكن أن يتم هذا إلا ورجلك فيها الحديد) .

والعبارة في هذا المعنى واضحة يعني هذا الشاب أنه لا

---

(١) برزان هو قصر الأمير ابن رشيد في مدينة حايل .

يتم لك يا عبد العزيز وضع قدمك في برزان ، إلا وفي قدميك الحديد أَسيراً .

عندما قلت في أَول هذا البحث : إن هذا الموضوع قابل أَن يكون في أَحد الفصول الثلاثة السالف ذكرها * وذلك أَنه يحمل معاني كل معنى منها قابل أَن يكون له مكان في تلك الفصول ـ فهو قابل بأَن يكون بالفصل الذي بعنوان : (إذا استولى عبد العزيز على البلاد عسكرياً ملك قلوب أَهلها أَخلاقياً) . وقابليته لأَن يوضع في هذا الفصل تعود إلى كون الذي قال هذه الجملة هو مبارك الشمران هذا الرجل المتفاني بوفائه وولائه لأَميره ابن رشيد ، إلى درجة ما استطاع ان تتحمل أَعصابه أَن يسمع هذه الجملة من عبد العزيز بدون أَن يرد عليه بكلمة عنيفة ، تحمل التهديد والوعيد والتحدي ، وهو الجندي المغلوب على أَمره ، هذا الرجل بعد مضي سنتين جاءَ به القضاء والقدر بأَن يكون من أَخلص المخلصين الأَوفياءِ لعبد العزيز ، وظل يقاتل أَمير بلاده وأَهل بلاده ، بجانب عبد العزيز ، ولم يتخلَّ عن وفائه وإخلاصه وولائه لعبد العزيز إلى أَن

لقي ربه في عام ١٣٧٢ ﻫ ودفن في مدينة الرياض.

هذا من حيث قابلية وجود هذا الموضوع في الفصل الذي أَشرت إليه في قدرة عبد العزيز على أَن يملك القلوب ، أَما من حيث قابليته لأَن يكون في فصل (الوفاء بالعهد) فذلك أَن الجملة التي أَجاب بها ذلك الجنديُّ عبدَ العزيز تحمل كما أَسلفت التحدي والوعد والتهديد ، وكان بإمكان عبد العزيز أَن يعاقبه أَعنف عقاب على هذا الجواب ، لو لم يكن حريصاً على أَن يفي بعهده ، وأَما صلاحية هذه الجملة بأَن تكون في فصل العفو فَلِأَنَّ مبارك الشمران قائل هذه الجملة وقع أَسيراً في يد جنود عبد العزيز ، في الليلة التي تم بها قتل الأَمير عبد العزيز بن رشيد في عام ١٣٢٤ ، وكان بإمكان عبد العزيز أَن ينتقم منه ويعاقبه من أَجل تلك الكلمة . ولكنه عفا عنه ، فأَسر قلبه بعد أَن أَسر رقبته .

أَما لكوني جعلت هذا الموضوع في هذا الفصل فلأَنني وجدته لائقاً أَن يوضع في هذا المكان أَكثر من لياقته في الفصول المذكورة . وتأْتي روعة لياقته على الوجه الآتي

عندما استولى عبد العزيز على إمارة حائل ودخل البلاد فاتحاً ، ذهب إلى برزان قصر الإمارة وعندما توسط القصر قال : أَين مبارك الشمران ؟؟ فلما حضر مبارك اتجه نحوه عبد العزيز ، وقال : ها أَنا وضعت قدمي في برزان فاتحاً لا مقيداً بالحديد ، فرد عليه مبارك قائلاً : قلْت وحقق الله لك النصر بما قلت [1] .

(١) جواب مبارك هذا لم أنقله عن المصدر المذكور الذي هو الأمير ابن هذلول وانما نقلته من الرواية المتواترة المشهورة .

الفصل الثالث

عبد العزيز في نظر من رآه بعد نضوجه



ذكرت في الفصول السابقة أَقوال أَصحاب الفراسة في عبد العزيز وهو في سن الطفولة ، وذكرت كذلك نظرة هؤلاء إليه وهو بين الطفولة والفتوة ، وذكرت أَيضاً نظرة عبد العزيز لنفسه وثقته بذاته ، وهو في سن الفتوة .

وها أَنا ذا أَذكر الآن نظرة من رأَى عبد العزيز بعد نضوجه وكمال رجولته ، أَذكر ذلك على الوجه الآتي :
يوجد في مدينة حائل شخص يدعى صالح أَفندي ، وصالح هذا كان ضابطاً في جيش الشريف حسين بن علي برتبة ملازم أَول ، وقد وضعه الملك حسين على رأْس سرية من جنوده في بلدة خيبر ، وعندما احتل الملك عبد العزيز خيبر قبل أَن يحتل الحجاز بسنتين كان صالح بين الجنود

الذين وقعوا في الأَسر ، ولما كان اختصاص الأَفندي هذا بالمدفعية والرشاش ، فقد عامله الملك عبد العزيز معاملة الضيف الكريم لا الجندي المغلوب الأَسير ، كما أَن الأَفندي أَنهى حياته مخلصاً لخدمة الملك عبد العزيز إلى أَن توفاه الله في حائل حوالي عام ١٣٨٠ هـ .

كان صالح أَفندي مقيماً في حائل ، وفقاً للمهمة التي أَسندها إليه الملك عبد العزيز ضابط مدفعية ورشاش ، وكان واسع الاطلاع ، وكثيراً ما أَرى والدي يزوره في منزله الكائن غرب البلاد ، ويأْنس به ، ويتبادلان الحديث هو ووالدي في شؤون الساعة .

وأَذكر ذات يوم أَن الأَفندي قال لوالدي : ما دمت ترى يا فلان تقديراً من الإمام عبد العزيز [1] فعليك أَن تظل عنده ، ولا تغادر بلاده . وكان والدي يُسِرُّ للأَفندي بأَنه ينوي أَن يذهب إلى العراق ، في سفرته التي توفاه الله فيها ، وكنت أَسمع الأَفندي يقول لوالدي : إن عبد العزيز بن سعود سوف تتسع دائرة حكمه ، وسيستولي

(١) كان يقال للملك عبد العزيز الامام ، لأنه لم يستول على الحجاز بعد .

على الحجاز . يقول ذلك لوالدي راغباً أن يثنيه عن إرادته التي ينوي كما أسلفت وهي أن يغادر البلاد بحافز من تلك العزيمة التي نفذها في نهاية الأمر [1] وفقاً لإرادة الله وقضائه الذي لا مرد لقضائه وقدره .

كنت إذ ذاك دون سن البلوغ بسنوات ، الأمر الذي يجعلني لا أستطيع أن أشارك الأفندي ووالدي حديثهما .

وقد غادرت وقتها مسقط رأسي مدينة حائل ، ولم أعد إليها إلا بعد تسع سنوات . وكانت الكلمة التي سمعتها من الأفندي لها وقع في نفسي ،ولا سيما بعد أن استولى الملك عبد العزيز على الحجاز ، وما إن وصلت حائلا بعد عودتي من سفرتي تلك حتى ذهبت أسأل عن الأفندي ، فألفيته كما تركته . وإن كان بدل منزله ، وبعد تبادل التحية استفسرت منه عن السر الذي أفضى به لوالدي ، فدهش الرجل وقال : إن هذا السر لم أحدث به أحداً اللهم إلا والدك رحمه الله ، والمرحوم عليان الزهيري ، ثم مضى

---

(١) انظر الجزء الثاني « من شيم العرب » ص ١٠٠ وما بعدها والجزء الرابع ص ٨٠ إلى ١٠٤ .

يشرح لي المناسبة التي أَوصلته إلى معرفة ذلك السر فقال :
عندما جئت من خيبر ، أسكنني الملك عبد العزيز في منزل حسن في مدينة الرياض بالنسبة للمنازل التي في ذلك الوقت ، ووفر لي جميع ما أَحتاج إليه ، من غذاء وكساء ورجال يقومون بخدمتي ، وفي ذات يوم خرجت إلى الساحة الفسيحة التي يقال لها (الصفاة) ـ وهي الكائنة في قلب مدينة الرياض ـ فوجدت رجلاً تختلف هيئته وبشرته عن سكان البلاد ، وجدته منزوياً وحده فعطفت عليه ، ودعوته إلى منزلي ، فلبى طلبي مسروراً ، وعندما احتسى أَكواب القهوة و « الشاي » واطمأَن إليَّ ذهب يرجو مني بأَن أسهل له السبيل الذي يوصله إلى الإمام عبد العزيز ، فوعدته أَن أَفعل بدون أَن أَسأَله عن غايته من وراء ذلك ، وكان لي بمستشار عبد العزيز خالد الحكيم صحبة جيدة ، فطلبت منه أَن يهيء لهذا الشخص الغريب مقابلة الإمام عبد العزيز ، فتعهد الحكيم لي بذلك ، فبعثت الرجل إلى الحكيم ، ولم أَره بعد ذلك إلا في اليوم الثالث حيث جاءني شخص من موظفي الضيافة ، يقول : إن فلاناً

الحلبي يدعوك لتناول العشاء في منزله . فقلت : لا أَعرف شخصاً بهذا الإسم . فذهب الرسول وعاد إلي بصاحبي ، وإذا به متوشح عباءة ممتازة ولباساً جميلاً ، فبهتُّ من تبدل منظره بهذه السرعة ، وعندما رأى علامات الدهشة بادية على محياي ، صارحني قائلاً : أنا فلان الحلبي ، كنت برتبة ضابط في الجيش التركي الذي جاءَ نصرة لعبد العزيز بن رشيد ليحارب عبد العزيز بن سعود ، وقد عهد إليّ قائد الفيلق التركي تحسين باشا بأن أذهب برسالة سرية إلى عبد العزيز بن سعود الذي كان معسكراً برجاله قريباً منا ، فحملت الرسالة وسلمتها لعبد العزيز ، وكان لي فراسة بالرجال لا تخطيء الهدف ، فتوسمت بمحيا عبد العزيز النصر . وقلت له : (لديَّ بشرى أود أن أُبشرك بها ولا أُريد منك مكافأة على بشراي هذه إلا بعد أَن ترى صحتها). فقال عبد العزيز : وما هذه البشرى ؟ .. فقلت له : إن فراستي بالرجال التي لا تخطيء تجعلني أُبشرك بأنك ستقهر ابن رشيد وسوف تستولي على حكمه والذي أُريد منك الآن هو أن تكون بشارتي في ورقة تختمها بختمك ،

فإن تمَّ لك النصر الذي بشرتك به مقدماً فلك أن تتكرم علي ببشارتي إن أَحياني الله ، وإن مت قبل ذلك فإن الذي يأتيك من أَبنائي حاملاً الورقة المختومة تمنحه البشارة ، بعد أَن يتم لك النصر).ويمضي صالح أَفندي في روايته هذه عن الضابط السابق في الجيش التركي فيقول : إنه عندما قدم إلى عبد العزيز الورقة قابله الإمام بالترحيب وأَكرم مثواه ، ثم إن الضابط قال لعبد العزيز بعد ذلك : لديَّ بشارة أُخرى لعبد العزيز ـ وهي أَنه سوف يستولي على الحرمين إن شاءَ الله ، وقد بشرته بها .

* * *

عبد العزيز برأي من نظر
إلى سجاياه وشيمه عن كثب

ذكرت في الصفحات الماضيـــة رأي ذوي الفراسة والتجارب بمعرفة الرجال ، ذكرت ذلك بطرق مختلفة ، والآن أود أن أذكر رأي شخص ، وإن كان أمياً ، إلا أنه صادق القول ، وفي العهد ، وهو شهم وتقي في آن واحد ، ومقياس الرجال عنده من خلال هذه القيم التي يتمتع بها هو ، وهذا الشخص هو فهيد مولى عبد العزيز المتعب الرشيد.

ذهب فهيد إلى الإمام عبد العزيز بعد أن قتل أبناءَ عبد العزيز المتعب أخوالُهُمْ ، ومكث عند عبد العزيز مدة تزيد على السنة ، ولم يعد إلى إمارة الرشيد إلا بعد أن

انتهى عهد حكم قتلة أبناء عبد العزيز الرشيد .

وحينما استقر فهيد في حائل عائداً من الرياض ، كان كثير الإطراء والثناء على عبد العزيز آل سعود ، بصورة لا مبالاة فيها شأنه شأن جميع الذين حكمت عليهم ظروف سياسية باللجوء إلى عبد العزيز ، ثم عادوا إلى أميرهم ابن رشيد بعد زوال تلك الظروف .

حدثني سرور العبد العزيز الصديق الحميم لفهيد والمعروف بصدقه وأمانته في نقل الحديث - يقول سرور : إنني عندما سمعت فهيداً يطري عبد العزيز بصورة مستمرة تدعو إلى الإعجاب قلت لفهيد : ألا تستطيع أن تعطيني صورة عما تعرفه عن عبد العزيز بن سعود ؟ ... فأجاب فهيد بقوله : الصورة التي أقولها لك باختصار عن عبد العزيز هي أنه رجل تقي عابد يقوم نصف الليل متهجداً متعبداً ربه ، وهو في الوقت ذاته شجاع مقدام ، عندما يجد لا سبيل للوصول إلى غايته إلا الشجاعة ، وسخي لا يرى للمال أية قيمة في سبيل مجده وعزه ، وسمح ، لين الطباع ، يعامل بالعفو ما دام العفو يحول دون

الانتقام ، وحازم صارم في بطشه عندما لا يفيد المعتدي إلا العقاب والبطش ، ومتحدث مقنع باستطاعته أن يستولي على أَفئدة السامعين ببيانه الفصيح . ثم مضى فهيد فقال : لرفيقه سرور: إن تلك الأَخلاق السامية التي توفرت لعبد العزيز بن سعود سوف تمكنه من أَن ينتصر على إمارة آل رشيد طال الزمان أَو قصر ، ويؤكد الراوي أَن فهيداً قال له : والله لم تطب نفسي بأَن آتي من عند عبد العزيز لأَنني واثق أَن نهاية إمارتنا سوف تؤول إليه ، وإنما جئت لأَن السبب الذي كان يبرر لي ذهابي من بلادي زال ، فلم يكن لي بعد ذلك أَي عذر عند أَهل بلادي يبرر لي البقاء عند حاكم ، الحرب قائمة بينهم وبينه .

* * *

عَبدالعزيز في نظر أشرس
رَسُول أوفِدَ إليه مِنْ أعدائِه

قل أَن يقابلَ الملك عبدَ العزيز رجل إلا ويعود بعد مقابلته له وقد بَدَّل كل ما في نفسه من كره شديد إلى حب له وإعجاب به ، فإن وفد إليه شخص ليفاوضه في أمور سياسية ، موفد من حاكم بينه وبين عبد العزيز حرب ، فإن شخصية عبد العزيز غالباً ما تسيطر على الوافد ، بصورة تجعل هذا الرجل يعود إلى قومه معجباً به ، وقومه الذين انتخبوه لهذه المهمة إما لمقدرته وقوة شخصيته، وإما لإخلاصه لحكامه إخلاصاً يجعله يكره أَي شخص يعاديهم ، وإما لجميع هذه الأُمور التي توفرت جميعها في صالح القريشي الذي انتخبه قومه لهذه المهمة ولم يعد إليهم إلا

وهو مأخوذ بشخصية عبد العزيز الفذة ، بصورة دعت رجاله إلى الحيرة . هذا إذا كان الرجل من نوع القريشي المعروف بقوة الشخصية ، أما إذا كان ضعيف الشخصية فتجده سريعاً ما يرتبك ، ويعود ذائب الشخصية كذوبان الملح في الماء .

ولقد شاء أمير حائل سعود الحمود بن رشيد أن يبعث رجلاً قوي الشكيمة ليفاوض الإمام عبد العزيز على عقد صلح ، فلم يجد بين رجاله أخلص له وأقوى شخصية بل وأكثر كرهاً للإمام عبد العزيز من صالح القريشي المعروف بقوة بأسه وشدة مراسه ، وما إن قابل القريشي عبد العزيز ، وعاد عنه إلى قومه إلا وحديثه عن الإمام عبد العزيز ، عاطر كالمسك ، يشيد بإعجابه به وبتقديره لشخصه ،في كل مناسبة وبدون مناسبة ، وبدون مبالاة أيضاً يتحدث بإعجابه هذا بعبد العزيز ولو كان في وسط نادي أميره ، لأن القريشي عرف بالصراحة ، وعدم مبالاته بإعلان رأيه الذي يعتقده ، ويؤمن به ، وحينما رأى قوم القريشي منه هذا التبدل أنَّبُوهُ ولاموه ، فكان جوابه لقومه ، تلك الكلمة

المأثورة التي نقلها لنا الرواة : (لا تلوموني على تبدلي هذا ، لقد جئتكم من شخص لو أخرجتم ماجد الحمود الرشيد من قبره ، ثم قابل الرجل الذي قابلته ، لما وسع ماجداً إلا أن يعود إليكم وهو متأثر بشخصية ذلك الرجل تأثراً لا يقل عن التأثر الذي رأيتموه مني) .

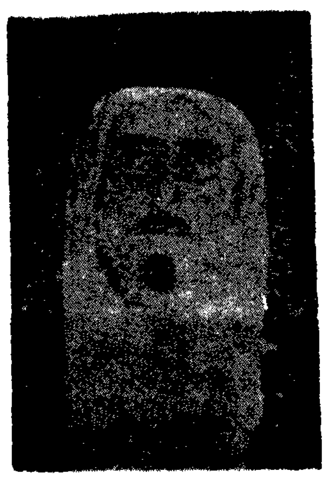
والقريشي عندما يختص ماجداً باختياره له فإنه يستهدف من ذلك أمرين : الأمر الأول هو أن ماجداً عرف أنه من أثقل أمراء آل رشيد عقلاً ورزانة وسعة إدراك ، وثقافة ، بصفته واسع الاطلاع ، الأمر الثاني : أن ماجداً قتل في معركة البكيرية الواقعةبين الإمام عبدالعزيز بن سعود وبين الأمير عبد العزيز بن رشيد ، ومعناه أن الإمام عبد العزيز وإن لم يكن هو الذي قتل ماجداً بيده ، فإنه هو قائد القوم الذين قتلوا ماجداً ، ويعني القريشي بكلمته هذه أنه لو خرج ماجد من قبره لتبدل رأيه بعبد العزيز رغم دهائه وسعة عقله ، ورغم ان عبد العزيز هو قاتله .

ولم يكن القريشي هو الأول ولا الأخير من الرجال الذين قابلوا عبد العزيز ، وهم قبل ذلك يحملون له عداءً

مراً ، وحالما قابلوه عادوا منه وهم اذا لم نقل عنهم بأنهم موالون ومحبون له ، فقد عادوا معجبين به كل الإعجاب .

وهناك أيضاً رجال آخرون سيطر عليهم عبد العزيز بشخصيته كما سيطر على القريشي .

ذكر السيد عبد الحميد الخطيب في مؤلفه « الملك العادل » ج ١ - ص ١٠٢ ذكر أن الاستاذ فؤاد الخطيب بعثه الملك علي بن الحسين شريف مكة إلى الملك عبد العزيز ليتفاوض معه ، عندما كان محاصراً لمدينة جدة ، وكان



فؤاد الخطيب

فؤاد الخطيب وزيراً لخارجية الملك علي ، كما كان وزيراً لخارجية الملك الحسين من قبل . وقد جرى حوار طويل بين عبد العزيز والخطيب ذكره صاحب كتاب « الملك العادل » بكامله ، وإنما الذي تجدر الإشارة إليه هو أن وزير خارجية الهاشميين عاد من عبد العزيز وهو مأخوذ

بشخصيته الفذة . وخذ العبارات التي أَسَرَّ بها فؤاد الخطيب لمن يثق بهم من رجال الملك علي ، كما أوردها صاحب كتاب « الملك العادل » بصفته واحداً من أعوان الهاشميين ومطلعاً على أسرار رجالهم وأسرارهم معاً . خذها بنصها الحرفي : (ولقد عاد الشيخ فؤاد إلى جدة ، وهو مؤمن بعظمة ابن سعود وسمو خلقه وصلابة رأيه ، وأنه ليس ممن تنطلي عليه الترهات أو تخدعه المظاهر وشقائق الأقوال . وكاشف بعض من وجد من رجال (الحزب الوطني) في جدة بانه لا سبيل إلى بقاء الحكومة الحجازية إلا إذا أمكن التخلص من الملك علي ، وقطع صلتها بالأشراف نهائياً ، فنصحوا له بأن لا يتكلم بهذا حتى لا يظن أن ابن سعود قد استماله إليه ، ويُعدّ هذا خيانة عظمى لنظام الحكم ، فيعرض نفسه للخطر . فما وسعه إلا أن يسكت على مضض ، ويسير مع الحكومة القائمة إلى النهاية) .

والرجال الذين استولى عليهم عبد العزيز بشخصيته أكثر من أن يحصوا ، وإذا كنت ذكرت القريشي والخطيب على سبيل المثال لا الحصر ، فإنه ليطيب لي أن

أورد أيضاً شخصاً عرف عنه أنه ممن يكرهون الملك عبد العزيز كرهاً لا مزيد عليه ، فلما أُتيحت له مقابلته تبدل كرهه لا إلى إعجاب وتقدير فحسب ، بل إلى مودة وولاء ، وهذا الشخص هو العقيد صلاح الدين الصباغ الضابط العراقي ، وقصة كرهه لعبد العزيز وإعجابه به ومودته له يرويها الدكتور أمين رويحة الذي كان شاهد عيان على ذلك ، والمقيم الآن في لبنان .

لقد حضر العقيد الصباغ إلى الرياض ، مع وفد يرأسه نوري السعيد ،فقابل الملك عبد العزيز في روضة (التّنْهات) ولكن العقيد بعد ان قابل الملك وسمع حديثه تغيّر بغضه حُبّاً وولاءً .

كأنه ينظر إلى قلب الرجل
فيبدله من سخط إلى رضا

ربما لا نجد غرابة في الأمر فيما لو رأينا أو سمعنا أن شخصاً كان يحمل عداءً لعبد العزيز ثم تبدل ذلك العداء إلى إعجاب وولاء ، بعد أن قابل عبد العزيز ، فهذا الأمر وإن كان مدعاة للفت النظر ، إلا أنه لم يكن غريباً في عالم العباقرة العظام ، الذين تتوفر فيهم صفات القيادة وتتجسد فيهم مواهب الزعامة . الغريب حقاً ليس إلا الموهبة التي رزق الله بها عبد العزيز بصورة كأنه ينظر إلى ما يضمره الرجل في نفسه، وما يكنه في فؤاده، وما يخفيه في قلبه من خفايا الأفئدة وبواطن القلوب التي لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى .

حدثني شخص لا زال فوق أديم هذه الأرض حديثاً جاءت مناسبته صورة عما أراني ماضياً في مواصلة الكتابة



الأمير سعود بن سعود الرشيد، وعن يمينه عمير المنصور، من اعيان مدينة حائل (رحمه الله)

فيه - أي أن معاني المناسبة التي جاءت بحديث ذلك الشخص هي نفس المعاني التي أوردها الآن عن عبقرية عبد العزيز، وما رزقه الله من مواهب يسيطر بها على أفئدة الرجال.

يقول محدثي : إن أعظم سِرٍّ بدا لي من أسرار شخصية عبد العزيز هو أنني أخرج من منزلي ذاهباً إليه في مجلسه مخفياً في نفسي له نيّات سيئة ، إلا أنني ساعة ما تراه عيناي يذوب كل ما في نفسي ويتبخر ، نتيجة لمعاملته الحسنة التي يعاملني بها ، فتتبدل نياتي السيئة إلى حسنة نحوه ، وينقلب ما وقر في قلبي ضده من بغضاء إلى ولاء ، ويمضي محدثي فيقول : فوالله لو تحدثت عما في نفسي لوالدتي [1] لخطر ببالي أن والدتي ذهبت إلى الملك عبد العزيز فأخبرته بما حدثتها به ، ولكن ما في نفسي سر مكتوم في قلبي لا يعلمه إلا الله الخ ...

وهذا الشخص هو الأمير سعود السعود الرشيد المقيم الآن في العراق . (انظر الصورة) .

---

(١) اذا كنت أسجل الأحداث ذات الشأن في حينها - على الرغم من أن لدي ذاكرة تغنيني عن التسجيل - فإن أشد شيء أخشاه هو اذا نقلت حادثة عن شخص ممن قد تنقصهم قوة الذاكرة فنسي ما رويته عنه ، خاصة اذا كانت روايتي للحادثة لها ما يزيد عن ربع قرن وهي مدة قابلة للنسيان .

الفصل الرابع

إذا فتح عبد العزيز البلاد عسكرياً
ملك قلوب أهلها أخلاقياً

عنوان هذا الفصل ، والذي يليه يشابه بعضه بعضاً ، والسبب في ذلك أن المعاني التي في حقلهما متشابهات ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أُخرى ، أَعتبرها الأَهم ، أَن المواد التي سترد في هذين الفصلين ستكون العمود الفقري في هذا الكتاب ، ولذلك سيجد القاريء زيادة في الصفحات والعناوين ، أَكثر وأَوفر من سواهما ، ففي هذين الفصلين ما يدل دلالة واضحة المعالم ، على الشيم العربية ، التي وهبها الله صاحب الترجمة ، فجعل منه البــارىء مجرد ما يتم له النصر العسكري على رقاب أَعدائه ، الحاكمين ، ورجالهم ومواطنيهم المحكومين ، يُنسي الأَولين ما فقدوه من سلطــانهم ، ينسيهم ذلك ببذله

لهم المعروف ، ومعاملته لهم بالحسنى ، والمواساة ، حتى لا يشعر أَحد منهم أنه فقد شيئاً من سلطانه ، بل يملك قلوبهم إلى درجة تجعلهم يجدون بأَخلاقه الفاضلة عزاء ينسيهم مجدهم التليد إلى الأَبد .

فإذا كان الحاكمون ذوو المجد والسيادة والسلطة قد وجدوا من عبد العزيز رضا وسماحة وشيماً خلقت في نفوسهم عزاء ينسيهم ويعزيهم عما فقدوه ، فإن من المسلم به أَن يجد مواطنو أُولئك الحكام وأَعوانهم من أَخلاق عبد العزيز ما هو جدير أَن ينسيهم حكامهم السابقين ، ويعزيهم عنهم .

وهذا مما يجعلنا نرى عبد العزيز لا يهتم بملك رقاب منافسيه وأَعدائه ، كما يهمه أَولاً وأَخيراً ملك قلوبهم من ناحية ، وملك قلوب أَعوانهم ومواطنيهم من ناحية أُخرى .

ولما كان الأَعوان والمناصرون لأَي حاكم كان ، وفي كل زمان ومكان ، أَشبه ما يكونون بجناحي الطير ، الذي إذا فقد جناحيه سقط من الجوِّ ، وهوى على الأَرض

محطم القوى ، فإنني أَودُّ أَوَّلاً أَن أُقدم ما أُتيح لي العثور عليه من الروايات التي تعبر أَصدق التعبير عن سرعة التبدل المفاجىء الذي حدث من مواطني أُولئك الحكام نتيجة للأُسلوب الحكيم الذي عاملهم به عبد العزيز ، ذلك الأُسلوب الكريم الذي جعلهم يتبدلون بين عشية وضحاها منذ اللحظة التي تم له النصر على حكامهم ، تبدلوا فوراً من سخط وعداءٍ ، الى رضا وولاء .

وإذا انتهيت من ذلك عدت إلى الفصل الثاني بعد نهايتي من هذا الذي أَبدأُ به على الوجه التالي :

آمنت بمقلب القلوب والأبصار :

حضر بين يدي قاضي مدينة حائل الشيخ عبد الله بن بلهيد خصمان أَحدهما المرحوم دُحَيم المهوِّس ، والثاني غاب عن بالي اسمه ، لأَن الذي كان في مخيلتي الأَول بحكم أَنه موضع الاستشهاد كان دحيم المدعى عليه ، أَي هو المطلوب منه اليمين وفقاً للقاعدة الشرعية القائلة « البينة على المدعي واليمين على من أَنكر » .

أَراد دحيم أَن يأْتي بقسم يكون مقنعاً للقاضي وللمدعي

معاً فبدأ كلامه بقوله:(آمنت بمقلب القلوب والأبصار)
ثم قال : أقسم بالله مقلب القلوب والأبصار ، الذي قلب قلوب ساكني حائل الذين انقلبت قلوبهم بين عشية وضحاها ، عندما غربت شمس تسع وعشرين من شهر صفر سنة الف وثلاثمائة وأربعين للهجرة المحمدية كان عبد العزيز بن سعود أحب الناس إليهم ، وهم في أول طلوع شمس ذلك اليوم يرونه أبغض خلق الله إليهم ، أنَّ ذلك الأمر لم يقع أو أنه وقع) الخ ...

ودُحيم بإشارته هذه يقصد اليوم التاريخي الذي استولى فيه الملك عبد العزيز على (حائل) بل استولى به على أفئدة أهل حائل وقلوبهم .

ويؤيد صحة القسم الذي أقسم به ابن مهوس عدة أمثلة لا يتسع المجال لذكرها أو بالأحرى لا أستطيع الإحاطة بها . وإنما أورد منها على سبيل الاختصار ما يلي :

في يوم ٥ من شهر صفر ١٣٩٤ ـ زرت الصديق الأخ علي[1] العبد العزيز العريفي في منزله في مدينة الرياض ،

(١) علي من أسرة العريفي الكبيرة التي استوطنت مدينة حائل منذ عهد قديم حتى الآن.

وكان الحديث المتبادل بينه وبيني يدور حول البحث في مقدرة عبد العزيز التي يهيمن بها على قلوب أعدائه فضلاً عن أصدقائه ، فحدثني علي حديثاً قال فيه : إن والده عبد العزيز دعا محمد بن نفيسة الملقب بِ (عُمْعُوم) بصفته رئيس السرية التي وكل إلى رجالها البقاء في حائل بعد فتحها مباشرة ، دعاه لتناول القهوة ، ويمضي علي قائلاً : إنه في تلك اللحظة التي كان ابن نفيسة يحتسي فيها القهوة ، جاء ذكر عبد العزيز ، فذهب والدي يسأل الله أن يمهل أجل الإمام عبد العزيز ، وأن يزيده توفيقاً ، ويواصل محدثي حديثه فيقول : وبما أن ابن نفيسة يدرك أن القوم الذين يقودهم عبد العزيز قتلوا شابين من إخوتي وهما عبد الله الذي قتله قوم عبد العزيز في معركة (جراب) الواقعة بين الإمام عبد العزيز وبين الأمير سعود ابن رشيد في ١٣٣٣ هـ والثاني إبراهيم الذي قتل في عام ١٣٣٩ إبان حصار الإمام مدينة حايل ، الأمر الذي جعل ابن نفيسة يوجه لوالدي السؤال الآتي: (أسألك بالله هل هذا الدعاء منك لعبد العزيز صادر من قلبك وهو قاتل أولادك) ؟ ...



عليّ العبد العزيز العريفي

فكان جواب عبد العزيز العريفي حسب ما نقلته عن ابنه علي - قوله : دع عنك هل ادعائي صادر عن حبٍّ لعبد العزيز أو مجاملة لك إذا كنت شاكًّا فيه ، ولكني أقول صادقاً بأن دعائي لعبد العزيز هو دعاء لنفسي ، قبل كل شيء ، وذلك بفضل الأمن الذي نعيشه وننعم به ، وهذا لم يحصل لنا قبل عبد العزيز .

هناك قرائن تأتي بها المناسبات يؤيد بعضها بعضا :

يحدثنا استاذنا المرحوم الشيخ عبد الله الخليفي قاضي المدينة المنورة سابقاً -فيقول : إنه في إحدى المناسبات التي كان الملك عبد العزيز جالساً في مجلسه العام الكائن في قصر السقّاف بمكة ، وقد حضر ذلك المجلس رجال من أعيان المواطنين ووجهاء البلاد - وذلك في عام ١٣٦٦ هـ ولا أذكر الآن المناسبة التي دعت الملك ليوجه كلامه للشيخ الخليفي عندما قال : يتهم الناس علماء الرياض بالتعصب الشديد ، والجمود بالدين ، مع أن مصدر التعصب هذا جاء من علماء حائل الذين منهم هذا الرجل ، يشير إلى الشيخ الخليفي ، ثم انتقل الملك من حديثه هذا الخاص

بتعصب علماء حائل إلى حديث عبر به عما يعتقده عن رأي سكان حائل فيه فقال : إنني واثق أنهم يحبونني الآن كما يحبون آباءهم وإخوانهم . فما كان من الشيخ الخليفي على ما أكد لنا إلا أن أجاب الملك ، مؤيداً له بما يعتقده عن مواطنيه أهل حائل - فقال : يحبونك لا كما يحبون آباءهم وإخوانهم ، بل كما يحبون أنفسهم . فقال الملك : هذا شيء أشعر به وأعتقده فيهم .

ويستطرد الخليفي في حديثه هذا فيقول : عندما خرجت من مجلس الملك انحرف إليَّ الشيخ محمد بن مانع الذي كان حاضراً ذلك المجلس وسامعاً كلام الملك الموجه إليَّ ، انحرف وقال : لماذا لم تقل للملك: إنني من أهل البُكَيرية ولست من أَهل حائل فكان جواب الخليفي للشيخ ابن مانع : إن الملك لا يجهل ذلك ، ويعرف عني كل شيء [1] .

(١) الشيخ عبدالله الخليفي هو فعلا من أهالي البكيرية ، ولم يأت الى حائل الا بعد أن تجاوز العقد الثاني من عمره ، وانما درس علوم الدين في حائل على الشيخ عبدالله بن مسلم ، وعلماء الدين في حائل ينقسمون في اتجاهاتهم الى قسمين : قسم أثر فيهم الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف جد الملك فيصل=

عامل عبد العزيز أهالي حائل معاملة المضيف والضيف والوالد :

عندما تم للإمام عبد العزيز فتح حائل ، لم يعامل أهل البلاد معاملة الفاتح المنتصر الغاشم البطاش .

نحن مع القائلين إن المعاهدات التي تمت بين الإمام عبد العزيز وبين إبراهيم السالم السبهان (انظر الصورة) تلزم الإمام عبد العزيز بحفـــظ كرامة المواطنين وعدم الاعتداء على أي شخص ، سواء ممن كان من أهل البلاد أو من المستجيرين بالأمير ابن رشيد ـ كما سيأتي ذكره ـ ولكن من هو الفاتح الذي إذا تم له النصر يتقيد بالعهد الذي أخذه منه المغلوب ؟ . بعد تجريده من السلاح ؟ !

أو لم يحدثنا التاريخ بأن أبا جعفر المنصور العباسي

= من أمه انظر ج-٣ من كتاب «من شيم العرب» ص٢٧٦)- ويقود هذا القسم الشيخ صالح السالم ومن تبعه ، وقسم يقودهم الشيخ عبد العزيز المرشدي والشيخ ابن مسلم شيخ الحليفي ، وبين الفريقين خلاف ظاهره عقائدي وجوهره سياسي . فالأولون بقدر ما يتظاهرون بولائهم للامام عبد العزيز - يبطنون نفوراً من أمير بلادهم ابن رشيد بصفته موالياً للأتراك ، والأتراك يحكمون بالدستور أي بغير كتاب الله وسنة نبيه . (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ومن والى كافراً فقد كفر . فابن رشيد برأي هؤلاء كافر ، بينما الجانب الثاني لا يرى رأيهم هذا فهو يوالي آل رشيد .



ابراهيم السالم السبهان وعن يمينه المؤلف

قتل قائد بني امية ابنَ هُبيرة ، وقد أَعطاه عهد الله إلى درجة يبالغ المؤرخون بقولهم : قتل أَبو جعفر المنصور ابن هبيرة ومداد العهد الذي أَخذه ابن هبيرة منه لم يجف بعد.

أَما الإمام عبد العزيز فإنه عندما فتح مدينة حائل لم يقف عند حدود وفائه بالعهد فقط بل عامل أَهل البلاد معاملة المضيف الكريم ، والوالد الرحيم ، فأَما معاملتهم معاملة المضيف السخي ، فإنه لما تم الصلح ، كانت البلاد محاصرة حصاراً إقتصادياً ، علاوة على الحصار العسكري حصاراً إقتصادياً بلغ ثمن صاع ارز العراق (التمَّن) جنيهاً ذهباً إنجليزياً ، بل قد يحمل المواطن من اهل حائل الجنيه دون أَن يجد من يبيعه الأرز ، فما إن فتح عبد العزيز البلاد حتى فتح (مضيفا) للمواطنين ذوي الفاقة ، ووزع على بعض المواطنين غذاء وغيره ، فتقلص غلاء المعيشة في البلاد بسبب ما تمَّ توفيره للمواطنين من المواد الغذائية ، تقلصاً نزلت به الأَسعار من القحط والغلاء الفاحش إلى اليسر والرخص ، حتى هبطت أَسعار الغذاء إلى أَدنى حد عرفه تاريخ البلاد .

وصادف ذلك العام أن جاء البلاد ربيع قل أن رأى المواطنون ما يضارعه إلا في السنين النادرة ، وقد جرت العادة أن أهل نجد يتفاءلون خيراً بالحاكم إذا كثرت الأمطار وازدهرت الأرض ، وزاد الكلأ كثرة وكثافة في أول سني عهد الحاكم الجديد ، كما يتشاءمون إذا أمحلت الأرض في عهد حاكم جديد ما .

هذا نوع من الأساليب التي عامل بها عبد العزيز أهل البلاد كمضيف ، وإن كان منها شيء ساعده القضاء والقدر على ذلك كوفرة الأمطار وكثافة العشب الخ ..

أما معاملته أهل البلاد كضيف باعتباره ضيفاً عزيزا مكرّماً فإنه قل أن ترك بيتاً من بيوت أعيان أهل البلاد إلا ودخله ، بل وأدخل على قلب صاحبه السرور ، واحتسى أكواب القهوة عند عدد كثير منهم إلى درجة أن هناك مواطناً بسيطاً ، لم يكن يوماً من الأيام من رجال الحرب ، بل كان يتظاهر بالجبن علانية حتى لا يشارك المحاربين في الدفاع عن البلاد ، إلا أنه خفيف الروح ، هذا المواطن القزم الحالك السواد الملقبُ بـ (قُدَيْر عَيْش) واسمه فالح ـ

وقف أَمام عبد العزيز وقال له ما معناه : دعك تتقاتل أَنت وأَبناء عمك آل رشيد تقتلهم أَو يقتلونك لا شأْن لي بذلك ، ولكن بيتي الذي نزلت فيه شظية من رصاص قومك ، عليك أَن تدفع لي قيمة ما تهدم من أَثر تلك الشظية . فانبلج وجه عبد العزيز من خفة روح فالح ، ودفع له مبلغاً من المال لم يكن يحلم به ذلك الصعلوك .

وإذ انتهيت من وصف معاملة المضيف والضيف اللتين عامل بهما عبد العزيز أَهل حائل بعد أَن تم له فتح البلاد ، عدت إلى وصف معاملته لهم معاملة الوالد المتواضع ناقلاً ذلك عن الأَخ علي الحمود السبهان ، وآل سبهان يعتبرون أَصهار آل رشيد ، ويعتبرون الأَسرة الثانية بعد آل رشيد في حائل ، يقول الأَخ علي : إنه في أَحد الأَيام الأُولى التي تم فيها فتح عبد العزيز مدينة حائل ، وفي المناسبة التي كان عبد العزيز خارجاً من منزل أَحد الأَعيان بعدما تناول عنده القهوة في تلك المناسبة مال عبد العزيز إلى أَمير البلاد سابقاً محمد الطلال الذي كان موجوداً تلك الساعة وأَخذ بيده ، ثم مال إليَّ وأَخذ بيدي ، وقال : اشهد يا محمد

الطلال أن بنات علي الحمود هذا ليس له الحق بزواجهن ، بل أنا الذي أُزوجهن من أُريد .

ولما كان العربي بطبيعته عاطفياً فإن هذه العبارة من عبد العزيز كان لها في نفس علي السبهان أثرها القوي الفعال .

ولا عجب ـ لقد شعر عليٌ بأن هذه الكلمة من عبد العزيز على بساطتها تعبر تعبيراً يوحي أن عبد العزيز يقول لعلي : أَنا والدك وبناتك حفيداتي .

ومن أَوضح الأَدلة على أَن عبد العزيز أَراد بكلمته هذه أَن يوحي إلى علي بهذا المعنى ، ومن أَوضح الأَدلة أَيضاً على أَن عليًّا شعر أَن عبد العزيز الفاتح ينظر إليه نظرة الوالد الرحيم إلى ابنه البار أَن عليًّا يروي هذا الحديث في منزله في جدة في أَول يوم من شهر ربيع الأَول عام ١٣٩٤ – يرويه وعلاما ت البشر والاعتزاز بادية على محياه ، على الرغم من أَن تاريخ ذلك الحديث من عبد العزيز مضى له أَربعة وخمسون عاماً .

وقد كان الشيخ فيصل المبارك حاضراً حديث علي هذا ،



علي الحمود السبهان وعن يساره المؤلف

ولا بد أنه لاحظ علامات الاستبشار بادية على محيًّا علي كما لاحظتها .

قل أن نجد مواطناً من رجال عبد العزيز حاربه مع خصومه :

لم يكن العداء الذي بين آل السعود وآل الرشيد عداءً ناشئاً عن خلاف في العقيدة والمذهب ، فالجميع سنيُّون ، على مذهب الإمام أَحمد بن حنبل ، وهم متحدون بإيمانهم بالعقيدة السلفية التي نشرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب القائمة على كتاب الله وسنة نبيه . بل أَعتقد أَن اتحادهم في العقيدة من أَهم العوامل التي أَعانت عبد العزيز على قوة الصلة بهم - فيما بعد - .

واتفاق الطرفين في كل ذلك أمر لا خلاف فيه . وأَوضح دليل على هذا هو أَننا نجدُ رشيد بن ليلى ، وكيل ابن رشيد عند السلطان عبد الحميد التركي ، نجده حينما نال شخص من علماء الأَتراك من الشيخ محمد بن عبد الوهاب ثار عليه ابن ليلى وغضب غضباً شديداً ، وأَكد له أن الخلاف بين ابن سعود وبين ابن رشيد خلاف سياسي

وأما العقيدة والمذهب فلا يوجد بين الجانبين أي خلاف فيهما .

وما دام العداء بين الرياض وحائل ، لم يكن من نوع العداء الذي قال عنه الشاعر :

كل العداوات قد ترجى مودتها
إلا عداوة من عاداك في الدين

أجل ما دام الأمر كذلك ، فإن من المسلم به أنه حال ما يزول ذلك الخلاف ويتم الوئام ، فإن العداء بطبيعته سيزول ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يكن ثمة عيب على المواطن الذي يحارب بالأمس بجانب أحد هذين الحاكمين أن يعود فيحارب الحاكم الثاني الذي كان قد حاربه من قبل .

فالوطن واحد ، والعقيدة واحدة ، والمذهب واحد ، واللغة واحدة ، والجنس واحد ، والعادات والتقاليد واحدة ، وحتى اللباس موحد بينهما .

إنما العيب الشنيع ، والخيانة العظمى أن يذهب عربي

ليحارب بجانب اليهود .

والشيء الذي يثير الانتباه انه نادر ندرة تشبه ندرة الكبريت الأَحمر أَن نجد مواطناً من قوم عبد العزيز بن سعود جاء محارباً له في جانب عدوه ابن رشيد ، بينما نرى العكس - أَي كثيراً ما نجد من رجال إبن رشيد من يحارب في جانب عبد العزيز بن سعود - .

وبتعبير أَوضح : كثيراً ما نجد فرساناً من فرسان ابن رشيد ، ومن شجعان رجاله ومن عشيرته الأَقربين ، بل ومن فرسان أُسرته الأَدنين - قاتلوا ابن عمهم إبن رشيد بجانب عبد العزيز - قتال الأَبطال - بل قتال المستميت ، وكثير منهم لقي حتفه بيد ابناء عمه كما سنوضح ذلك في الصفحات الآتية :

من رئيس لأركان جيش ابن رشيد
إلى رئيس لأركان جيش عبد العزيز

يردني الآن سؤالان ، السؤال الاول هو : هل يوجد عند الإمام عبد العزيز أَو عند الأَمير ابن رشيد ما يسمى برئيس الأَركان ؟ .. والسؤال الثاني : من هو هذا الشخص الذي تولى القيام بهذه المهمة تحت قيادة حاكمين ، الحرب بينهما قائمة على قدم وساق ؟ .. والجواب على السؤال الأَول : أَنه لا يوجد لا عند ابن سعود ولا عند ابن رشيد شخص يدعى (رئيس الأَركان) لقباً ورتبة عسكرية ، أَما من حيث الناحية العملية فإنه يوجد من يقوم بهذه المهمة ، وذلك في بعض المعارك التي تفرض على هذا أَو ذاك وجود شخص يمارس القيام بمهمة تضارع مهمة رئيس الأَركان .

وسوف أُوضح في الصفحات الآتية ما أَعنيه بهذا الشأْن.

أَما جواب السؤال الثاني ـ فهو : أَن الشخص الذي قام بمهمة رئيس الأَركان عند عبد العزيز المتعب بن رشيد وعند عبد العزيز بن سعود ـ هو فيصل الحمود الرشيد ، أَما متى قام بهاتين المهمتين ؟ ! فالجواب كما يلي :

لقد قام بالأُولى في نفس الليلة التي قتل فيها عبد العزيز بن رشيد ، في عام ١٣٢٤ هـ .

وذلك ان الرواية المتواترة تفيد أَنه في تلك الليلة التي هجم فيها الإمام عبد العزيز على الأَمير عبد العزيز بن رشيد ، وتم للإمام النصر بقتل نِدِّهِ الشجاع الجبار الأَمير عبد العزيز بن رشيد ، في تلك الليلة المظلمة يقول الرواة : إن الذي تولى إدارة فلول القوم المهزومين الذين قتل قائدهم ، هو فيصل الحمود الرشيد ،

تلك المهمة الأولى واليك المهمة الثانية :

أَما المهمة الثانية التي قام بها فيصل بجانب الإمام عبد العزيز ، فإنها كانت في معركة جراب عام ١٣٣٣ هـ .

يؤكد أكثر من واحد من الرواة الثقات أن لفيصل الحمود الرشيد الرأي السديد الذي أخذ به عبد العزيز حين انتصاره في بداية معركة جراب التي انتصر بها الإمام عبد العزيز على ابن رشيد وذلك في بداية المعركة ، عندما زحف رجاله البواسل ، وهزموا الميسرة من جنود سعود بن رشيد، ورجال هذه الميسرة أصحاب حيٍّ في مدينة حائل عاصمة ابن رشيد ، ويسمى ذلك الحي (لُبْدَةَ) وسكانه ينعتون بـ(أَهل لُبدة) وهم ذوو قوة لها مفعولها الحربي ، وجناحهم العسكري أَهم جناح يعتمد عليه ابن رشيد ، يؤكد الرواة بالإجماع أَن عبد العزيز ركن إلى الخطة الحربية التي عرضها فيصل الحمود الرشيد ، في رسمه الخطة العسكرية في معركة جراب ، مؤكداً لعبد العزيز أَنه إذا استطاع أَن يهزم (أَهل لبدة) شديدي البأْس فإنه يتمكن من هزيمة جيش ابن رشيد بكامله ، على اعتبار أَن رجال هذه الميسرة أَكثر رجال ابن رشيد عدداً ، ومن أَقواهم بأْساً ومراساً .

وإذا كان رأْي فيصل هذا فيه كل الحقيقة من الناحية العسكرية ، فإن فيه شيئاً من هوى النفس والضغينة والحقد

والكره من فيصل لأهل ذلك الحي ، لأسباب ليس هنا مكان للحديث في شرحها .

وفيصل هذا من أسرة ابن رشيد ذوي الحكم ، فهو يجتمع والأمير عبد العزيز بن رشيد في الجد الثالث الذي هو علي بن رشيد ، ولكنه عندما حكمت عليه الظروف أن يكون مستجيراً بعبد العزيز - أو كما يقال : لاجئاً سياسياً - كان متفانياً بما أبداه من شجاعة تحت قيادة عبد العزيز . ومن نصح وإخلاص - خاصة في معركة جراب بالذات . !!!

من سبر لابن رشيد إلى حارس لعبد العزيز

الحديث عن أخلاق عبد العزيز الذي استطاع أن يجعل أعداءه جنوداً أوفياء له وفاء يبلغ درجة يعجز عنها الوصف، وهم قبل ذلك ليسوا بجانب أعدائه فحسب ، بل من صميم أسرة ابن رشيد – كما سبق ذكره – وإذا كنت في الصفحات الأولى تحدثت عن رجل من أمراء آل رشيد وهو فيصل الحمود فإنني الآن أتحدث عن رجال من خواص الخواص الذين يعتمد عليهم الأمير ابن رشيد ، لا لكونهم فرسان حرب فقط ، بل لأنهم فرسان رأي وسياسة .

الحديث عن ذلك كثير وكثير .

وإذا كنت بدأت بذكر نماذج من رجال الحرب وفرسان الهيجاء فليس لكونهم أهم شأناً من فرسان الرأي

والسياسة ، بل لأن عدداً من فرسان الحرب قاتلوا أهلهم وذويهم بجانب عبد العزيز حبًّا منهم لانتصاره على إخوتهم وبني عمهم ، في الحين الذي كان آل رشيد في أوج مجدهم وعنفوان سلطانهم وفي الحين الذي لم يَبْدُ للعيان أن كفة النصر ستكون راجحة لعبد العزيز بعد .

فلو ذهب هؤلاء وميزان النصر راجح لعبد العزيز بصورة ملحوظة لقيل : إن ذهابهم كان بدافع (الانتهازية) .

واذ انتهينا من ذكر رجال الحرب ـ فلنعد إلى ذكر رجال الرأي والسياسة الذين وفوا مع أعداء عبد العزيز ، وظلوا مستمرين على وفائهم لحكامهم السابقين ، إلى أن تقوض صرح سيادتهم ، فواصلوا رسالة الوفاء بجانب عبد العزيز الذي قدر منهم الوفاء مع بني قومهم السابقين ، إيماناً منه أن الوفاء جزء لا يتجزأ ، وقناعة من عبد العزيز أن من يفي مع الأول فسيفي مع الأخير لا محالة ، وبالعكس .

والملاحظة التي تجدر الإشارة إليها ، هي أن رجال الحرب اولئك قاتلوا أهلهم بسلاح عبد العزيز ، وقُتِل منهم بسلاح أهلهم كثيرون ـ كما سيأتي ذكر

ذلك ، ولكن يطيب لي أن أورد على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ طلباً للاختصار ـ ذكر أحد الفرسان ممن أُتيحت لي الفرصة بأن أنقل قصته ، التي استولى بها عبد العزيز على قلبه ، فنقله من عضد أيمن لعدوه ، إلى ساعد أيمن له وحارس أمين يفتديه بحياته ، في ساعة كانت من أحرج الساعات ، وأشدها هولاً .

وحينما أخصُّ بالذكر هذا الفارس من مئات الفرسان ، الذين استمالهم عبد العزيز ـ بأخلاقه الكريمة وشيمه العربية التي أسر بها قلوب الرجال من أمثاله ـ عندما أفعل ذلك فإن السبب يعود إلى الأُمور التالية :

أولاً ـ هناك ظروف قاهرة حكمت عليَّ بأن أستضيف صاحب القصة الفارس هباس بن هرشان ، استضفته مدة كافية ، لأنقل عنه هذه القصة مباشرة في تلك الصحراء القاحلة التي لا جليس لي ، ولا أنيس سوى الشيخ هباس . وهكذا وفقت بأن أنقل عنه صورة حقيقية (من شيم عبد العزيز) التي أراني بصدد الكتابة فيها .

ثانياً ـ مكنتني تلك المدة من أن أعرف مدى تأثير عبد

العزيز على قلب ذلك الفارس .

ثالثاً - رويت عن صراع بن مغامس قصة تؤكد تأكيداً لا يرقى إليه الشك ، قدرة عبد العزيز على ملك قلوب أعدائه فضلاً عن أصدقائه .

وهباس هذا الذي أكتب قصته التي رويتها عنه ، يعتبر من خواص الأمير عبد العزيز المتعب بن رشيد ، بل يعتبر ربيب قصر الأمير ، ومن أبرز فرسان عصره ، ولا يكفي أن يقال : إن هباسا من قبيلة شمر فحسب بل ومن عشيرة عَبْدَة عشيرة الأمير ابن رشيد .

وأكثر من هذا وذاك ، كان عبد العزيز بن رشيد يعتمد على الفارس هبّاس بإسناده الملمات الحربية الكبار ذات الشأن الخطر إليه ، وهل تريد أكبر دليل على ثقة ابن رشيد بهباس من أنه في الليلة التي قتل فيها الأمير عبد العزيز بن رشيد كان هباس أحد الفرسان الثلاثة الذين اختارهم الأمير وانتخبهم من آلاف فرسانه ليقوموا بمهمة (سَبْر) قوم الإمام عبد العزيز . حتى أن هباساً يؤكد أنه كان ومعه رفيقه يسيران وسط فرسان الإمام عبد العزيز

وهما على صهوتي فرسيهما ، وتغلغلا بين الجيش المهاجم حتى بلغا مسافة قريبة من أَميره ، ثم عاد هبّاس إلى أَميره فأَخبره بالهجوم الذي شنه عليه الإمام عبد العزيز في آخر الليل ، والشرح في مصرع عبد العزيز بن رشيد موجود في أَدبنا الشعبي وخاصة في قصائد الشاعر محمد العوني ، الذي سوف أُصدر كتاباً عنه بعنوان « تاريخ جيل وحياة رجل » وعما قريب سوف أَتولى نشره إن شاء الله .

الشاهد هنا هو أَن هذا الفارس الذي كان (سَبْراً) لابن رشيد في عام ١٣٢٤ – هو نفسه الذي كان الحارس الأَمين للإمام عبد العزيز في عام ١٣٣٣ هـ وذلك في وقعة جراب المشهورة ، تلك المعركة التي كانت من أَعنف المعارك التي خاضها الطر ـ ن بالسلاح الأَبيض .

والحديث عن معركة جراب خارج عن هذا البحث ، إلا أَن جانباً من جوهر قصتنا هذه يتصل بمعركة جراب اتصالاً يتعذر معه فصله عن تلك المعركة التي جميع المؤرخين الذين تصدوا لتاريخ بلادنا سواء الغرباء عن معرفة أَدبنا الشعبي ، الذي يعكس الصورة الحقيقية بكل

أمانة وصدق ، أو الذين من أهل نجد ممن لا يجهلون أدب بلادهم كالأخ الأمير سعود بن هذلول صاحب كتاب « ملوك آل سعود » فكل من هؤلاء وأولئك عندما يصل الكاتب منهم عند معركة جراب لا يفيها شرحها مفصلاً ، ووافياً ، كما هي الحال في وصف أولئك الشعراء الشعبيين الذين وصفوها وصفاً كأنَّ المرء ينظر إليها من خلال وصفهم لها الوصف الرائع .

بل ولم نجد منهم واحداً أورد شاهداً من الأشعار الشعبية التي نعتبرها أصدق المراجع التاريخية ، في وصف الأحداث العسكرية والسياسية التي اجتازتها بلادنا في تلك الحقبة التاريخية .

وأظن أن السبب في عدم توضيح المؤرخين لمعركة جراب بصورة جلية يعود إلى كونها معركة مزدوجة فأولها للإمام عبد العزيز ، وحتى آخرها كاد أن يكون له ، لولا أن الحرب دائماً وأبداً كلعب القمار ، فاللاعب قد يكسب في أول الأمر كسباً مغرياً ، ثم ينتهي إلى الخسارة ، وقد يكون الأمر عكس ذلك .

فمعركة جراب أَشبه ما توصف به معركة أَحد ، التي انتصرفيها النبي صلى الله عليه وسلم وأَصحابه على قريش ، لولا أَن خالد بن الوليد وجد ثغرة هجم منها بفرسانه من خلال تلك الفجوة وحقق في آخر المعركة النصر .

وهكذا حصل في معركة جراب .

أَكرر ما ذكرته من أَنه ما كان لي أَن آتي إلى ذكر معركة جراب ، بصفتها خارجة عن الموضوع ، لولا أَن سياق الحديث الخاص بالفارس هبَّاس متصل اتصالاً مباشراً بمعركة جراب[1] .

اليك الصورة التي جعل بها عبد العزيز السبر عليه حارسا له :

حدثني الشيخ هباس قائلاً ، كنت في معركة جراب ممتطياً جوادي ، بجانب الإمام عبد العزيز ، وكان الذي

---

(١) أنشد شاعر الامام عبد العزيز في معركة جراب قصيدة شعبية أورد هنا بيتين يؤيد معناهما رواية الشيخ هباس وهما للشاعر صالح السكيني :

ذيْـــب يَلّي بذني بِعـْــــواه   دُوكَ آهَلُ لبدَهْ يمِينِ جرْاب
جَمْــعِ شَمّر بالقَدم ناطاهْ   بالهنادي وآمّ نِصْفِ خشَابْ

الخ ....

يهمني أَولاً وأَخيراً حراسة الإمام وسلامته ، أَكثر مما يهمني النصر ، ولذلك كنت ملازماً له ، ويمضي هباس في وصف المعركة فيقول : في الفترة التي كان الإمام عبد العزيز ينظر إلى تقدم رجاله الزاحفين ، الذين هزموا ميسرة جيش ابن رشيد وهم (أَهل لبدة) وهذه الميسرة يعتبر رجالها أَقوى وأَشد جنود ابن رشيد ، وأَكثرهم عدداً في تلك الفترة - يقول الراوي : فوجئنا بفرسان شمر يقودهم عقاب بن عجل [١] ، ولم يثبت عندي ذلك حتى رأَيت الفارس عباس بن علي ممتطياً صهوة جواده ، حاملا رمحه ، وهو منا قريب كل القرب ، وإنما كان لحسن الحظ نظره رديئاً ، ففي الحال لَفَتُ نظر الإمام عبد العزيز مؤكداً له

---

(١) أوضح دليل يؤيد ما ذكرته آنفاً بأن معركة جراب مزدوجة هو اننا نجد شاعر الإمام عبد العزيز صالح السكيني ، وصف بالبيتين السابقين انتصار قومه على قوم ابن رشيد - الذين هم أهل لبدة ، ومن جانب آخر نجد شاعر ابن رشيد فهد الفُويه ، يصف أيضاً هجوم فرسان شمر الذين قادهم عقاب بن عجل حينما هجموا على عدوهم يصف ذلك في قصيدة حربية نختصر منها البيتين الآتيين :

قال ولد نَدَا مِطْني : تيامَنّـا ... دُوك عِـقَاب رِكَض بالخيل من صُوْبه
أَدْبَحَوا عِقْب ما حنّـا تمكنّـا ... والطنَايَا تشبُّ النار بِجنُوبَـه

أَن المعركة انعكست ضدنا ، مثبتاً له رؤيتي للفارس عباس ، فتبدل اتجاهنا من الهجوم إلى الانسحاب ، ويواصل هباس حديثه إلى أَن قال : عندما انسحبنا كان بعض فرسان شمر قريبين منا إلا أَن غبار المعركة الذي أَثارته حوافر الخيل من الطرفين ، ودخان (البواريد) ، جعل المرء منا لا يستطيع أَن يميز الصديق من العدو ، غير انني في تلك اللحظة فوجئت بالفارس نَدَا بن نُهَير الذي كان حاملاً بندقيته ، وكنت أَعرف نَدَا لا تخطىء رصاصته الهدف ، ويصف هباس الصورة التي كان بها الحارس لعبد العزيز أَو بالأَحرى الصورة التي ملك بها عبد العزيز قلبَ هباس حتى جعله لا حارساً أَميناً فحسب بل يحاول أَن يفتديه بنفسه فيقول هباس : كنت عن يسار عبد العزيز ، ولكن لحظة ما رأَيت ندَا انتقلت من يسار عبد العزيز فجعلت نفسي يميناً منه ، لأَن عبد العزيز كان في مكانه السابق هو الموالي لندا ، فأَردت أَن أَكون بينه وبين عبد العزيز ، فقلت في نفسي : إن رأَيت نَدَا انتبه لعبد العزيز ورآه وحاول أَن يصوب بندقيته إليه فسوف

أَهجم عليه ، فإن أَصبته بمقتل منه فهذا ما أُريد وإن كان أَسرع مني وأَصابني تكون الإصابة بي عن الإمام عبد العزيز - وينهي هباس حديثه بقوله : إنني ظننت أَن نَدَا لم ير عبد العزيز كما لم يرني ، إلا أَنني بعد ذلك عدت إلى أَهلي ، والتقيت بندا ، فذهب يحدثني قائلاً : لا تظن أَنني لم أَرك في تلك المعركة ، أَو أَنني لا أَعرف أَنَّ الذي حُلْتَ دوني ودونه هو عبد العزيز بن سعود ، لقد عرفتكما ، وإنما الذي منعني عن الإقدام على عبد العزيز هو أَنني رأَيتك وضعت نفسك بيني وبينه ، وأَدركت أَن إقدامي على إصابة عبد العزيز يتعذر ، ما لم أَواجه أَحد الأَمرين : إما أَن تفاجئني فتقتلني ، وإما أَن أَسبقك وأَقتلك وأَي واحدٍ منا يقتل خسارة على جماعتنا (الويبار) [1] .

هذا الحديث نقلته عن هباس - وأَظن أَنه تحدث به ولا شك إلى عدد كثير من الناس .

أدلة تثبت صحة ما حدثني به هباس.

غالباً ما يكون الجيل القديم من رجالات العرب بعيدين

---

(١) نَدى وهبّاس كلاهما من عشيرة عبدة ومن فخذ واحد منها يقال له (الويبار).

عن التزويق والاختلاق في الأَحاديث ، فإذا كانت هذه القاعدة مألوفة وثابتة عند رجال العرب الأَقدمين ، الذين لم تفسدهم المادة ، فإن البدوي بطبيعته يتحدث حديث الصدق ، البعيد عن الافتراء ، يضاف إلى ذلك أَن فارساً كهبّاس - يصعب على المرء أَن يتصور أَنه يزور في كلامه لأَن الشجاع بطبيعته صادق بحديثه .

وعندما أَورد شاهداً يؤيد صحة رواية هباس ، فليس من قبيل شكٍّ بصحة ما سمعته من الرجل ، وإنما أَردت أَن أَزيد القاريء قناعة بصحة روايتي ، والدليل الذي أَورده أَنقله عن صراع بن مغامس [1] ، والراوي شخص لم يرد في روايته الثناء على هباس ، أَو أَنه من المحبين له بقدر ما كان يروي القصة بصورة عفوية ، وربما أَسمعني كلماتٍ تعبر عن عدم رضاه عن هباس ، بل عن سخطه عليه ، وعدم رضاه هذا صادر عن الزاوية العنصرية التي ينظر بها إلى هباس ، إن هباساً من قبيلة شمر كما مر بنا فكيف به ينضم إلى عدو القبيلة حسب مفهوم صَرَّاع إلا

(١) انظر كتاب المؤلف « التطور الفكري في جزيرة العرب » صفحة ٢٢ .

أن نظرة صراع هذه إلى هباس هي المقياس الذي أيد به صحة الرواية التي نقلتها عن هباس . وقبل ان آتي برواية صراع أود أن أتحدث عن المناسبة التي جمعت بين الاثنين في مدينة الرياض ، كما أود أن أتحدث عن شخصية صراع ، وعن المهمة التي أُسندت إليه عندما التقى بهباس .

فصراع من قبيلة شمر ، ومن عشيرة الأسلم ، ومن المتفانين إلى أبعد حدود التفاني بحبه لقبيلته شمر ، وبتعصبه لها ، وميزته الوحيدة التي برز بها أنه سريع البديهة ، وقوي الحجة ، رزين في بديهته وحجته ، يعطينا بحديثه وقوة حجته وسرعة جوابه المنطقي صورة لأحد دهاة العرب كالمغيرة بن شعبة ، وعمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، وأمثالهم .

وهذه الصفات هي التي جعلت أُمراء حائل يندبونه ليقوم بدور الرسول ليذهب إلى الإمام عبد العزيز حاملاً رسالة تتضمن معاني الصلح أحياناً أو ما شابه ذلك ، وخذ الرواية التي نقلتها من مصدرها .

يقول صراع : جئت الرياض موفداً من قبل أمير حائل

زمن سعود بن رشيد ، وسلمت الرسالة للإمام عبد العزيز ، وفي الرسالة جملة يقول فيها الأمير : (وهذا صراع حامل الرسالة ينوب عنا بالحديث الذي لم يكن بالرسالة) الخ ...

- ويذهب صراع بحديثه فيقول : (استلم مني الإمام عبد العزيز الرسالة ، وتركني عشرة أيام دون أن يأتي منه رد على تلك الرسالة ، وبدون أن يطلبني لمقابلته) ويمضي صراع قائلاً : (كان هباس كل ليلة يأتي ليسهر عندي ويحدثني حديثاً بعيداً عن معاني مهمتي ، وكنت فاهماً جيداً أن مجيء هباس هذا ليس محبة لي ، وأن وراءه شيئاً باطنه غير ظاهره ، وقد ثبت لي حدسي هذا ، وذلك بعد مضي عشرة أيام من جلوسي في الرياض ، حيث بدأ هباس يلاطفني بالحديث بمعان كلها تدل على أنه يقصد أن يرهق أعصابي ، لكي أنقل لأمير بلادي قوة الإمام عبد العزيز ، من أجل أن يوافق على الشروط التي يمليها علينا .

هذا ما أنقله عن صراع ، وهو أوضح دليل يعبر لنا عن أخلاق عبد العزيز التي جعلت (سَبْر) [1] عدوه

(١) السَّبْرُ : هو من يبعثه أحد المتحاربين لمعرفة أخبار الآخر وقوته ومكانه .

بالأمس يخلص له إخلاصاً لا بالعلانية ، وإنما إخلاص سره كعلانيته .

أما الشهادة التي يذكرها كاتب هذه الحروف عن إخلاص هباس ، أو بالأحرى كما ذكرت آنفاً ، عن (شيم عبد العزيز) التي ملك بها قلب هباس وأمثاله .

أذكر عندما كنت ضيفاً لهباس ـ كما أسلفت ـ ان ذلك الشيخ إذا قام آخر الليل يؤدي صلاة الوتر ، كثيراً ما أسمعه يقول : (يا الله تطول لنا عمر عبد العزيز) !!

* * *

مِن أشدّ المحرّضين على قتال عبد العزيز
إلى أفتك المقاتلين بسلاحه

ما أكثر الرجال الذين عادوا عبد العزيز وقاتلوه ، بل وحرضوا على قتاله بكل ما استطاعوا من القدرة ، ثم ساقهم القدر إلى أن جاؤوا إليه ، ومن ثَمَّ استولى (أبو تركي) على أفئدتهم وجعل منهم بفضل أخلاقه الكريمة جنوداً متفانين بولائهم له ، فذهبوا يقاتلون أهلهم وذويهم بسلاح عبد العزيز ، بل وما أكثر من دفع حياته على مذبح الإخلاص لعبد العزيز ، ومات بسلاح عشيرته الأقربين وأهله الادنين !!

ولا عجب فمن يتدبر نضال عبد العزيز الذي وحد به بلاده ، يجد أنه لم تحارب بجانبه أية قبيلة برابطة

العصبية ،

فالقائد الذي بنى زعامته في مجتمع من هذا النمط حريٌّ أن يكون هناك رجال حاربوه في فترة ما ثم عادوا وحاربوا بجانبه .

وإذا كنت قصرت موضوع القوم الذين قاتلوا أهلهم بسلاح عبد العزيز على عدد من رجال قبيلة ابن رشيد بل ومن رجال أُسرته بالذات ، فإن ذلك لا يعني أن عملاً كهذا محصورٌ على هؤلاء أو أن رجال القبائل الأُخرى لم يقوموا بأعمال مماثلة للأعمال التي قام بها فرسان ابن رشيد بجانب عبد العزيز ، وإنما الذي أعنيه أن فرسان ابن رشيد لهم وضع يختلف اختلافاً بعيد المدى عن سواهم من فرسان تلك القبائل ، وهذا الاختلاف يطيب لي أن أُوضحه على الوجه الآتي :

أولاً - إنَّ رجال القبائل الأُخرى لا يوجد عندهم حاكم يتمتع بالزعامة المطلقة التي يتمتع بها الأمير ابن رشيد .

ثانياً - قل أن تجد قبيلة بينها وبين رئيسها ذلك الارتباط العضويُّ الراسخ الجذور الذي يبلغ أبعد حدٍّ من

حدود التفاني والتضحية ، كما هي الحال في تكاتف قبيلة شمر لأميرها ابن رشيد وتفانيها .

ثالثاً - جميع الخصوم الذين وقعت الحرب بينهم وبين عبد العزيز - لم يكن بينهم الزعيم الذي يضارع ابن رشيد بزعامته على قبيلته وفي بلاده .

وإذا كانت هذه المعاني كلها متوفرة في قوم ابن رشيد - ومع ذلك نجد عدداً لا يستهان به من فرسان آل الرشيد أنفسهم ومن قبيلته ، ومن أهل بلاده - يتخلون عن ابن رشيد وهو في أوج مجده ، ويحاربونه بسلاح عدوه الذي يهدد زعامة أميرهم بالفناء الأبدي ، فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على عبقرية عبد العزيز .

مَنْ هو هذا المحرِّض والموالي ؟!
وَمتى كان محرِّضاً ؟!

المحرض والموالي هو مِلْبِسُ بن جِبرين أحد رؤساء قبيلة شمر البارزين .

ولنذكر أولاً الزمان والمكان والمناسبة التي كان فيها ملبسٌ محرضاً بل كان هو المحرض الأول .

فالزمان كان في ٧ـ٣ـ١٣٣٣ هـ (٢٤ـ١ـ١٩١٥ م) .

أَما المكان فانه في موقع رملي في صحراء نجد يسمى (السَّياريات) يقع قريباً من (جِرَاب) الذي وقعت فيه المعركة السالفة الذكر .

أَما المناسبة فإنها جاءت عندما قام كل واحد من الإمام

عبد العزيز بن سعود ، والأمير سعود بن رشيد بحشد قوته ليستعدًا لمواجهة بعضهما بمعركة يكون لها ما بعدها .

ولما كانت القوتان متكافئتين ، ولما كانت جميع المعارك التي يلتقي فيها الجمعان بقيادة ابن رشيد من جانب وقيادة ابن سعود من جانب يستحيل أن تنتهي إلا بعد أن يستعمل مقاتلو الطرفين السلاح الأبيض ويبطل مفعول (البندقية) وتسكت أصوات الرصاص ؛ ولا صوت إلا صوت حدود السيوف وأَسِنَّة الرماح ، فإن الأمر بطبيعته يجعل الإمام عبد العزيز والأمير ابن رشيد يحسب كل منهما ألف حساب وحساب لنتائج هذه المعركة التي تكاد تكون مصيرية ، وكان كل فريق يبعث (سبوراً) يسبرون العدو ، وكان سبور ابن رشيد الفرسان الآتية أسماؤهم :

١ - سعيد التُّوم -٢- صحن بن طعيسان بن زويمل - ٣ - عماش بن عنيزان - ٤ - غنام الشريطي - ٥ - فهاد الوبير - ٦ - فهاد الهيه - ٧ - مجول العيد بن زوميل

والفارس الأول هو الرئيس على هؤلاء . وقد قام قبل هؤلاء الفرسان بمثل هذا العمل فرسان آخرون بقيادة ماجد بن عجل ـ أما رجال (السَّبْر) الأخير فإنهم ـ حسب رواية شهود العيان ـ ذهبوا فوق صهوات خيلهم عند غروب الشمس ، ولم يعودوا إلا عصر اليوم الثاني ، عادوا بعد أن طافوا ليلاً بمعسكر ابن سعود ، وفي عودتهم أخبروا أميرهم ورجاله ذوي الحل والعقد عن تقديرهم لعدد القوم الذين مع ابن سعود ، مستنتجين ذلك من مساحة الأرض التي فيها أولئك القوم ، وفي الوقت نفسه كان عبد العزيز يبعث (سُبوراً) من فرسانه ليوافوه بتقدير قوة العدو .

وإذا كانت سبور ابن رشيد وابن سعود كلها تعكس الصورة الصادقة عن عدد القوم الذين مع كليهما ، فإن كلاً منهما كان متهيباً أن يكون هو البادىء بالهجوم ، وكان الموقع الذي فيه ابن سعود صالحاً للدفاع أكثر من صلاحيته للهجوم ، ومن المسلم به أن ابن رشيد مدركاً هذه الحقيقة .

هكذا فعل المحرض في إشعال نار الحماسة في قومه

جمع الأَمير سعود بن رشيد رؤساء قبيلته شمر ، وذهب يشاورهم في الأَمر ، محاولاً أَن يهتدي برأْيهم ، هل يظل في مكانه مدافعاً أَم يبدأُ بشنِّ الهجوم ؟ ! وهنا اختلف الرأْي ، فمن قائل يظل في مكانه ، ومن قائل بل نبدأُ بالهجوم ، وفي تلك الفترة التي لم ترجح فيها كفة أَي من الرأْيين قفز الشاب (مِلْبس بن جبرين) الذي كان يرتدي (زبونا) أَزرق مقصباً (جُبَّة) ولم يكمل الشعر في وجهه بعد تاركاً ضفائر شعره مسترسلةً فوق منكبيه على الطريقة المأْلوفة حينئذ ، وصرخ بأَعلى صوته الممزوج بحماس الشباب ؛ وبلهجته الشعبية وقال العبارات الآتي نصها الحرفي :

(عليه وَالدَّايِسْ يدُوْسْ) !! أَي فلنهجم على العدوّ ، ولتطأْ حوافر خيلنا ما تطؤه في أَرض العدو .

وكان الحماس آخذاً مداه عند فرسان ابن رشيد وخاصة عند المتحمسين وفي طليعتهم ضاري بن طوالة رئيس عشيرة الأَسلم . وكانت كلمة هذا الشاب أَشبه ما تكون بملح (البارود) الذي أَشعلت فيه النار ، فما وسع الفرسان الحاضرين إلا أَن ذهب العدد الوافر منهم يردد كلمة هذا الشاب بصوت جهوري ، فحاول أَصحاب الرأْي المعاكس أَن يقفوا أَمام هذا الرأْي ، ولكن جرفهم التَّيَّار ، وتفتت محاولتهم على صخرة إرادة الأَكثرية من فرسان القبيلة ، الذين أَجمعوا على رأْي الشاب ، فمضوا من مكانهم مهاجمين جيش عبد العزيز ، الذي كان في مكان عسكري حصين . وإذا كان بين فرسان شمر شاب دافق الحماس كملبس بن جبرين ، الذي حرض قومه على قتال عبد العزيز ، فإنه يوجد فارس من فرسان عبد العزيز لا يقل اندفاعاً وحماساً عن ابن جبرين ، وهو هزَّاع بن شُقير من رؤساء قبيلة مطير ، الذي قال للإمام عبد العزيز : كنا نعرفك يا عبد

العزيز أَنت المهاجم دائماً وأَبداً ، تبدأُ بالهجوم فكيف بك الآن تجلس تنتظر العدو حتى يبدأ بهجومه عليك ؟[1].

وإذا كانت كلمة ابن جبرين أَلهبت حماس فرسان ابن رشيد ، فإن كلمة ابن شقير أَشعلت جذوة النخوة والإباء في كيان عبد العزيز ، فخرج من مكانه الذي كان خير حصن عسكري وذهب يقابل المهاجم بهجوم مماثل .

* * *

(١) نقلت هذه الجملة عن الشيخ محمد الصحابي الذي يرويها وهو شاهد عيان .



الشيخ محمد الصحابي

كيف تبدّل المحرّض على قتال عبد العزيز إلى مُقاتلٍ بسلاحه ؟ ومتى كان ذلك

الجواب على هذا السؤال هو أَن مُلْبِسَ بن جِبْرين غضب على أَميره ابن رشيد ، من أَجل موضوع فرس ـ لا أَذكر جيداً تفصيل موضوع الفرس التي غضب من أَجلها ـ وذهب إلى الإمام عبد العزيز ، فصادف أَن مجيئه إلى عبد العزيز كان في الفترة التي كان بها عبد العزيز يُحَضِّرُ البادية ويوجههم التوجيه الديني ـ وسيأْتي ذكر ذلك ـ وقد نزل مُلْبِس في (الأَرطاوية) وهي الهجرة التي بناها فيصل الدويش ، وعندما ذهب الدويش إلى حرب ابن رشيد بأَمر من عبد العزيز ، وحصلت وقعة (الصفيح) ـ بين حضر حائل وبين الدويش وقبيلته (مُطَير) ـ كان ملبس ابن جبرين في طليعة الفرسان ، بل هو الفارس الذي لعب

دوراً فعالاً في إقدامه وأفعاله العنيفة في تلك المعركة التي قتل فيها صفوة الصفوة من شبان حائل ، بسبب عدم التكافؤ في العدد ، وقد كانت تلك المعركة أقوى ممهد لمعركة النِّيصيَّة التي وقعت بعدها بأيام قليلة ، ومعركة النيصية كانت بقيادة الإمام عبد العزيز نفسه ، وكل من معركة (الصفيح) ومعركة النيصية ، – مع وجود الحصار الإقتصادي – كان السبب الرئيسي الذي أسرع بتقويض صرح امارة ابن رشيد ، حيث تم ذلك في صفر عام ١٣٤٠ هـ .

والجدير بالذكر أن فيصلاً الدويش نفسه تنكر للإمام عبد العزيز ، ووقعت بينه وببن عبد العزيز حرب انتهت بهزيمة الدويش ، أما ملبس بن جبرين ، فإنه ظل على ولائه ووفائه لعبد العزيز إلى أن توفي .

مِنْ وَكِيلٍ للأميرِ عبدِ العزيزِ بنِ رشيد
إلى وَكِيلٍ للإمامِ عبدِ العزيز

يقول الحكماء : إن أَمرين يدلان على أَمرين ، الأَمر الأَول هو ما يقال ان من علامات الحاكم العظيم الواثق من نفسه استطاعته بحنكته ودهائه ورجاحة عقله أَن يجعل من الرجال الذين أَخلصوا لأَعدائه رجالاً يخلصون له ، كما فعل معاوية بأَنصار علي ، فقد جعلهم عوناً له ، وهم من قبل أَعوان علي ، كالمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أَبيه وغيرهما ..

وأَما الأَمر الثاني ، فإنه يدل على وفاء العامل ـ أَي الموظف ـ فيقال : إن العامل الذي يستطيع أَن يعمل بوفاء وإخلاص لدولتين متنافرتين ، أَي يعمل بوفاء مع الدولة الاولى حتى ينتهي سلطانها ثم يعمل بالوفاء نفسه مع الثانية

حتى نهايتها أو نهاية أجله ، كما فعل معن بن زائدة بوفائه المعروف مع بني أمية حتى انقرض سلطانهم ، بل ظل مرابطاً بقلعة في الجزيرة السورية يحارب بني العباس ، ولم يستسلم أو يتخل عن القلعة إلا بعد أن استسلم قائده الأعلى ابن هبيرة للمنصور العباسي ، وفي الوقت نفسه ، يحدثنا التاريخ أن معناً هذا عمل والياً للمنصور العباسي في اليمن ، وظل وفياً للدولة العباسية إلى أن توفاه الله .

فإذا كان معاوية حينما استمال رجال علي ، وولّى كل من استماله منصباً مغرياً فعل ذلك في ظرف كانت حاجته إلى من استمالهم أكثر من حاجتهم إليه على اعتبار أن كل واحد من أولئك الرجال الدهاة له وزنه فيما إذا مال ضد معاوية مع منافسيه الهاشميين ، فإننا نجد الملك عبد العزيز ولّى رجالاً ممن عملوا مع أعدائه أعمالاً وهو ليس بحاجة اليهم بقدر ما هم بأمس الحاجة إليه .

والحديث عن الرجال الذين كانوا يتولون أعمالاً بوفاء وإخلاص بجانب أعداء عبد العزيز ، ثم استمالهم وأسند إليهم أعمالا ، قاموا بها بكل وفاء وإخلاص لا يقل عن

وفائهم وإخلاصهم لأعـدائه السابقين ، إن لم يزد على ذلكالوفاء والإخلاص .

الحديث عن ذلك أكثر من أن يحصر ، سواء الحديث عن الرجال الذين عملوا مع الشريف حسين وأبنائه أمثال محمد الطويل ، وطاهر الدباغ ، وعبد الحميد الخطيب ، والشاعر فؤاد الخطيب ، وغيرهم ، كما أن الحديث عن الرجال الذين عملوا مع ابن رشيد في ميدان الحرب يفوق عددهم الذين عملوا بجانب الشريف في ميدان الحرب .

واذا كنت قصرت الكتابة عن رجال الحرب على الأمير فيصل الحمود الرشيد وعلى الفارسين هبّاس وملبس كنموذج محدود ، فإنني سوف أورد ذكر عدد من رجال حرب ابن رشيد في مكانه المواتي .

أما رجال السياسة وإدارة الأعمال الذين عملوا بجانب الأشراف ، فإنهم يفوقون بعددهم رجال السياسة الذين عملوا بجانب ابن رشيد ، إلا الرجل الذي سنتحدث عنه ـ وهو رُشَيْد الناصر بن ليلى ـ فإنه كان فرداً فالأعمال التي قام بها في خدمة أمير بلاده ابن رشيد ضد الإمام عبد

العزيز أَعمال لها شأن كبير وعظيم .

لقد كان ابن ليلى وكيلاً لابن رشيد اسماً وعملاً ، أَما من حيث الفعل فهو يقوم مقام النائب لعبد العزيز بن رشيد ، الذي منحه ثقة مطلقة لا حدود لها .

وهل ثمة ثقة أَكبر من أَن يوقع عبد العزيز بن رشيد ختمه على بياض في عدَّة دفاتر – ويسلمها لرشيد بن ليلى – ليفاوض السلطان التركي نيابة عنه[1] .

وكان أَهم عمل قام به ابن ليلى أَنه أَتى لابن رشيد بأَسلحة حديثة ، من صنع الأَلمان عندما كان الأَتراك والأَلمان

---

(١) لم يكن من رأي ابن ليلى أن يأتي عبد العزيز بن رشيد بالعسكر الأتراك ليحاربوا ابن سعود بل كان رأيه أن يطلب من السلطان عبد الحميد سلاحاً ومالاً يضاهي تكاليف الدولة ، وأكد ابن ليلى لابن رشيد انه اذا طلب جنوداً من السلطان فانه أثبت ضعفه أمام الدولة التي لا تحترم الضعيف من ناحية . ومن ناحية ثانية سوف يسخط عليه أهل نجد بجلبه لبلادهم جنوداً من الأتراك ، هذا رأي ابن ليلى الذي أصر على تطبيقه . ورفض تنفيذ الأمر من أميره ابن رشيد لأن المعروف عنه بأنه صلب بما يؤمن به ، ولكن ابن رشيد نفذ أمره عن طريق شخص ببغداد ختم لهعلى بياض أي سلمه دفتراً فيه أختام الأمير يقال له الزيبق – وبالتالي ندم ابن رشيد على عدم أخذه برأي ابن ليلى ، فختم له بعد ذلك على بياض .

يشكلون حلفاً واحداً في الحرب العالمية الأُولى . وكان السلاح الذي أتى به ابن ليلى في ذلك العهد لا يوجد في الجزيرة العربية وكان مكتوباً على كل (بندقية) منه اسم (سعود بن رشيد) ويطلق على نوع هذا السلاح عند أهل نجد إلى يومنا هذا - إذا وجِد - (سلاح ابن ليلى).

ظل ابن ليلى وكيلاً لابن رشيد في تركيا وقد منح لقب (باشا) من السلطان عبد الحميد ظل إلى أن انتهت إمارة ابن رشيد ، وانتهى معها عهد السلطان التركي ، وجاء إلى الحكم مصطفى كمال الذي بدل كل نظام يمت إلى عهد السلطنة بأية صلة .

بقي رشيد بن ليلى في تركيا - وفي إستانبول بالذات سبع سنوات - ثم أراد أن يعود إلى بلاده ، ولكن كيف يعود وبلاده قد أصبحت تحت حكم الإمام عبد العزيز ، وهو لا يعرف عن نفسه إلا أنه لم يدخر وسعاً من جهده لم يبذله في سبيل نصرة أميره ابن الرشيد العدو الأول لعبد العزيز ؟ !

وأخيراً هداه رأيه بأن يكتب رسالة للملك عبد العزيز

يطلب أن يسمح له بزيارة أهله في حائل التي غاب عنها أكثر من عشر سنوات ، وكان الرد من الملك عبد العزيز بالسماح له سريعاً ، فجاء عن طريق البحر ، وما إن وضع قدمه في أرض الحجاز ، وذهب ليسلم على ملك البلاد الذي وجد منه استقبالاً واحتراماً فوق ما كان يحلم به .

ليس ذلك فحسب ، بل لقد عينه عضواً في مجلس الشورى ، فذهب رشيد ونقل عائلته من تركيا إلى المملكة .

وفي إحدى المناسبات التي أقام فيها الشيخ عبد الله الفضل حفل عشاء للملك عبد العزيز . وحضر الحفل وجهاء البلاد ، وكان من بينهم ابن ليلى - بدأ عبد العزيز يتحدث كعادته التي يحاول أن يجعل مجلسه مجلساً شعبياً بعيداً عن « البروتوكولات » التي أخذناها من الأجانب وابتلينا بها ، وفي حديثه هذا - قال مشيراً إلى إصابة بيده (هذه الإصابة بيدي هي من قنبلة المدفع الذي بعثه هذا الرجل) مشيراً - إلى ابن ليلى - فرد ابن ليلى ظانًّا أن عبد العزيز يلومه أو يؤنبه وقال : (تلك أُمَّة قد خلت لها ما

كسبت) الآية ـ فرد عليه الملك عبد العزيز وقال ـ العبارة الآتي نصها الحرفي : (على قود وجهك مع ربعك) !! أي إن عملك هذا هو أعمال الأوفياء مع بني قومهم .

ولما كان الإمام عبد العزيز يدرك أن رشيد بن ليلى رجل



رشيد باشا الناصر بن ليلى

سياسة خارجية ، فهو والحالة هذه يستطيع أن ينتج ويفيد فيما إذا أسند إليه عملاً من أعمال الدولة خارج المملكة ، أكثر من فائدته فيما اذا ظل عمله داخلها ـ هذا من ناحية والناحية الثانية هي أن الإمام عبد العزيز يدرك بثاقب فكره أن رشيد بن ليلى يفضل أيَّ عمل يسند إليه في الخارج أكثر من أن يسند إليه أكبر عمل في الداخل ، على اعتبار أنه قضى أكثر من نصف عمره خارج بلاده ، لذلك فإن عبد العزيز عينه وكيلاً له في دمشق ، وظل يشغل هذا العمل حتى لقي ربه .

مِن رئيس وفد للعدو
إلى رئيس وفد وبعثة لعبد العزيز

ثمة مقارنة متشابهة ، بين الباشا رشيد بن ليلى الذي سبق الحديث عنه ، وبين الشيخ عبد العزيز بن زيد الذي سنتكلم عنه في الصفحات القادمة ، وهي مقارنة متشابهة من حيث الروابط الآتية :

اولاً ـ صلة الرحم التي تربط أَحدهما بالآخر ، على اعتبار أَن ابن ليلى خال لابن زيد .

ثانياً ـ هُمَا من مدينة حائل .

ثالثاً ـ كل واحد منهما كان متفانياً بوفائه وإخلاصه لأَمير بلاده ابن رشيد .

رابعاً ـ كل واحد منهما كان يعتقد أَن أَي نصر يناله

الإمام عبد العزيز بن سعود معناه نهاية إمارة ابن رشيد وتقويض لسلطانه .

خامساً ـ يعتقد كل واحد منهما جازماً ـ أَن نهاية حكم آل رشيد يعني نهاية مجدهما وعزّهما جميعاً .

سادساً ـ كل واحد منهما أَسند إليه أَمير بلاده ابنُ رشيد مهمة تعبر عن الثقة به كما ان كل واحد منهما كان وفيًّا لأَميره مخلصاً له إلى أَبعد حدود الإخلاص في تأْدية مهمته التي اسندت إليه .

سابعاً ـ كل واحد منهما اسند إليه عبد العزيز مهمة ذات شأْن .

وإذا كنت تحدثت عن الأَول في الصفحات الماضية ـ فإنه ليطيب لي أَن أَتحدث عن ابن زيد :

حينما حاصر الإمام عبد العزيز مدينة حائل ، بعث أَميرُ البلاد محمدُ بن طلال بن رشيد وفداً من رجاله برئاسة عبد العزيز بن زيد ليتفاوض مع الإمام بشأْن الصلح ، على أَساس قبول الشروط التي عرضها الإمام عبد

العزيز على الأمير عبد الله المتعب الرشيد ، ورفض ابن متعب قبول تلك الشروط التي سنتحدث عنها في مكانها .

وصل الوفد إلى ابن سعود ، وجرى البحث في موضوع الصلح الذي يطلبه ابن رشيد ، على أساس أن يظل أميراً في بلاده ، مستقلاً استقلالاً داخلياً . فرفض عبد العزيز ذلك على اعتبار أنه سبق أن عرض الأمر فلم يقبله الأمير ، وكان طلب الإمام عبد العزيز أن يتم الاستسلام نهائياً ، مع سلامة الأمير ومواطنيه ، وحفظ كرامة الجميع ، الأمر الذي رفضه ابن زيد حسب تعليمات أميره ، غير أن رفض ابن زيد كان رفضاً شديد اللهجة ، ويعبر عن كلام رجل يتكلم من مصدر قوة يستند عليها ، لا أنه موفد من بلاد أهلها محاصرون حصاراً عسكرياً . وسياسياً واقتصادياً وقد قُتِل عند أبوابها مئات الرجال الأبطال الذين يعتبرون نخبة النخبة من الشجعان المقاتلين !

كانت الصلابة التي أبداها ابن زيد للإمام عبد العزيز مدعاة لغضب الإمام وسخطه ، فأسمع ابن زيد كلاماً قاسياً ، حمل ابن زيد على أن يقول للإمام : إن بيننا

وبينك يا عبد العزيز السيف ! والكلام من رجال بينهما السيف والحرب قائمة ـ لا أَهمية له ، إذا قيس بجانب السيف ، فسخط الإمام عبد العزيز على ابن زيد وطرده من مجلسه ـ . وحدثني ابن زيد حديثاً أكد فيه قوله إن الإمام بعث على أَثره رئيس (التشريفات) السيد إبراهيم ابن جُميعة[1] ، بعثه من أَجل أَن يسأل ابن زيد فيما إذا كان لديه كلام يخفيه غير الكلام الذي تكلم به في ذلك المجلس العام على اعتبار أَن كثيراً من الوفود يتظاهر بكلام شديد في المجلس العام ـ وإذا خلا به الإمام عبد العزيز على انفراد ـ تبدل كلامه ـ ولكن ابن زيد لم يكن من هذا النوع ـ ولذلك كان رده على ابن جميعة مطابقاً للكلام الذي سمعه منه الإمام عبد العزيز .

وقد بلغ الأَمير ابن طلال أَن ابن زيد تكلم على الإمام كلاماً أَسخطه ، فلام ابنَ زيد على موقفه هذا ، فكان جواب ابن زيد لابن طلال الذي أَنقله عنه : ـ

(إذا أَردت أَن تقبل شروط الاستسلام التي يطالبكم بها ابن سعود ، فعليك أَن تبعث جارية سوداء تفاوضه

ابراهيم بن جميعة من أهالي حائل نزح منها غضباً من أميرها عبد العزيز المتعب بن رشيد ، وجاء الى عبد العزيز بن سعود وولاه منصب ما يسمى الآن برئيس التشريفات وظل في هذا المنصب إلى أن توفي عام ١٣٧٠ هـ .

عنك بقبول الصلح ، أَما أَن تبعثني وأَنت لا تريد الاستسلام فإنه لا يسعني إلا أَن أَقف الموقف الصلب الذي يمليه علي إخلاصي ووفائي لك ولبلادي) !

هذا وقد بعث الأَمير ابن طلال حمداً الشويعر ليفاوض الإمام عبد العزيز بقبول الصلح على الشروط التي ذهب من أَجلها ابن زيد ، لا أَن يفاوضه على قبول الاستسلام غير أَن الشويعر دَبَّر – بالاتفاق مع إبراهيم السالم السبهان – الأَمر الذي تم به تسليم البلاد .

هذا وقد تظاهر الشويعر في حديثه مع الإمام بأُسلوب قريب من أُسلوب ابن زيد ، من حيث القسوة في حديثه مع الإمام ، لكنه أَبدى إشارة فهم منها الإمام أَن وراءها من المعاني ما يختلف به عن الكلام الذي تظاهر به في ذلك الحفل ، ولذلك خلا الإمام بأَعضاء الوفد الذين يرأَسهم الشويعر واحداً واحداً إلى أَن وصل إلى الشويعر ، حيث تم التفاوض بين الإمام وبينه على أَن يتعهد الإمام بحفظ دماء آل رشيد ، وجميع ساكني البلاد ، وخاصة المستجيرين – أَي من يقال لهم في عصرنا الحديث (لاجئون

سياسيون) ـ يقابل ذلك أن يستلم جنود الإمام عبد العزيز جبل (أُعَيْرِف) المسيطر على البلاد سيطرة كاملة بصورة لا يسع الأمير ابن طلال إلا الاستسلام للأمر الواقع .

وهكذا تمت وحدة نجد على هذا الأساس ـ وذلك في يوم ٢٩ صفر ١٣٤٠ .

نعود الآن إلى ابن زيد الذي أكد لي قوله : (كنت أتوقع أنني أول مواطن من أهل حائل سيضرب عنقه عبد العزيز ، وكنت حائراً لا أدري ماذا أفعل فأي أرض تُقِلُّنِي ؟ وأيُّ سماءٍ تُظِلُّنِي ؟ إلا أنني عندما رأيت جميع أهل البلاد ذهبوا يقدمون الطاعة للفاتح الجديد ، ويعاهدونه على أن يفوا له كما وفوا لأُمرائهم السابقين ، فعند ذلك اضطررت مرغماً إلى أن أذهب مُنْدَسًّا وسط الرجال الذين يعاهدون عبد العزيز ويعاهدهم هو أيضاً على الأمان ، إلا أن عبد العزيز ساعة ما رآني قابلني بالرضا والابتسام ، وقال : أين ابن فارس ؟؟ وعندما جاء الشيخ قال: ألم أقل لك : إذا ضحيت لوالدي ووالدتي وأهلي الأموات فاذبح ضحية للمرحوم حمود الزيد ، والد عبد العزيز ، هذا تكفيراً مني لشتمي لوالده في تلك الساعة التي أغضبني بها .

أراد الواشون الإساءة إلى ابن زَيـدٍ فأحسَنوا إليـهِ

إذا أَراد الله خيراً لإنسان ما جاء هذا الخير إليه عن طريق أناس يحاولون أَن ينالوه بسوء وان يلحقوا بـه ضرراً .

وهكذا فقد قام نفر من الوشاة بمسعى سيء غايتهم به أَن ينال ابن زيد عقاباً شديداً من الإمام عبد العزيز فرفعوا له كتاباً معه خط ابن زيد بيده ، وقد زعم الواشي أَن خط ابن زيد هذا موجه منه إلى الشريف فيصل ملك العراق . وكانت المشكلة كما قال الشاعر معروف الرصافي :

وأَبشع الكِذْبِ عندي ما يمازجه
شيء من الصدق تمويهاً على الفِكَرِ

والواقع أَن الخط الذي رفعه الواشي الموجه للملك فيصل فعلاً هو خط إبن زيد ، وموجه حقيقة للشريف فيصل ، ولكن ليس كما صوره الواشون ، بل كل ما في الأَمر أَن رجلاً من أَهل حائل ، فقير الحال ، والشخصية معاً ، ويمت لابن زيد بصلة النسب البعيد ـ هذا الرجل طلب من ابن زيد أَن يعبر له عن المعاني التي إذا وصل إلى الشريف وحده بها نال منه هبة مالية ، فكتب ابن زيد شيئاً من هذا المعنى ـ كتبه فوق قصاصة وريقة بالية ـ فسقطت هذه الوريقة من يد سيىء الحظ ضعيف العقل ، فوجدها أَحد الوشاة ـ فاطلع عليها واشياً آخر ، حتى وصلت عن طريق الواشي الأَخير ـ بشهادة الأَول ـ إلى الإمام عبد العزيز ، فوصل ابن زيد سؤال من الإمام عما تعنيه تلك الرسالة ، فكتب ابن زيد للإمام رسالة يوضح فيها الحقيقة فما كان من معاني تلك الرسالة التي بعثها ابن زيد ، ومن وفاء ابن زيد لابن رشيد الذي يعرفه الإمام عبد العزيز ، ومن تقديره الوفاء من حيث هو وفاء [1]

(١) كان شعار الملك عبد العزيز قوله دائماً . (من وفى مع الأول يفي مع الثاني ، ومن خان لك خان بك) .

و (من شيمه) التي دائماً تجعل من أعدائه أَولياء مخلصين له ـ ما كان له من هذه المُثُل ـ إلا أَن أَسند إلى ابن زيد مهمة خارجية ندبه لها ، وهي تتلخص بالقيام بمفاوضة (بك) الحاكم الإنجليزي في عمَّان ، يفاوضه في إعادة إبل نهبها أَناس من بادية الأُردن ، من بادية الإمام عبد العزيز ، هذه المهمة الاولى ثم تلاها مهمات أُخرى أَسندها إلى ابن زيد ، وختمها بأْن أَسند إليه المنصب الذي كان يشغله خاله رشيد بن ليلى بدمشق ـ وذلك بعد وفاة ابن ليلى ـ ثم ارتفعت العلاقات بين سورية التي كان ابن ليلى فيها وكيلاً أَثناء عهد الاحتلال الفرنسي ـ وحتى أَول تولي ابن زيد لذلك المنصب كان حكم الاحتلال ما زال باقياً ـ وبعد استقلال سورية ارتفعت العلاقات إلى درجة مفوضية ، ثم إلى درجة سفارة ، فأَسند الإمام عبد العزيز إلى ابن زيد العمل في السفارة في دمشق بل عينه سفيراً فوق العادة سفيراً في دمشق وفي لبنان ـ وظل سفيراً في هاتين السفارتين مدة حياة الملك عبد العزيز ـ وبعد وفاة عبد العزيز عين الملك سعود السيد عبد العزيز القحيمي سفيراً في بيروت ، وظل ابن زيد سفيراً في دمشق حتى

تمت الوحدة بين مصر وسورية . فأصبحت سفارة المملكة السعودية في دمشق قنصلية . وفي ذلك العام توفي ابن زيد – رحمه الله – بعد أن نال ثقة من الملك عبد العزيز تلك الثقة التي لم تقف عند حد عبد العزيز ابن زيد – بل امتدت حتى شملت أقاربه وهما عبد المحسن وحمود – فالأول سفير المملكة السعودية في ليبيا ثم في دمشق الآن . والثاني سفيرها في الكويت

* * *

عَدوّه بالأَمسِ توَلى لَديهِ مَناصِب عُليا

تحدثت - فيما سبق - عن استمالة عبد العزيز للرجال الذين وفوا مع أعدائه آل رشيد ، وذكرت نموذجاً مختصراً من رجال الحرب والسيف ، وسوف أوافي القاريء بذكر عدد من فرسان حرب ابن رشيد في مكان آخر ، كما ذكرت عدداً من رجال السياسة والرأي الذين وفوا مع ابن رشيد ، فاستمالهم عبد العزيز ؛ وجعل منهم رجالاً يفون له كما وفوا لأميرهم ابن رشيد .

والآن يحسن بي أن أحدث القاريء عن استمالة عبد العزيز للرجال الذين وفوا مع أشراف مكة - وهم فؤاد الخطيب - الذي كان وزيراً لخارجية الحكومة الهاشمية في عهد الملك حسين بن علي ، كما كان وزيراً للخارجية في

عهد الملك علي بن حسين الذي تولى الملك بعد تنازل والده في ٤-٣-١٣٤٣ هـ .

ومحمد الطويل الذي كان وزيراً للرسوم في عهد حكومة الملك علي بن الحسين ، وطاهر الدباغ الذي كان وزيراً للمالية في عهد الملك علي بن الحسين ، والسيد عبد الحميد الخطيب من علماء مكة ووجهائها . وكان لاجئاً سياسياً في القاهرة ويرأس جمعية تسمى جمعية الشبان في مصر

وعبد الرؤوف الصبان من وجهاء الحجاز المشهورين .

والقائم مقام محمد صادق - وغير هؤلاء ممن لا أذكر اسمه الآن ، وكل هؤلاء وفوا مع حكام بلادهم الأشراف ، إلى أن انقرض عهدهم بل كلهم نزحوا عن بلادهم الحجاز واستوطن كثير منهم القاهرة ونظموا حزباً من المواطنين الحجازيين مناوئاً للحكومة السعودية ، أما فؤاد الخطيب فقد ظل ملازماً لوفائه للاشراف ، بجانب أمير شرق الاردن الأمير عبد الله بن الحسين - الذي أصبح فيما بعد ملكاً لشرق الأردن - ومما تجدر الإشارة إليه أن كل من كان خارج المملكة السعودية من هؤلاء الرجال لم يأت إلى وطنه

إلا بعد مضي عشر سنوات قضاها نازحاً عن بلاده ، بدافع الوفاء لحكامه السابقين ، ولم يعد إلا بعد صدور العفو الملكي الذي أصدره عبد العزيز بحقهم وذلك برقم٢٣ـ١ـ١٩تاريخ٧ـ١٠ـ١٣٥٣هـ



(محمد الطويـــل)

والجدير بالذكر أنه ما من واحد من هؤلاء إلا ومنحه عبد العزيز منصباً مرموقاً ـ فخذهم واحداً واحداً .

محمد الطويل ـ عينه الملك عبد العزيز ناظراً لعموم جمارك الاحساء في مملكته ، كما منحه أرضاً زراعية واسعة .

طاهر الدباغ ـ عينه عبد العزيز مديراً عامّاً للمعارف وهو أعلى منصب في المعارف قبل أن تكون وزارة .

فؤاد الخطيب ـ عينه سفيراً في افغانستان ـ وظل

سفيراً إلى أن توفاه الله وخلفه ابنه رياض وهو سفير الآن للمملكة في الباكستان وكان قبل ذلك في الجزائر .

عبد الحميد الخطيب ـ عينه سفيراً في الباكستان إلى أن بلغ السن القانونية ، وابنه فؤاد الآن مستشارٌ ورفع إلى مرتبة وزير مفوض في وزارة الخارجية السعودية .

عبد الرؤوف الصبان ـ عينه عضواً في مجلس الشورى ، وابنه شفيق مستشار الآن في السلك السياسي السعودي .

القائم مقام محمد صادق ـ عينه مديراً لإحصاء النفوس في المملكة .

وما دمنا نتحدث عن رجال الحجاز ، فلا بد أن نذكر ألمع شخص برز على مسرح الأحداث من الإخوان الحجازيين ، وهو الشيخ محمد سرور الصبان ، الذي اتهم بمؤامرة سياسية يقال : إنه حبك خيوطها ضد الملك عبد العزيز ، فاعتقله عبد العزيز فترة في سجن الرياض ، ثم عفا عنه ، ونال مناصب لم ينلها مواطن لا قبله ولا بعده ، حيث كان في فترة من الفترات ـ في عهد الملك سعود بالذات ـ كان وزيراً للمالية . وغاب وزير الخارجية

الملك فيصل (رحمه الله) . فأُضيفت إليه وزارة الخارجية . كما أُضيفت إليه وزارة الداخلية أَثناء غياب وزيرها آنذاك ، وهو في الوقت ذاته كان مستشاراً للملك سعود ، وكان بالإضافة إلى كل ذلك رئيساً للشركة العربيةللسيارات التي تقوم مقام وزارة المواصلات في ذلك العهد .

والشيخ محمد سرور هو ولا شك أَهل لهذه الثقة وتلك المناصب ، ولكن لا يفوتنا الانتباه أَنه لو كانت التهمة السياسية الخطيرة الموجهة إليه حصلت عند بعض الحكام الذين شعارهم – يقول : إن مجرد التهمة كافية لنزول العقاب الصارم بالمتهم .

أَقول : لو ابتلي محمد سرور بحاكم من هذا النوع لكان أَهون عقاب له الأَعمال الشاقة والسجن المؤبد ، هذا إذا لم يكن عقابه الاعدام .

التائب من الذنب كمن لا ذنب له

هناك حديثان معناهما : « من تاب عن ذنبه كمن لا ذنب له » ، و « التوبة تَجُبُّ ما قبلها » .

ومن هؤلاء السادة عند المثول بين يدي الملك عبد العزيز من ألقى خطاباً عبر به عن اعترافه بذنبه ، كما عبر به عن عظمة عبد العزيز التي دعتهم للرجوع إلى جادة الصواب ، والذين ألقوا الخطب هم طاهر الدباغ ، عبد الرؤوف الصبان ، عبد الحميد الخطيب . ويطيب لي أن أوجز ما استطعت إيجازه من خُطَبهم بادئاً بالأول ، ثم يليه الأخير الذي سوف أورد مختصراً من خطابه الذي ألقاه في مجلس الملك الخاص ، كما أختصر حديثه الذي أسمعه الملك وهو منفرد به .

وقد نقلت موجز هذه الخطب بنصها الحرفي من كتاب « الملك العادل »[1] لمؤلفه السيد عبد الحميد الخطيب ، فخذ موجزاً من خطاب السيد طاهر الدباغ .



طاهر الدباغ .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

يا صاحب الجلالة ! قال الله تعالى في محكم كتابه ، على لسان أشرف خلقه ، صلوات الله وسلامه عليه (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرًّا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا

---

(١) ج ١ ص ٢٢٤ .

نذير وبشير لقوم يؤمنون) وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويُؤمر بأربع كلمات : بِكَتْبِ رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقيٌّ أو سعيد ، فو الذي لا اله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

ويقول الشاعر العربي :

يُقْضَى على المرء في أيام محنته

حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

وإن هذا الخادم المخلص الماثل الآن بين يدي جلالتكم ، والخَجَل آخذٌ منه كل مأْخَذٍ ليعترف في كثير من الأسف

بـأَنه كان بعيداً عن معرفة ما خص الله به جلالتكم من مزايا سامية ، وأَخلاق عالية ، وسجايا علوية ، وشمائل مصطفوية ، جعلتكم أَحقَّ الناس طرّاً بِتَبَوُّءِ هذا العرش العربي ، العزيز على الأُمة العربية ، فلئن حمدت الله على تشرفي بالانضواء تحت لواء جلالتكم ، وإخلاصي لبيت هو فخر العروبة ، فإني إنما أَحمده تعالى على أَن جعل خير أَعمالي آخِرَها ، وأَن هداني بعد حيرة دامت عشر سنين ونيفاً إلى محجة الصواب ومنهج الحق .

وهذا مختصر من خطاب الاستاذ عبد الرؤوف الصبان :

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ به من شرور أَنفسنا ، ومن سيئات أَعمالنا ، من يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ له ومن يضللْ فلا هادي له ، ونشهد أَن لا إله إلا الله وحـده لا شريك له ، ونشهد أَن محمداً عبده ورسوله . أَرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، فبلغ الرسالة وأَدَّى الأَمانة وكشف الغمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وعبد الله مخلصاً حتى أَتاه اليقين من ربه ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً

إلى يوم الدين .

مولاي صاحب الجلالة !

إن من أكبر دواعي افتخار هذا الخادم ، المخلص وقوفه هذه الساعة بين يدي جلالتكم وهو بين عاملين



عبد الرؤوف الصبان

متباينين : عامل الفرح والسرور لهذه الخاتمة السعيدة ، ومشاهدة هذه الطلعة الجليلة في هذا الموقف المشرف(والأعمال بخواتمها) وعامل من الأسف والأسى لما سبق من جحود ونكران لهذا النور المبين وهذا الحق الساطع .

نعم : إن ما كنا فيه من غواية وضلالة إنما هو محضُ جحودٍ للحق ، ونكران للفضل ، لأن الحق أبلج ، والهدى واضح بيّن ، لا يحتاج إلى دليل ، ولا يقام عليه برهان ، ولولا الإيمان ـ والحمد لله ـ بأن كل ذلكم إنما هو بقضاء الله وقدره في سابق علمه وأزله ، وأنه سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً سلب ذوي العقول عقولهم ، لذهبت نفسي أسىً

وحسرة ، لما فرط مني في حق جلالتكم ، وحق الوطن الذي أَنتم رمز أَمانيه وموضع آماله ، وإني لا أَحتجُّ بالقضاء لأَصرف عن نفسي مسؤولية ما اقترفت من إثم ، فإنه لولا ما خصكم الله من أَخلاق كريمة ، وشمائل حميدة ، وصفات ممتازة ، هي التي أَنزلتكم من أُمتكم هذه المنزلة السامية ، وجعلت لكم في العالمين الإسلامي والعربي هذه المكانة الرفيعة ، فأَصبحت قلوبهم تهفو إلى هذا المُحَيَّا الباهر ، وترنو إلى الأَعتاب السامية ، أَقول : لولا ذلكم لما كان هذا الخادم المذنب جديراً بهذا العطف السامي والفضلِ الأَبَوِيِّ العظيم .

وهذا مختصر من خطاب الأَستاذ عبد الحميد الخطيب .

مولاي صاحب الجلالة ! !

مرت على البلاد المقدسة كوارث ومحنٌ هلعت قلوب المخلصين المؤمنين ، أَصحاب المبدأ واليقين ، وقد قصرت عقولنا وقتئذ عن فهم حكمة الخالق فيما أَحدثه فيها من تغيير وتبديل ، فتركناها على مضض ، يدفعنا الأَمل في خدمتها ، وإعلاء كلمة الحق فيها إلى المضي في سبيلنا ،

وأَخذنا نضحي بكل ما نملك من جُهْدٍ ومال ، لا مطمع لنا في غرض ، ولا غرض لنا في زُلْفَى .

ولعلنا - يا صاحب الجلالة - قد دَفَعَنا المبدأُ الجامح إلى ركوب متن الشطط غير آثمين ولا باغين ، ولكنا أَخذنا نرقب الحوادث حتى أَذن الله لنا بالهدى ، وانقشعت الغشاوة عن أَعيننا ، وارتفع الحجاب عن قلوبنا ، فوجدنا نور إيمانكم يَشِعُّ في كل مكان ، فيملأُ القلوب عقيدة وإخلاصاً ، وحكمتكم السامية تُصَرِّف الأُمور على أَحسن ما يكون ، تارة بالعدل وتارة بالإحسان ، فترد الحقَّ إلى نصابه ، وتجمع كلمة المؤمنين ، ويد إصلاحكم الكريمة تمتد إلى كل فاسد فتجتثه من أُصوله ، وتقيم مقامه صرح الطمأْنينة ، والإيمان ، وحل في نفوسنا شعور لا عهد لنا به من قبل ، فاتجهت أَنظارنا إلى الخالق سبحانه وتعالى نحمده ونشكره ، فقد أَعاد للإسلام عهد الخلفاء الراشدين ، والأَئمة المصلحين ، وشاء للبلد الأَمين أَن يقوم بعد عثرة ، وينهض بعد كبوة .

وغاية ما يرجوه صاحب المبدأُ الثابت ، والعقيدة

الصافية التي لا تبتغي في الدنيا عَرَضاً زائلاً ، وتفنى في سبيل دينها وبلادها أن ترى كلمة الدين عالية ، ويدَ الإصلاح عاملة ، وقد آمنَّا وصدقنا فانجذبت أَرواحنا إليكم ، وانعقدت آمالنا بكم ، وابتهلت قلوبنا إلى الله أَن يطيل لنا في عمركم ويؤيد ملككم ، فتظل البلاد سعيدة بحكمكم ، راتعة في بحبوحة عدلكم ، غارقة في بحر فضلكم وحلمكم .

فبادرنا إلى أَعتابكم نغترف من بحر إيمانكم العامر ، ونقتبس من نور ورعكم الباهر ، ونناشدكم بحقٍّ من أَخضعنا لكم ، وقادنا طواعية إليكم أَن تستغفروا الله لنا عما مضى ، كما شملتمونا جلالتكم بالرضى ، ليهدأَ منا البأْس ، ويرتاح الضمير ، فتفتح أَمامنا أَبواب السعادة في الدارين ، ونَنْعم بخير الحياتين ، ولا يكفينا منكم يا صاحب الجلالة ما مننت به من العفو عنا في الدنيا ، فما لذلك جئنا ، وما به قنعنا ، فقد ارتكبنا ما ارتكبنا عن حسن نية وخالص طوية ، ثم أَدركنا الخطأَ فخفنا الله قبل أَن نخافكم ، وهرعنا إليكم بغية التكفير عما مضى ، والتوبة إليه من كل ما يغضبه سبحانه ولا يرضي جلالتكم.

وهناك كلمات تحدث بها الأَستاذ عبد الحميد الخطيب عندما خلا بالملك عبد العزيز على انفراد أختصرها على الوجه الآتي :



عبد الحميد الخطيب

يا صاحب الجلالة : لقد قاومناك فيما مضى ، لأَننا كنا نعتقد أَنك ستكون شرًّا على بلادنا وأَنك ستكون سبباً في تأَخرها ورجوعها إلى الوراء ، وكان هذا الاعتقاد ناشئاً عن أَدلة عقلية منطقية ، ذلك أَن (الحسين بن علي) كان من الذين تربوا في (الآستانة) وتذوقوا ما في المدنية من علوم وعرفان ، وتلمسوا ما في الحضارة من الوسائل التي تؤمن راحة الناس ورفاهيتهم ، وكنا نعتقد أَنه بتوليه الإمارة في الحجاز سينهض بالبلاد نهضة إصلاحية عظمى ، ويسير بها إلى الأَمام ، ولكن عندما تربع على دست الحكم حرص كل الحرص على الاحتفاظ بالقديم ، وحارب من

المدنية محاسنها ، فلم يسمح للناس بركوب السيارات ، وأَبَى عليهم حتى استعمال ساعات اليد ، والأَكل على الكراسي ، وما أَشبه ذلك ، وعندما دخلتم جلالتكم إلى البلاد قلنا في أَنفسنا : إذا كان حظ البلاد من الحسين ما شهدنا فكيف يكون حظها من ابن سعود ؟ ! وهو ذلك الرجل الذي تربى في الصحراء ، وأَلِفَ عيشة البداوة ، لا شك أَنه سيحاول أَن يُحَوِّل عاصمة الحجاز إلى قرية من قرى نجد النائية ، وأَيَّد لنا هذه النظرية ما سمعناه عن أَعمال أَتباعكم من (الغطغط) مضافاً إلى ما رسخ في أَذهاننا عن (الوهابية) ومبادئها بفعل الدعاية السابقة من عهد العثمانيين ، ومن أَجل هذا قاومناكم وحاربناكم عن عقيدة وإيمان ، ولما كان الإخلاص رائدنا فإن العقل الذي دفعنا إلى ما دفعنا إليه لم يلبث أَن هدانا إلى خطئنا في تصوراتنا الماضية ، عندما شهدنا ولمسنا فعلاً أَعمال جلالتكم الباهرة ، وأَخذكم بأَسباب تقدم البلاد وحضارتها . فآمنَّا بعظمة جلالتكم ، وبأَنكم خير من يصلح لرقيِّ البلاد وإسعادها ، ثم تجلت لنا صلة جلالتكم بالله من نصره سبحانه وتعالى لكم في مواطن كثيرة ، وإننا منذ أَدركنا

هذه الحقيقة تُبْنَا إلى الله في سرنا واستغفرناه على ما بدر منا في حقكم ، وتقربنا إليه بحبنا لكم ، وصرنا نتحدث بعظمتكم ، حتى أن صديقي السيد (محمد الفاسي) سكرتير الجمعية صار يلقي المحاضرات في النوادي والمساجد بالإشادة بذكركم وضرب الأمثال بنصركم لدين الله ، ونصر الله لكم دون أن يكون لنا غاية من وراء ذلك إلا رضاء الله وإراحة ضمائرنا .

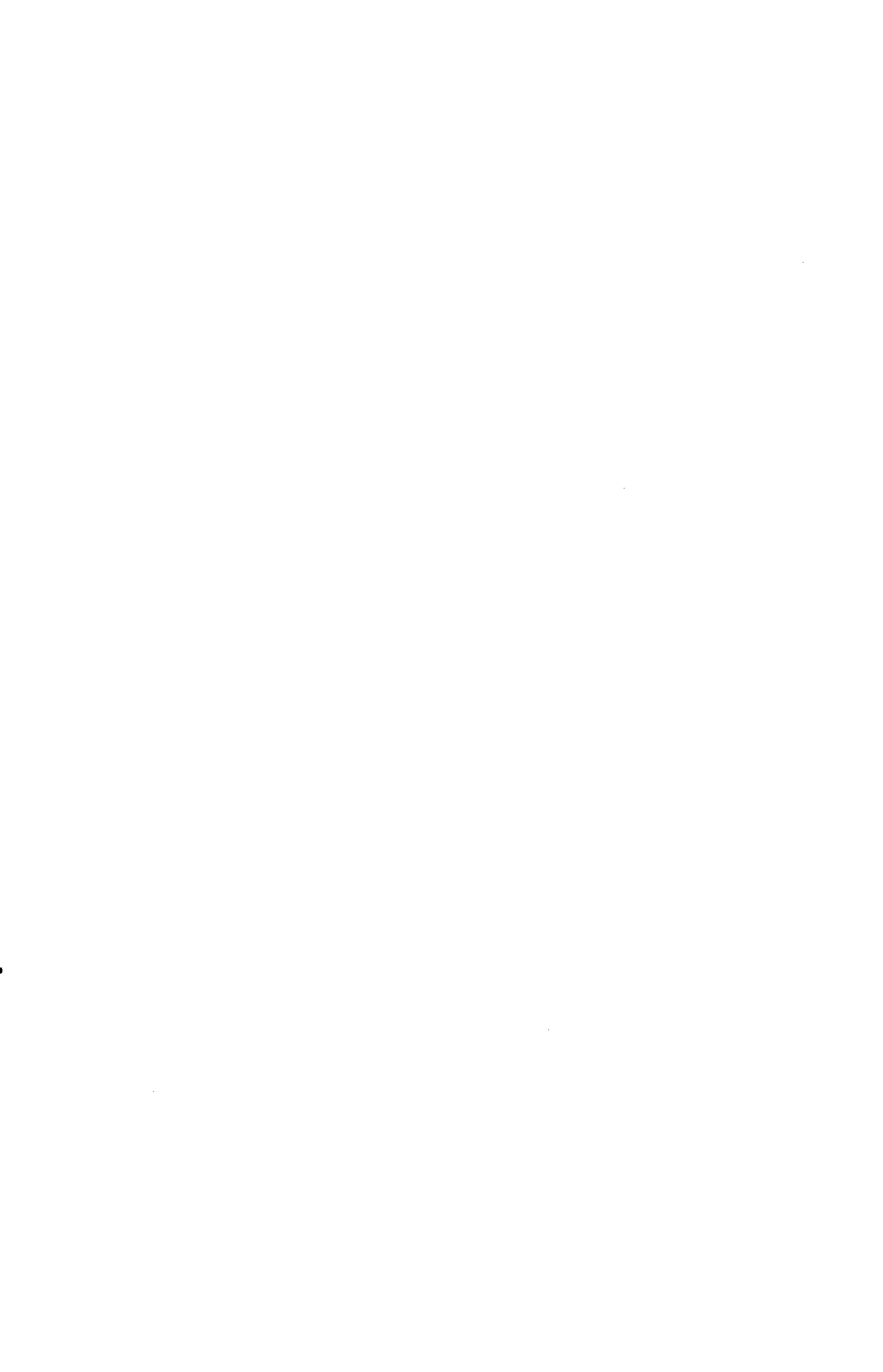
أما وقد تفضلتم جلالتكم وعفوتم عنا فقد هيَّأتم لنا الفرصة للاتصال بكم ، وطلب التسامح منكم ظاهراً وباطناً ، ونرجو أن لا يكون بخاطر جلالتكم شيء منا .

ويقول الخطيب : إن الملك قال له :

« لا تحاول يا بني أن تعتذر عن الماضي ، وتبرير موقفكم فيه ، فإني أُقدر لكم على كل حال ثباتكم مع معازيبكم (أي أُمرائكم السابقين ، يعني الهاشميين) ، فمن انضم إلينا بسهولة لا يبعد أن يتخلى عنا بسهولة ، ومن ثبت مع غيرنا يثبت معنا أيضاً إلى النهاية . ولو لم أكن أعتقد بأنه لم يبق لديكم أدنى أمل في الهاشميين لما وثقت بكم .

الفصل الخامس

لا يهتم عبد العزيز بملك الرقاب بقدر ما يهتم بملك القلوب



هذا البحث الذي أكتبه الآن سبق أن كتبت قسماً منه في مؤلفي « التطور الفكري في جزيرة العرب » كتبته بعنوان : (السر الرئيسي الذي مكن الملك عبد العزيز من توحيد الجزيرة العربية)[1] .

ولما كان هذا البحث متصلاً بالموضوع الذي جاء في مؤلفي فإنه ليسعدني أن أورد قسماً مما جاء فيه وإليك النص الحرفي .

ما دمت قطعت وعداً بأنني سوف أتحدث عن السر الذي مكن الملك الراحل من السيادة على شبه الجزيرة العربية وتوحيدها ، فإنني وفاءً بوعدي من ناحية ، ومن ناحية ثانية لكي أوضح السر الذي يجهله الكثيرون ، ورغبتي من

---

(١) ص ١٦٤ التطور الفكري في جزيرة العرب للمؤلف

ناحية ثالثة بـأَن يتخذ أَيٌّ قائد من قادة العرب قدوة من سياسة ذلك القائد العربي الذي كان السر في نـجاحه معرفته الراسخة بالنقط الحساسة التي إذا أُتي العربي من قبلها سلم زمامه لقائده بكل سهولة ، ونسي كل ما بينه وبين خصمه من عداوة وأَحقاد .

* * *

سرٌّ جهله كثيرٌ من المؤرخين

وقبل الحديث عن هذا السر ، أَود أَن أُوضح للقارىء المعاني الآتية :

أَولاً ـ لا أَدعي لنفسي أَني جئت بشيء كان مجهولاً أَو خفيّاً .

نعم قد يكون خفيّاً على النفر البعيدين عن الاتصال برجال الشعب الذين عاصروا صاحب الترجمة .

ثانياً ـ أَعترف أَني كنت أَجهل الناس بمعرفة هذا السر ، وجهلي هذا كان خلال الفترة التي قضيتها خارج بلادي بين السودان والقاهرة وسورية ، وهي الفترة التي كانت أَثناء بلوغي سن الرشد .

ثالثاً - كان الفضل في معرفتي ذلك السر العظيم بشخصية موحد شبه جزيرة العرب ، يعود إلى عدة أُمور : منها استعدادي الشخصي وشغفي الذاتي بالإلمام بكل سجية تمت إلى الشيم العربية بأَية صلة ، ومنها أَو أَهمها : سنوح الفرصة التي أُتيحت لي بالاتصال بالرجال الثقات الذين عاصروا عبد العزيز ، وكم يكون لهذا السر الكريم وقع في نفسي صادر عن قناعتي بصحة واقعيته ، عندما تصل معرفتي لكنهه عن طريق الرجال الذين كانوا يوماً من الأَيام أَشد الأَعداء الأَلِدَّاء لعبد العزيز ، فجعل منهم البطل الحكيم بواسطة تطبيقه عملياً لذلك السر الفعال المؤثر لا محبين له فحسب ، بل متفانين بحبهم وولائهم له إلى درجة نجدهم على أَتم الاستعداد بأَن يفتدوه بأَنفسهم ، ويحاربوا أَهلهم وذويهم تحت رايته .

وأَود أَن أُشير إلى السبب الذي جعل كثيراً من المؤرخين يغفلون الكتابة عن الصفة البارزة التي طبعت عليها نفس عبد العزيز ، تلك الصفة التي كان يجب أَن يضعها كل كاتب في مقدمة كتابته التاريخية ، لأَنها

وحدها ـ بعد الله ـ هي التي مكنته من توحيد عرب شبه الجزيرة ، وأعتقد أن الأمر الذي جعل أولئك المؤرخين يقتصرون في كتاباتهم على فتوحاته وانتصاراته وغزواته ، ولم يكتب واحد منهم عن كنه الفلسفة الحقيقية التي كانت عاملاً أساسياً في بروز شخصيته كموحد لشمل شعب مضت عليه مئات السنين والنعرات القبلية والتحيزالاقليمي والتجزئة العنصرية ، طاغية على مشاعره ، ومهيمنة على كيانه ، حقًّا لم أرَ أحداً كتب شيئاً عن ذلك اللهم إلا ما هو من قبيل سرد الحوادث ليس إلا .

والمقصود من علم التاريخ هو كما أشار إليه الزعيم الألماني هتلر في كتابه « كفاحي » حيث قال[١] : (المقصود من تعلم التاريخ ليس مكانته الماضية وإنما المقصود استخراج الدروس والعبر من هذا الماضي) .

ومن هنا أود أن أؤكد أن السر في رأيي في عدم وجود من كتب عن هذه الناحية الهامة في نجاح عبد العزيز يعود إلى أن الكتاب الذين كتبوا عنه لم يعاصروه منذ

(١) صفحة ٢٢٣ .

بداية أَمره ، ولم يعرفوه إِلا بعد أَن تَمَّ له توحيد بلاده ، هذه ناحية ، والناحية الثانية هي أَنهم حتى لو قدرنا أَنهم عاصروه منذ البداية فإِنهم لا يستطيعون أَن يُلِمُّوا بجميع جوانب شخصيته ما لم يكونوا من نفس البيئة ، واقفين حق الوقوف على عادات وتقاليد البلاد كنفر من صميم أَبناء الجزيرة ، وأَهم من هذا وذاك هو أَن يكون الكتاب ملمِّين جيداً بمعاني الأَدب الشعبي الذي يعبر أَبلغ تعبير عن حياة أَبناء الجزيرة التقليدية ، ويوضح ما لهم وما عليهم ، وما وصف به الشعراء الشعبيون المرحوم عبد العزيز من النعوت المتباينة [1] ، وصف الذي شاهد ورأى ، والأَهمُّ من هذا كله هو أَن لا يكون الكاتب متصلاً بأَبناء الجزيرة الذين عاصروا عبد العزيز كموالين ومؤيدين له

(١) ربما يقال : ولماذا لم يكتب عنه الرجال الشعبيون الذين عاصروه ؟ فالجواب على ذلك هو انه بقدر ما ينقص الكتاب الذين كتبوا عن عبد العزيز معرفة الأدب الشعبي الذي يؤهلهم للكتابة عنه بكل سهولة ينقص الذين عاصروه معرفة الكتابة بالعربية الفصحى ، وعلى هذا الأساس ضاع تاريخ الملك الراحل ، بل ضاع الكثير من تاريخ الجزيرة بين جهل المواطنين الشعبيين وأميتهم ، وبين جهل الكتاب المتعلمين بأدبنا الشعبي ، ولاسيما الشعر وعدم صلتهم بالشيوخ الثقات الذين عاصروا الأحداث بصورة مباشرة .

فحسب ، بل يكون مع اتصاله بهؤلاء متصلاً أيضاً بالرجال الذين عاصروه بعد ما قضوا فترة من عمرهم وهم خصوم معارضون ، ومن أَشدِّ الأَعداءِ الأَلِدَّاء له ، ثم استولى عليهم عبد العزيز ، بل استولى على أَفئدتهم فأَصبحوا من المخلصين له ومن أَعظم المحبين لشخصه .

بل وجعل منهم رجالاً على أَتم الاستعداد بأُن يَفْدُوه بحياتهم كما فعل ذلك عدد منهم .

إنَّ من يجمع هذه الصفات أَو بعضها وخاصة الأَخيرة منها ، أَو من ينقل عن الرواة الثقات المنصفين الذين اجتمعت بهم ، هذه الصفات المشار إليها ، هو وحده الكاتب الذي ستطيع أَن يكتب وأَن يوضح أَنبل صفة عربية خولت عبد العزيز آل سعود قيادة عرب الجزيرة وتوحيدهم .

هذا وإني لا أُريد أَن أَسرد الحوادث التاريخية ، وآتي بذكر الأَسباب والمسببات التي أَبرزت شخصية عبد العزيز ، لا أُريد أَن أَذكر شيئاً من ذلك لأَنَّ جميع ذلك يحتاج إلى عدة مجلدات ، ولأَنه بالتالي يعود بنا إلى نفس

الاسلوب الذي سبقني به العدد الوافر من المؤرخين ، ولذلك أَوَدُّ أَن أَذكر أَهمَّ الأَسباب وأَبرز الصفات التي كانت عاملاً أَساسيّاً لسيطرة عبد العزيز على أَرجاء شبه الجزيرة بكاملها .

مَاهوَ السِّرالذي مكن عَبْد العزيزمِنْ توحِيْد جزيرة العَرَبْ

وهنا أَتساءل : ما عسى أَن تكون هذه الصفة ؟ أَهي الشجاعة ؟ ؟ لعلها هي ؟ ؟ إِذ كثيراً ما كان عندما يدعو الداعي وتضطره الحال يغامر بنفسه مغامرة المستهتر بالحياة ، ولكن مع ذلك لم تكن الشجاعة هي الصفة البارزة فيه رغم وفرتها بشخصيته ، وعلى الرغم من أَنه صارع عدداً لا يحصى من أَبرز رجال عصره بالشجاعة فمنهم من صرعه في الميدان ، ومنهم من أَسره ، وأَصبح طوع بنانه كما قال عنه الشاعر الشعبي :

كَمْ راس قومٍ طَوَّعْه قاسْيَ الراسْ

أَمّا اعْدمه واَمّا الْمراجِلْ نسَاهَــا

ولذلك لا نستطيع أن نحكم بأن أولئك الأبطال الذين صرعهم أو أسرهم أو قضى عليهم في ميدان الحروب والسياسة كانوا أقل منه شجاعة .

إذن أتكون الصفة البارزة هي الكرم ؟ وهذه الصفة أيضاً وإن كانت مطبوعة بدمه ولحمه ولكننا لا نستطيع أن نطلق الحكم بكل سهولة بأن الكرم كان وحده هوالذي بلغ به ما بلغ من الهيمنة على الجزيرة ، لأننا نعرف أنه خرج من (الكويت) وهو لا يملك إلا إرادته الفولاذية ، وقلبه الكبير ، هذه ناحية ، والناحية الثانية هي أننا نعرف أيضاً بأنه تصدى لمحاربة أناس كانوايهبون الذهب الرنان بالكمية لا بالعدد ، ومع ذلك هزمهم في أقدس الأماكن ، كالشريف (حسين بن علي) الذي كان الحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى يغدقون عليه الذهب بالوزن لا بالعدد ، وكان هو ينفقها بدوره على البادية والجنود بنفس الصورة التي وصلت إليه .

إذن فماذا نقول يا ترى ؟ أنقول إن السرَّ في سيادته

للجزيرة يعود أن لديه قبيلة كثيرة بعددها وقوية بعتادها ومنيعة الجانب بسطوتها ؟ ..

أنقول ذلك والتاريخ يفيد إفادة لا تقبل الجدل بأن



الملك حسين بن علي

قبيلته التي ينتمي إليها - بالرغم من وفرة تلك الصفات فيها - لم تحارب بجانبه يوماً من الدهر ، كما يفيدنا التاريخ أيضاً أنه ما من قبيلة من قبائل الجزيرة إلا حاربته، اللهم إلا ما كان نادراً . والنادر كالمعدوم ، هذا إذا وجد النادر ، وقد تختلف هذه القبائل في حروبها له ، لا رحمة به ، ولا تسامحاً منها ، ولا عفة عن حربها له ، ولكن الاختلاف يكون بقدر ضعف هذه القبيلة وقوة بأس الأُخرى وشدة ضراوتها .كما أنك قلَّ أَن تجد بلدة من بلدان

المملكة إلا حاربته ، بما في ذلك بلدته الرياض ، فإن رجالها حاربوه بجانب عدوه ابن رشيد ، وأبعدوه عنهم في محاولته الأولى لاحتلال الرياض ، ولم يتركوا مقاومته في هجومه الثاني على سرية ابن رشيد إلا نكاية بعبد العزيز بن رشيد الذي عاملهم بواسطة مندوبه (سالم السبهان) معاملة سيئة لا يمكن أن يطيقها العربي الأَبِيُّ ، فعندئذٍ قلبوا للرشيديِّ ظَهْرَ المِجَنِّ ، وصافحوا عبد العزيز بن سعود .

وقد يقال : إن عبد العزيز - وإن لم يحارب بجانبه رجال قبيلته - فإنه حارب معه وبجانبه عدة قبائل من قبائل نجد ، ولا يسعنا الجواب على ذلك إلا أن نقول : نعم حارب مع عبد العزيز عدد من رجال القبائل ولكن هؤلاء المحاربين نجدهم في بعض المعارك عندما يحمى بها الوطيس ، وتشتد الهيجاء وتميل كفة الحرب لصالح العدو ، في تلك اللحظات الحرجة كثيراً ما يتخلى عن عبد العزيز الانتهازيون من رجال تلك القبائل ، والسبب في تخليهم هذا ليس جبناً ، بل لأنهم من الأساس لم يحاربوا

معه إلا بدافع النهب والسلب ليس الا[1] .

السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل ما ذكرته في هذه الصفحة هو الحقيقة والواقع أم انه مختلق ؟؟ فإذا كان هو الواقع الذي لا ينكره إلا جاهل أو مكابر فإن أيّ تزويق أو تنسيق أو تحريف فيه لا يعني التدليس ومغازلة الجماهير من بدو وحضر فحسب بل يعني التزوير والإجحاف ، والطمس لجوهر الحقيقة التي لا يسع الكاتب الصادق إلا أن يوردها بحذافيرها ، عارية عن التنميق . ومجردة عن التزويق .

الذي دعاني إلى هذا الحديث الصريح هو أن لبعض الإخوان رأياً يشير عليَّ بأن أعرض عن ذكر هذه الحقائق ، في الحين الذي أرى ذكرها ضرورياً لكي يعرف القاريء أهمية هذه الوحدة الوطنية التي جاهد عبد العزيز حتى وطد أركانها ، أما إذا كان هناك من المؤرخين من لم يشر إليها

(١) كانت رغبة النهب والسلب عند بعض رجال القبائل قبل أن يوجههم عبد العزيز التوجيه الروحي ، فترك كثير منهم البداوة ، وذهبوا وبنوا قرى عوضاً عن بيوت الشعر ، وتسمى الواحدة من هـذه القرى (هُجْرة) وجمعها هُجَر .

عن سهو أَو عن جهل منه لها أَو عن عمد. ففي جميع هذه الحالات لا يجوز أَن نعتبر ذلك الجهل ، أَو هذا السهو ، أَو العمد سنة نهتدي بها ، ونقتدي بصاحبها .

أَولا يعلم هؤلاء المعترضون أَن عبد العزيز كان في أَكثر من مناسبة إذا أَراد أَن يتحدث في مجالسه عن الماضي وعن جهاده ونضاله وكفاحه حديثاً شاكراً الله به ، قال : كنت في أَكثر الحروب التي تقع بيني وبين العدو ، لا أُقدم على خوض غمار الحرب حتى آخذ عهد الله وميثاقه من أَكثر من رئيس من رؤساء القبائل الذين يحاربون بجانبي بأَن لا يغدر بي رجالهم من الخلف فينهب (جيشنا) - يعني الرواحل - .

فإذا كانت هذه الحقيقة لا يختلف في صحة وقوعها اثنان ممن عاشوا الأَحداث ، أَو ممن يتحرون نقل الأَحداث عمن عاشوها فهل الأَفضل أَن نغفل هذه الحقيقة الواقعية ونطمسها - ؟؟ أَو الأَفضل بل الأَجمل والواجب على الكاتب الأَمين الصادق أَن يبرز هذا الواقع ، لا لأَنه واقع لا ريب فيه فحسب ، بل ليدرك الجيل الناشىء والأَجيال القادمة

المشاقّ والعقبات واللغوب الذي عاناه عبد العزيز في سبيل تحقيق هذه الوحدة التي يرفل المواطنون بأمنها ونعيمها وخيراتها .

وإذا كانت هذه الظاهرة أغفلها كثير من المؤرخين ، هذا إذا لم أقل : أغفلها المؤرخون جميعاً فإننا نجد الشاعر الشعبي محمد العوني الذي يعتبر شعره أصدق وثيقة تأريخية يركن إليها ، نجد هذا الشاعر أعطانا صورة واضحة المعالم ، في قصيدته بل ملحمته البالغة مائة وخمسة وثمانين بيتاً ، وهذه الملحمة الصالحة لأن تكون مرجعاً لكل من أراد أن يكتب عن تلك الحقبة التاريخية ، تحمل عدة معان : منها وصف الشاعر لفتوح الإمام عبد العزيز لمدينتي القصيم عنيزة وبريدة .

كما يذكر العوني في هذه الملحمة الصورة التي تم بها مصرع الأمير عبد العزيز بن رشيد ، وهو في الوقت ذاته يصف معركة (البُكَيرية) وصفاً عسكرياً وحربياً مؤثراً ، ويصور الطيور الكاسرة التي حلقت فوق رؤوس المتقاتلين قبل وقوع المعركة ، لتتغذّى من لحوم القتلى .

كما يصور هول المعركة عندما يؤكد أن دخان (بواريد) المتقاتلين من الجانبين حجب الشمس عن الأنظار ، فأصبحت أرض المعركة كأنها ليل مدلهم ، فالآفاق اغبرت ، والنار التهبت ، والسماء انحجبت ، والأرض اشتعلت جحيماً بين المتخاصمين ، والألسن صمتت ، ولا حديث بين المتقاتلين إلا حديث سيوف الهند ، وأسنة الرماح .

ويصف كذلك رؤوس القتلى من الطرفين مبعثرة كالحجارة .

بعد وصف الشاعر لهذه المعركة العنيفة ، الواقعة بين الإمام عبد العزيز وبين الأمير عبد العزيز بن رشيد في سنة ١٣٢٢ هـ بعد ذلك يقدم لنا الشاعر الحقائق التاريخية الآتية :

أولاً ـ يثبت لنا الشاعر الحقيقة التي أوجبت إستطرادي في هذا البحث ، وهي التي أشرت إليها آنفاً ـ وأعني تخلي الانتهازيين من قوم عبد العزيز في معركة كتلك المعركة الشرسة التي يعرف بها وبأمثالها ثبات الرجال

الأَبطال المخلصين ، من الانتهازيين ، فنجد الشاعر يهجو هؤلاء الانهزاميين هجاء مُرًّا شنيعاً ، ناعتاً لهم بالخيانة . وإن كان تحاشى ذكر أَسمائهم ولكنه لم يتوقف من أَن يسخر منهم بأَبيات أُخرى تحمل أَشد معاني السخرية والتحقير ، والهزء بهم .

ثانياً ـ نجد الشاعر يثني ثناء عاطراً على حضر نجد ، الذين ثبتوا بتلك المعركة . ويخص بثنائه أَهل الرياض الذين عندما نفدت ذخيرتهم انتضوا سيوفهم ، وأَوقفوا زحف جنود ابن رشيد سواء البدو من قبيلة شمر ، أَو الحضر من أَهل حائل ، أَو الجيش التركي الذي يحارب بجانب ابن رشيد .

ثالثاً ـ هو ما يصف به الشاعر الإمام عبد العزيز ، ناعتاً إياه بأَنه الفتى الذي أَنقذ البلاد وهو ـ كما وصفه العوني ـ لا زال حديث السن ، لم يتم عشرين سنة بعد ، وفي آخر القصيدة بيت تنبأ به العوني بأَن الفتى عبد العزيز سوف ينتقل بنضاله من دفاع دون جنوب نجد كالرياض ، ووسط نجد كالقصيم ، إلى هجوم يغزو به شمال نجد ، ويحاصر

مدينة حائل عاصمة الأمير ابن رشيد ، ويطيب لي أن أقسم الأبيات التي إختصرتها من تلك الملحمة أربعة أقسام :

القسم الاول : وصف الشاعر الرائع لمعركة (البكيرية).

القسم الثاني : وصفه الساخر اللاذع للقوم الانتهازيين الذين جاء الحديث عنهم أشبه ما يكون بالعمود الفقري لهذه القصيدة.

القسم الثالث : هجاؤه الشنيع لأولئك الانتهازيين.

القسم الرابع : ثناء الشاعر على أهل نجد وأهل الرياض بصورة خاصة وكذلك ثناؤه على أهل القصيم الذين كان الشاعر منهم .



الشاعر محمد العوني

أدبنا القومي أصدق وثيقة تاريخية لأحداثنا :

مشى وْحِنَّا بَالْبَيَارِق مشيْنَـــا
والأَمْر لله والسّبب به مضينـــا
يبغِي (البكيرية) وحنَّا بَغَينا
هَدْمَهُ ولَطْمَهْ قبل مَا يا صَلَ الدَّارْ
نزل وْحِنَّا عند خَشْمِهْ نَزَلْنـــا
منْ دُون دِيْرَتْنَا تَبيَّنْ جَهلْنَـــا
والطير ظَلَّل فَوْقَنَا يَوْم سِرْنـــا
يرجي يمانينا وعَدْلاَتَ الأَنْظَارْ
سِرْنَا عليه وْسَار بَيْنَ الصلاَتَيْنْ
والشمس غابَتْ منْ قَتَام الْخَمِيسَيْنْ
والبين صاح وْنَاحْ بين الخَصِيْمَيْنْ
واَغبرَّت الآفاقْ واشْتَعْلِتَ النَّارْ

تخاطبوا منْ بينهم بَالْهَنــادِيْ

(والتُّرْك) تَرْطِنْ والعرَبْ له تنادِي

لكَنَّ مَطْلَ الرُّوْس جَذْعَ الْهَوَادِي

يوم ٍ عَبُوس الشَّرّ بْوَجْهَ الأَشْرَارْ

هذا ما وصف به العوني المعركة وصفاً يعكس الصورة التي دارت فيها رحى الحرب ، كأن المرء ينظر إليها رؤية العين ، من خلال وصف هذا الشاعر لها بصفته شاهد عيان ومشاركاً فيها .

ويلي هذه الأبيات أربعة أبيات امتدح بها الشاعر أهل الرياض ، وأثنى عليهم ثناء عاطراً ، كما أنه أثنى على شجاعة أهل القصيم وهم قومه ، في مكــان آخر في هذه القصيدة ، وفي صدر البيت الخامس من الأبيات الأربعة القادمة نجد العوني وصم بالخيانة النفر الذين أشرت إليهم آنفاً ـ أي الذين تخلوا عن مشاركة قوم الإمام عبد العزيز بالقتال في تلك المعركة العنيفة ـ والشاعر في صدر هذا البيت عندما يصمهم بالخيانة لم يوضح لنا نوع هذه الخيانة التي يعنيها ، وفي عجز البيت المشار إليه

يؤكد ثناءه على أهل الرياض ، موضحاً أنهم في تلك المعركة عندما نفدت ذخيرتهم انتضوا سيوفهم ، ووثبوا على العدو ، وقاتلوا قتال الأبطال المستميتين ، والشيوخ الثقات يؤكدون أنه قتل من أهل الرياض في ذلك اليوم عدد كثير من أبطالهم[1] ، وإليك تلك الأبيات :

الميمنه دارتْ وصارتْ مخِيْفَه
راحتْ عنَ الاسلام صارَتْ خَفيفةْ
(والترك) لاقَتْهُمْ مُوارِثْ (حَنيفهْ)
ما خايروا يوم اَنَّ بعضَ العربْ خَارْ
اعني هَلَ (اَلعَوْجَا) تعدَّاهُمَ اللوم
أَركوا جْموع الحضْر والبَدْو (والرُّوْمْ)
لولا (زهْبَتْهُمْ) كملت تالي اليوم
ما خِيْشْرَوْا بالْمدح بِشْهُودَ الأَخْيَارْ

---

(١) كنت في مكتب جلالة الملك خالد بن عبد العزيز وهو ولي العهد اذ ذاك في ٦ – ٢ – ١٣٩٥ هـ ١٧ – ٢ – ١٩٧٥ – وقد سنحت الفرصة للحديث عن وقعة البكيرية فقال : إن الذين قتلوا من أهل الرياض في وقعة البكيرية ٨٠٠ شخص .

يومَ اكْمَلَ (القِصْدِير) عَيُّوا يطِيْعُوْنْ
قاموا بِخْذْبِ مْصَقَّلاتٍ يهُوشُــوْنْ
يوم انَّهم خانوا بْهُمْ مَنْ تَعَرْفُــون
اسْتعْصموا بِحْدُودِ عَطْبَاتَ الاذْكَارْ

بعد صدر هذا البيت الأَخير ذهب العوني يكشف القناع بسخريته اللاذعة التي يسلط بها الأَضواء على الرجال الانهزاميين ، واصفاً إياهم بأَنهم كالجِمال البزل ، التي يظن بها أَنها سوف تحمل الأَثقال إذا دعت الحاجة إليها ، ولكنه يعود ويقول : أَلا قبح الله تلك الجِمال التي لم يكن فيها واحد جاء وفق الظن الذي كنا نظنه به ويمضي فيقول : إن تلك الجمال الضخمة الأَجسام المفتولة السواعد ، والقوية العضلات ، كلها خارت قواها وتخلت عنا في صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا غذاء ، وأَوشكنا أَن نموت ظمأً وجوعاً ، لولا أَن الفتى البطل عبد العزيز أَنقذنا من الهلاك ، فأَصغ إلى العوني بسخريتــه بأَولئك القــوم الانهزاميين في معركة مصيرية بنظر الشاعر ، أَصغ إليه يقول :

هاكَ الْجمال اللِّيْ قبل صايْجـاتِ
قلنا : لكـلٍّ حْمُولنـا شايْـلاَتِ
شِفْنَا شَحَمْهِنْ والْعَضَا وافْيَـاتِ
والكِلِّ في راسِهْ زعانِيْف وَصْطَـارُ
قلنا : إلَى شافَنْ عَلَيْنَا ثِقِلْ شَيْـلْ
جْمَالْنا هٰذي بِهِنْ قُوَّةَ الْحَيْـل
نَنْسِفْ عليهِنْ شَيْلِنَا بَالْمَحَاوِيْـلْ
إلَى ٱشْتَدَّتَ الشِّدَّة وطالت الأَسْفَارْ
يَوْمَ ٱحْوِجَ الحاجَـةْ لِهِـنْ وَقَّفَنِنِّ
صلط عليهن كلهـن بَهَّـرَنِّي
ما واحْدٍ فيهِنْ زَكَافيـه ظَنِّـي
وهِنْ سْمانٍ مَا قُوَنْ شَيْلَ الأَوْثَـار

ثـم بعد ذلك ينتقل الشاعر إلى القسم الأَخير الذي خص به (أَبا تركي) - الإمام عبد العزيز - فيصفه بصدر البيت بـأَنه أنقذ قومه من الهلاك المحتوم ، وذلك عندما تخلى عن المعركه أَولئك الرجال الذين وصفهم بالجِمال ، تعبيراً عن البيئة التي عاشها الشاعر على إعتبار أَن الجِمال

في تلك الفترة تقوم مقام وسائل المواصلات في عصرنا هذا بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، وها هو العوني يذم أُولئك الانهزاميين ويشيد بثنائه على عبد العزيز فيقول :

خَلَّنّا بَالَّلال لـولا (جملنـــا)
شِلْنَا عَلَيْهِ حْمُوْلَنا وارْتَحَلْنَـا
واف الْخَصَايِلْ جَابْنَا مـن وَحَلْنَـا
يَوْمٍ طَنَّبْ بَالرّغَا كِـلٍّ هـدَّارْ
بِسْعُود (أَبو تركي) بسيفه ضَرَبْنَا
هاماتْهُمْ بِسْيُوفْنَا مَا ٱكْثَرَبْنَـا
لكَنَّ جَدْعَ الرُّوْس يُوم ٱنْتِدَبْنَـا
جَدْعَ الْحَدَايِجِ عِنْد لَوْفَاتَ الأَسْفَارْ
وٱستامنتْ بِلْدَان حِنَّا ذَرَاهـا
بَالله وَلاَ غيرِهْ سَمَكْنا بْنَاهَـا
ثم (أَبو تركي) اللَّيْث مْعَفّيْ حْماهَا
حَيْدٍ على صعبات الاحْوال صبَّارْ
صَغِيرِ سِنٍّ ما بعدتَمّ عِشْرِيْـنْ
شالَ الْحُمُولَ المُثْقِلَهْ نصْرَةَ الدِّيْنْ

وَاظْهَر سْنَانَ الْحرب دُوْن الْمقلِّيْنْ
لمَّا زَمَا عِنْدَ الخلائِقْ بَالأَذْكَـارْ
تراه (أَبو تركي) ولا اَعْنيْت غيرهْ
صَبَرْ علَى حَرْبَ الدُّوَلْ بَالْجزِيرهْ
هُوَ الِّلي اَخْتَصِّهْ ورَبِّـيْ نصيْـــرِه
يدبّر اَفْعالِهْ جليــلات وكْبَـارْ
إِنْ يَسَّرَ الباريْ وزانَت وْفُوقُــــهْ
لاَ بدِّ منْ يَوْمٍ تشاعَـلِ بروقُـــهْ
يُومٍ على (حايِلْ) صدوْقٍ حَقُوقــهْ
يِضْفِي عليهُمْ غَيْمةٍ صَبَّها اَمْطَـارْ

وبعد فقد جئت بهذه الملحمة التي نقلتها عن الشاعر العوني ، نظراً لما فيها من المعاني التي تؤيد صحة ما ذكرته بأَن هناك من الرجال الانتهازيين من تخلى عن عبد العزيز وهو في عنفوان المعركة الدائرة رحاها ، الأَمر الذي يجعلني شديد الحرص على معرفة السرّ الذي عن طريقه تمكن عبد العزيز من توحيد بلاده ، ذلك السر الذي هو مدار بحثنا في هذا الفصل .

هل الحظ دائماً كان حليفاً لعبد العزيز

تلك قاعدة ثابتة في كل زمان ومكان ، وهي أنه إذا نجح شخص ما في أيٍّ ميدان من ميادين الحياة نسب أعداؤه وحساده سرّ نجاحه إلى حظه الحسن وطالعه السعيد .

ووفقاً لهذه القاعدة المطردة لا نستبعد أن يقال : إن السر المتواري في نجاح عبد العزيز الذي وحد به البلاد أن الحظ دائماً وأبداً حليف له .

ويساعد هؤلاء الجاهلين أو الحاسدين في ترويج هذه (الدعاية) يساعدهم القسم الوافر من المؤرخين الذين قل أن نجد منهم من ذكر الصدمات والعقبات أحياناً والهزيمة تارة أخرى التي يواجهها عبد العزيز ، ويثبت أمامها ثبوت الجبال الراسيات ومن ثم يعيد الكرة مرة تلو مرة حتى يحقق النصر.



الملك عبد العزيز

مما لا شك فيه ان الحظ لعب دوراً هاماً وكبيراً بنجاح عبد العزيز ، وأهم شيء وفق له عبد العزيز توفيقاً ملحوظاً فيما إذا أردنا أن ننسب ذلك إلى حظه ، أهم شيء هو أنه منذ أن برز على مسرح الأحداث لم يصارعه قائد على مستواه بالصفات التي تجلّت في قائد كعبد العزيز ، ويقال : إن الإمام عبد العزيز عندما ثار عليه الإخوان في عام ١٣٤٧ بقيادة فيصل بن سلطان الدَّوِيش وسلطان بن بجاد بن حُمَيْد ، يؤكد الرواة أن عبد العزيز قال ساخراً : (هؤلاء ليسوا نِدًّا لي ، نِدِّي الحقيقي عبد العزيز بن رشيد وقتلته) . ولا ننكر أن للحظ دوراً هامًّا في نجاح الرجال العاملين المجدِّين الذين لا تلين لهم قناة ، ولا تهن عزائمهم من أول صدمة ، ولا يعرفون الكلل ، ولا يدب إلى نفوسهم اليأس .

ولكن الحظ وحده بدون تلك الصفات لم يكن يوماً من الأيام عاملاً رئيسياً لنجاح المرء .

أما إذا وقع المستحيل ، ورأينا شخصاً نجح ، وهو عارٍ من جميع الصفات التي تؤهله للنجاح سوى الحظ فقط ،

فنجاح هذا الشخص لا يُبْنَى عليه قاعدة مطردة ، وذلك أَن نجاحه يكون لعدة أَسباب ، منها أَنه قد يكون نجح بمجهود غيره ، ومثال ذلك كثيراً ما نجد شخصاً نجح ولمع اسمه في عهد حاكم ما أَو دولة ما ، ولكن مجرد ما يزول عنه ظل ذلك الحاكم أَو هذه الدولة يسقط إلى الحضيض ، وعلى أَية حال فإنَّ أَيَّ شخص نجح بمجهود غيره ، أَو نجح بعامل الحظ فقط دون أَن يكون لديه مواهب جمة من مؤهلات النجاح ، وبدون أَن يبدي أَي جهد ، فإن نجاح مثل هذا المرء لا يعتبر نجاحاً محترماً ، كنجاح الرجل الذي يكبو حظه أَحياناً ، ولكنه سرعان ما يرجع صلباً ثابتاً متوشحاً بإرادة تفلُّ الحديد ، وهمة تناطح السحاب ، كصاحب الترجمة .

والشاهد هنا هو أَن الحظ لم يكن العامل الرئيسي الذي ذلل لعبد العزيز العقبات ، حتى وصل إلى ما وصل إليه من قمة المجد .

وكم يخطىء المؤرخون الذين تصدوا للكتابة في تاريخ حياة عبد العزيز إذا كانوا يعرفون الكبوات والهزائم التي

يواجهها عبد العزيز ثم يتغلب عليها ويجعل منها نصراً له ، كم يخطىء هؤلاء إذا كانوا يتعمدون جحود هذه الحقائق ظانِّين وَهْماً أَنَّ ذكرها يسيء إلى عبد العزيز ، أَفلا يعلم هؤلاء أَنهم في جحودهم لهذه الحقيقة إرتكبوا خطيئتين لكل واحدة منهما أَثرها السيء :

الاولى ـ أَن ذلك المؤرخ جحد أَمانة من أَمانات التاريخ التي يجب عقلاً ونقلاً أَن تعرفها الأَجيال ، لأَنهم بمعرفتهم لها يكون لديهم قناعة بأَن سِرّ نجاح عبد العزيز لم يكن مجرد صدفة حظ حالفه ، بدون أَن يلاقي صدمات ، وكبوات وهزائم ، ولو كان جحود الهزيمة التي تلحق جائزاً شرعاً لكان أَولى بمؤرخي حياة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ـ أَن يجحدوا هزيمته في (أُحُدٍ) وفي (حُنَيْن) .

والحقيقة الثانية ـ التي يرتكبها المؤرخ الذي تعمد الجحود ـ : انه بجحوده لهذه الحقيقة ، يكون قد جحد في الوقت نفسه عظمة عبد العزيز . وطمس إرادته الحديدية ، وأَخفى صموده وثباته وعدم إذعانه لليأْس

وأغفل قدرته على مصارعته للعدو وكَرِّه عليه كرَّةً تلو كرَّةٍ حتى يحقق النصر .

وبالتالي أثبت هذا المؤرخ ما يزعمه الحاسدون والجاهلون أن حظ عبد العزيز هو السر الحقيقي لنجاحه !!

وهذا يعني على رأي الحاسدين أن عبد العزيز ليس لديه أية موهبة ، ولا سر كامن بين جوانحه مما يؤهله لما حققه لبلاده من أمان وسؤدد ووحدة

والشيء الذي يسرني أن أختم به هذا البحث هو بما أن الأمور السالف ذكرها لم تكن وحدها العامل الرئيسي في توحيد عبد العزيز لبلاده ، رغم وفرتها بشخصه ، كما لم تكن قبيلته ولا بعض أنصاره الذين يتخلون عنه في عنفوان المعركة ، لا هؤلاء ولا أولئك العامل الذي يستند إليه في ما نصبو إلى معرفته ، وأخيراً لم يكن الحظ ـ على رأي الحاسدين ـ الذي عن طريقه وصل عبد العزيز ما وصل إليه ما دام أن بطل الجزيرة لم يبن زعامته على واحد من هذه الأمور التي أشرنا إليها فلا بد والحالة هذه أن يكون هناك سر كبير أهم وأعظم وأجل مما ذكرنا .

ولكن ما هو هذا السر العظيم الخارج عن هذه المؤهلات للزعامة ؟ .... أَجل إنه السر الجليل ذو الأَهمية الكبرى الذي أَدرك محمد (ص) عظمة مفعوله وهيمنته على شعور العرب وعواطفهم وقال ما معناه :

« إنكم لا تَسَعُونَ الناس بأَرزاقكم ، فَسَعُوهم بأَخلاقكم»

***

بهذا السر تم لعبد العزيز النصر وتوحيد البلاد

وكل من يظن أن عبد العزيز آل سعود ملَك البلاد ووحَّدها بالسيف فقط فإنه يجهل تاريخ بلادنا جهلاً عميقاً ، هــذا من ناحية ، ومن ناحية أُخرى يجهل كُنْه الخلق العربي الذي لا يمكن أن يذعن إذعاناً تامّاً للقوة والعسف مهما كان صاحبهما شجاعاً فتاكاً ، فلو كان انتصار السيف كافياً لأَن يكون نصراً أَدبياً ومعنوياً يعيشه المنتصر ويجترُّهُ هو وأَبناؤه وأَحفاده إلى الأَمد البعيد ، لو كان الأَمر كذلك لأَصبح الأَمير عبد العزيز المتعب بن رشيد هو السيد المطلق الذي لا ينازع في نجد بكاملها ، خاصة بعد انتصاره الرائع في وقعة (الطُّرْفيَّة) سنة ١٣١٨ هـ تلك المعركة التي تم بها له النصر الساحق على الشيخ مبارك

آل صباح ، ومن التف حوله لا من زعماء نجد فحسب - كالإمام عبد الرحمن الفيصل - وآل أبا الخيل زعماء بُريدة ، وآل سُلَيْم زعماءِ عُنيزة ، يضاف إلى هؤلاء عدد من زعماء قبائل نجد كسلطان الدويش الذي له نفوذه في قبيلته مُطَير ورجالها البواسل ، نفوذاً يشبه إلى حد بعيد نفوذ حكام القرون الوسطى ، وابن حِثْلَيْن ، وابن مُنَيْخِر ومعهما رجال قبيلتهما العُجْمَان الذين وان كانوا من أقل قبائل نجد عدداً ، إلا أنهم من أشد القبائل بأساً ، وأسرعهم نجدة ، وأوفرهم بطولة ، وأكثرهم حمية وتكاتفاً فيما بينهم [1] - لا ليس انتصار ابن رشيد في تلك الوقعة محصوراً على هؤلاء وأولئك من زعماء نجد ، بل ويناصرهم الشيخ سعدون بن منصور بن سعدون زعيم أكبر قبيلة في العراق ، الأمر الذي جعل أحد شعراء قبيلة

(١) قلت للأمير سلمان بن عبد العزيز : لو أن عدد قبيلة العجمان كعدد بعض القبائل لأصبحت السيادة لهم على قبائل الجزيرة بكاملها نظراً لتكاتفهم فيما بينهم بشجاعتهم ، فقال : إن قلتهم هذه هي التي دفعتهم إلى ما تراه من شجاعتهم وتكاتفهم ، فأعجبت بجواب سلمان الذي دائماً أسمع منه جواباً منطقياً ومقنعاً ، - فما هذا الشبل الا من ذلك الأسد ! !



الأمير سلمان بن عبد العزيز

شمَّر ينشد قصيدة ـ شعبية ـ جاعلاً القائل لها الأَمير عبد العزيز بن رشيد ـ وهي من نوع القصائد التي يُهْزَج بِها فوق ظهور النجائب إذا سار الركب ، ويقال لوزنها (هُجَيْنيْ [١]) لا أَحفظ منها إلا هذين البيتين :

ابنْ صباحٍ وابنْ سِعْدونْ   وابن سعود وابا الخيل

---

(١) نسبة للهجن التي هي نجائب الإبل .

كَسَرْتُهُمْ في نَهارَ الْكَوْنْ   بْصِبْيَانِ (شَمَّرْ) عَلىَ الْخَيْلِ

كل هؤلاء القادة انتصر عليهم عبد العزيز بن رشيد انتصاراً ساحقاً في وقعة (الطُّرْفِيَّة) التي تسمى أيضاً وقعة (الصَّريف) ، ولكن انتصاره هذا كان بداية النهاية لهزيمته ، لماذا ؟ ... لأنه ظن أن انتصار السيف كافٍ ، فاعتمد عليه ـ غفر الله له ـ والمثل الدارج يقول : (من أَخَذَ بالسيف أُخذَ بالسيف) .

إذن لم يكن السيف وحده العاملَ الأول لانتصار عبد العزيز في توطيد حكمه .

وكل من يتخيل أيضاً أن عبد العزيز ملك البلاد ببذله المال فقط فإنه جاهل لأسرار تاريخ بلادنا بصورة خاصة ، وجاهل نَفسية العربي بنوع عام تلك النفسية التي عبر عنها أصدق تعبير عنترة العبسي عندما قال :

لا تُسْقِني ماءَ الحيـاة بذلَّـة
بلْ فاسْقني بالعز ماءَ الحنظـلِ
ماءُ الحياة بذلَّـةٍ كجهنَّـم
وجهنَّمٌ بالعزِّ أَرْفـع منـزل

وكل من يتصور أن عبد العزيز وحد البلاد بسبب مناصرة رجال أسرته الأَقربين له فإنه إما أنه يجهل حقيقة تاريخ بلادنا جهلاً شنيعاً ، وإما أنه يحاول أن يتجاهل الحقيقة ، وذلك أننا نجد أن سنن الكون ، وإرادة الله وحكمته التي قضت بأَن يقع التنافس بين نبي الله يوسف وإخوته ، قد قضت بوقوع شيء من ذلك التنافس بين عبد العزيز وبين رجال لهم أَهميتهم في ميدان البطولة والشجاعة، من أَبناء عمه الأَقربين ، وهو تنافس وصل في فترة من الوقت إلى مقارعة السنان بالسنان ، والسيف بالسيف ، ثم عادت المياه إلى مجاريها ، وفقاً لما قاله الشاعر البحتري :

إذا احتربتْ يوماً فسالتْ دماؤُها
تذكرت القربى ففاضتْ دموعها

وشاهدنا هنا هو أَن كل من درس تاريخ حياة عبد العزيز وتبصر في سياسته الحكيمة ، وأَمعن النظر في شيمه ، وتدبر سيرته بعمق ، يجد أَن برنامجه الذي سار عليه في توطيد زعامته يقوم على تطبيقه للعامل الرئيسي الهام ، وهو أَنه عندما ينتصر على أَعدائه عسكرياً ينظر إلى هذا

الانتصار المادي نظرة أَقلَّ من أَن تكون ثانوية عندما تقاس بالانتصار المعنويِّ والأَدبيِّ والأَخلاقي .

وهذا مما يجعلنا نراه لا يهتم باستيلائه على البلاد التي يحتلها عسكرياً ، بقدر ما نجده يهتم بأَن يستولي على قلوب أَهل تلك البلاد استيلاء كاملا ، لا ينافسه فيه أَي زعيم آخر ، بل ولا يخطر ببال ذلك الزعيم الذي يستولي عليه عبد العزيز أَن ينقلب عليه – بشرط أَن يكون هذا الزعيم كريماً يملكه المعروف ويتقيد به .

هكذا كانت فلسفة حكم عبد العزيز التي سار عليها ، تلك التي تعبر بوضوح على أَنه وإن كان بغزواته فتح البلاد ، وأَسر الرجال في ميادين الحرب – لكنه كان بعد ما يتم له النصر الماديُّ على خصومه يُسَخِّر جميع مواهبه وقواه لفتح قلوب أَولئك الأَعداء ، كما فتح بلادهم ، باذلاً كلَّ جهده الذي يأْسر به نفوس أَعدائه كما أَسر قلوبهم .

وبعد فإني عندما أَذكر هذه الفلسفة لحكم عبد العزيز مؤكداً أَنه يحرص – بالدرجة الأُولى – على أَن يستولي

على قلوب أَعدائه أَشد من أَن يستولي على حكمهم ، حينما أَذكر ذلك لا بدَّ لي من أَن آتي بأَدلة وشواهد منطقية وإلا فيكون حديثي هذا ضرباً من الوهم والظنون أَو مبالغة بالقول .

* * *

الفضل ما شهدت به الأعداء

من المعروف أن أكبر المنافسين لعبد العزيز آل سعود وأقواهم بأْساً وأعنفهم مراساً وأكثرهم رجال قبيلة وأوفرهم بطولة وأسرعهم نجدة ممن لا يمكن أن تتم وحدة هذه البلاد لو لم ينضووا تحت لوائها ، وأشد القبائل غيرة وحمية وتكاتفاً عنصرياً هم قبيلة ابن رشيد (شَمَّر) وأهل بلاد حائل الذين كاتب « شيم عبد العزيز » هذه واحد منهم ، ولكي يعرف القارئ ما هو الأُسلوب الذي يستطيع الملك عبد العزيز أن يملك به قلوب أعدائه بصورة مفضلة عنده على أن يملك رقابهم ، لكي يعرف ذلك أحب أن أُورد كلمة رويتها عن الأمير عبد الله بن متعب بن رشيد ، ومن أجل أن تكون للكلمة قيمتها التاريخية والواقعية أود أولاً أن

أُوضح للقارىء الذي قد لا يعرف شيئاً عن مكانة صاحب هذه الكلمة ومنزلته في تاريخ أَحداث الجزيرة القديم .

فالراوي كان أَمير حائل عاصمة المنطقة الشمالية من الجزيرة وابن أَميرها متعب ، وحفيد أَميرها المرحوم عبد العزيز بن رشيد الفارس المشهور ، الذي كان أَعنف وأَقوى من أَيّ خصم نازله المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود ، والذي كان مصرعه على يده - كما مَرَّ بنا ذلك منذ قليل ، والذي يعتبر إبن سعود أَن مصرعه فاتحة عهد جديد في انتصاراته الأُولى ، فيكون بطل الرواية هو الشخص الذي قتل عبد العزيز آل سعود جده . وحطم زعامته وزعامة أُسرته وأَسر رقبته ، ولكنه في الوقت ذاته أَسر قلبه وملك نفسه . وأَكبر دليل على ذلك هو أَني سمعت هذا الشخص ذات ليلة يقول : - في مناسبة ذكرتها في مؤلفي « فهد بن سعد ومعرفة ثلاثين عاماً » [1] يقول عبد الله : (أَتمنَّى أَن الأَجل يمنح كما يمنح المال) ، ثم واصل حديثه فقال : (لو أَن الأَجل يمنح لمنحت من أَجلي قِسْطاً لعبد العزيز بن

---

(١) ص ١٣٢ .

سعود) ، لقد دهشت ساعة قال هذا وكيف لا تأْخذني الدهشة عندما أَسمع هذا الكلام من شخص وضعه كوضع ابن رشيد ، وزادني دهشة هو أَني أَولاً : أَعرف عبد الله جيداً بأَنه صريح ، ولا يمكن أَن يتحدث أَو ينطق إلا بما يعتقده ويؤمن به .

ثانياً : أَنه صرح بهذه الجملة في الحين الذي أَعتقد جازماً بأَنه لم يكن بين السامعين للجملة التي قالها أَيٌّ شخص يحتمل أَن ينقل مثل هذه الكلمة إلى من قيلت فيه . بل أَعتقد أَن لو علم ابن متعب أَن هناك من ينقل هذه الكلمة إلى عبد العزيز لما نطق بها .

ثالثاً : خطر في ذهني حينذاك أَن الملك عبد العزيز قد منح هذا الأَمير الرشيدي مبلغاً مغرياً من المال ، ولكن هذا الخاطر لم يدم طويلاً في ذهني ، والسبب هو أَني أَعرف عبدالله كما يعرفه كثيرون غيري ، بأَنه امرؤٌ لا تؤثر الأَشياء المادية في نفسه كتأْثير الأَشياء المعنوية ، وذلك أَنه حتى ولو وهبه الملك مالاً فإنه بدوره يهب ما يأْتيه في



الأميران عبدالله المتعب الرشيد ومحمد بن طلال آل رشيد

حينه ، ولا يدخر درهم اليوم للغد [1] إذَن فالقضية التي مكنت عبد العزيز من أن يجعل عدوه وابن عدوه وحفيد عدوه يذعن له بالولاء والمحبة والإخلاص إلى الحد الذي يجعله يتمنى أن يهبه قسماً من حياته أي انه يفتديه بنفسه - معنى هذا أن السر في ذلك أعظم من أن يكون ماديًّا .

نعم إنه معنوي حقًّا ، ولقد أُتيح لي شيء من معرفة هذا السر فيما بعد ، عرفته بمحض الصدفة ، ولا أُريد أن أُطيل الحديث على القارىء . ولا يسعني إلا أن أقول : إن ذلك السر معاملة لطيفة أبوية ، عامل بها الإمامُ عبد العزيز الأميرَ عبد الله المتعب ، ومن أراد أن يطلع على تلك المعاملة المعنوية الأبوية التي لا تصدر إلا من الوالد الحنون، وهي وأمثالها وحدها التي استرق بها عبد العزيز قلب ابن متعب وأمثاله- فليراجع مؤلفي «التطور الفكري في جزيرة العرب» [2]

---

(١) اثباتاً لما ذكرت هو ان الملك السابق سعود عندما كان أميراً منح عبدالله هبة - حملها إليه أحد رجاله - فما كان من عبدالله إلا أن منح تلك الهبة خادم الملك سعود الذي حمل إليه تلك الهبة . ويؤكد الشاعر لويحاني أن رجلاً ثقيلاً دخل على عبد الله المتعب ، فسأله عبد الله عمن فتح الباب ، فقال الثقيل ، غلامك فلان، فقال عبد الله عد من حيث أتيت وخذ الغلام هبة لك

(٢) صفحة ١٧٣

بقدر ما تكره تُكره وبقدر ما تحب تُحب

في أغلب الأحيان يكون القلب هو الترجمان الأمين الصادق ، ومن النادر أن تجد في قلبك محبة لشخص ما ، إلا وفي قلبه لك محبة بالقدر الذي في قلبك له وبالعكس ، ولهذا نجد المثل الدارج عندنا يقول : (القلوب شواهد) ويقول المثل الثاني (قلبك دليلك) .

فإذا كنت أوردت في الصفحات السابقة الجملة التي سمعتها من عبد الله المتعب بن رشيد والتي تعبر أصدق التعبير عما في نفس ابن متعب من محبة لعبد العزيز فإنه ثبت لديَّ أن الإمام عبد العزيز كان يبادل الأمير عبد الله المتعب حبًّا بِحُبٍّ ، لقد ثبت لدي ذلك عن طريق الرواية التي أنقلها عن الأمير نايف بن عبد العزيز المعروف باتزانه

وصدقه ، يقول نايف : إنه في الفترة التي بلغ جلالة والده نعي عبد الله المتعب سمع والده الملك عبد العزيز يبكي حزيناً على عبد الله بكاءً مؤثراً .

والواقع أن الذي يعرف شخصية عبد الله معرفة جيدة ، ويعرف الاسلوب الذي يسير عليه في منادمته للملك عبد العزيز في مجلسه الذي يضم العدد الوافر من الشخصيات البارزة من سكان المملكة ومن سواهم من الوفود القادمين إليه من كل فج عميق ، لا يشك في صحة رواية الأمير نايف أو في صدقها مهما كان مصدر هذه الرواية ، فيما لو كان مصدرها غير الأمير نايف (انظر الصورة) .

ويؤيد صحة رواية نايف ما سمعته من أكثر من واحد من الرواة الثقاة الذين يؤكدون أن الملك عبد العزيز بعد أن توفي عبدالله المتعب لم يتحدث في مجلسه ذلك الحديث الذي كان يتحدث به في مجلسه عندما كان ابن متعب موجوداً يبادله الحديث .

وإذا كان عبد العزيز ملك فؤاد ابن متعب بمعروفه



الامير نايف بن عبد العزيز

وإحسانه وأخلاقه ، حتى أنساه زعامته وزعامة آبائه وأجداده ، وحتى أن ابن متعب كان همه الوحيد أن يسخر مواهبه لا ليرضي عبد العزيز فحسب بل ليرضي جميع أبناء عبد العزيز وأسرة عبد العزيز ، فإنني سمعت الملك الشهيد فيصل يقول العبارات الآتي معناها : (لا أذكر أنني عرفت رجلاً كعبد الله المتعب الذي إن اردت حديث الرجال والجد آنسك بحديثه ، وإن أردت المزح أرضاك بأسلوبه) .

وأظن أن الأمير فيصل بن سعد ـ إذا لم تخني الذاكرة ـ كان حاضراً الحديث الذي قاله الملك وهو على المائدة في جدة .

كان أعنف عدوٍ لعبد العزيز
فأصبح أحبَّ إليه من نفسه

ربما يقول من يعرف تاريخ بلادنا جيداً : إن الولاء والودَّ والتفاني الذي بدر من الأمير عبد الله المتعب الرشيد تجاه الملك عبد العزيز لم يكن غريباً ، على اعتبار أن عبد الله تخلى عن إمارة (حائل) تحت ظروف قاهرة ، وفي ظرف لا يسعه أمام ذلك الامتحان العنيف القاسي الذي واجهه وهو دون سن البلوغ ، إلا أن يترك البلاد ومَنْ عليها ، ترك البلاد في يوم كان في أَمَس الحاجة إلى من يؤويه ويلتجيء إليه فوجد لدى الملك عبد العزيز خير ركن منيع يلتجيء إليه ، فآواه وأكرم مثواه . إلى أن توفاه الله .

قد أسمع من يقول ذلك ، وربما يكون لهذا القول شيء من المنطق ، ولكن هذا المنطق سوف يتفتت على صخرة

الواقعة المحسوسة التي تؤيد ما سوف أورده هنا وتثبته إثباتاً لا يقبل الجدل ، وهذه الأدلة أوردها عن الأمير محمد الطلال ، الذي كان وضعه يختلف اختلافاً تامًّا عن ابن عمه الأمير عبد الله المتعب .

فإذا كان ابن متعب تخلى عن إمارة بلاده بمحض ارادته والتجأ إلى الملك عبد العزيز بسبب عوامل قاهرة اضطرته مرغماً إلى ما فعل ـ كما سلف ذكره ـ فإن الأمير محمد بن طلال لم يأت إلى الملك عبد العزيز إلا رغم إرادته ، بل لم يأت إليه حتى قاتل وقاوم وناضل دون كل شبر من بلاده ، بل وحتى قُتل أمامه نخبةُ النخبة من أبطال بلاده في تلك الحرب الطاحنة ، وبالتالي لم يأت إلى عبد العزيز حتى سقط بيد جنود عبد العزيز (جبل أُعَيْرف) الذي يعتبر أكبر حصن عسكريّ في البلاد ، سقط (أعيرف) على الحالة التي سلف ذكرها ، وسقوطه يعتبر سقوطاً واحتلالاً نهائياً للبلاد ، كما حصل فعلاً . وبعبارة أوضح : لم يأت الأمير ابن طلال إلى عبد العزيز إلا بعد أن سلمت البلاد ، ولم يبق إلا (قصر الإمارة)



الملك عبد العزيز ومحمد الطلال وعبد الله المتعب

وقد حوصر فيه ذلك الأمير الشاب الذي لم تتجاوز سنه إذ ذاك سبعة عشر عاماً ، أجل لم يبق في قصر (بَرْزان) - وهو قصر الحكم - إلا الأمير ابن طلال معه قلة من نخبة رجاله الأوفياء الشجعان ، بعد ذلك لم يسع ذلك الفتى البطل إلا أن يستسلم للقائد الفاتح ، فاستسلم له بدون أن يعرف ماذا يكون مصيره ، إذ لا مندوحة له عن قبول الأمر الواقع .

فماذا لقي يا ترى الأمير محمد من موحد جزيرة العرب ؟ ... لقي القائدَ العبقريَّ الذي لم يرضه أن يستولي على إمارته ، بل استولى عبد العزيز على كل جارحة من جوارح الأمير ابن طلال ، وهل تريد دليلاً أوضح من الشهادات المتواترة التي يرويها أكثر من واحد ، من الرجال الثقات الذين سمعت من أكثر من واحد منهم ينسب عن الأمير محمد بن طلال قوله : (إن امنيته الوحيدة أنه إذا قدر الله الوفاة للملك عبد العزيز فإنه يسأل ربه بأن يتوفاه قبله بيوم) .

والرجال الثقات الذين شاهدوا محمد بن طلال عند

تشييع جثمان الملك عبد العزيز يؤكدون أنهم رأوه بحالة توتُّر واختلاف (هيسترية) فاقداً صوابه ، يبكي كالثَّكْلى .

وينسب الرواة الذين لا يرقى الشك إلى صحة روايتهم عن محمد بن طلال أيضاً أنه عندما هاجم الغادرون اليمنيون الملك عبد العزيز في الحرم المكي عام ١٣٥٥ هـ ينسب إليه أنه قال : (كنت أتمنى أنني بجانب الملك عبد العزيز في تلك اللحظة . لعلي أقوم بالدفاع عنه أو أُقتل بين يديه). وينقل الرواة الثقات أيضاً عنه أنه قال : أتمنى أن يكون في منزلي مسجل يحصي علي الحديث الذي يصدر مني في ثنائي وولائي لعبد العزيز .

* * *

أدلة وشواهد ووقائع متعددة

بين يدي عدة أدلة ، وأكثر من شاهد كلها تؤكد وتؤيد صحة الحقيقة التي تثبت بالدليل القاطع أن سياسة الملك عبد العزيز مبنية على مُثُلِهِ وأخلاقه وقِيَمِهِ التي يفضل أن ينتصر بها على أفئدة خصومه أخلاقياً ومعنوياً على أن ينتصر عليهم عسكرياً ، إيماناً منه بأن الانتصار العسكريَّ الماديَّ يجعل الضغائن والبغضاء والأحقاد كامِنةً متوارية في صدور الأعداء ، أشبه ما تكون بالنار تحت الرماد، التي لا بُدَّ من أن تستعر وتلتهب بمجرد ما تأتي ريح تؤججها ، وهكذا يكون العدوُّ في رأي الملك عبد العزيز، تظل عداوته متوارية ما لم يقم الغالب بأعمال أخلاقية وشيم عربية تنسيه تلك العداوة ، فينقلب من عدو لدود إلى صديق حميم .

من هذه الأَدلة ما يلي : ـ

ما من رجل من رجال ابن رشيد التجأَ إلى الملك عبد العزيز بسبب ظروف سياسية اضطرته إلى مغادرة إمارة ابن رشيد ، ثم زالت تلك الظروف وعاد هذا الملتجىء إلى بلاده بعد زوال الظروف التي أَخرجته منها إلا وأَصبح هذا العائد (طابوراً خامساً) يدافع عن عبد العزيز في عقر دار ابن رشيد دفاعاً لا يعني أَنه يخون ابن رشيد أَمير بلاده فالخيانة عند العربي ، وخاصة عند رجال ذلك الوقت غالباً ما تكون مفقودة ، وإنما يكون (طابوراً خامساً) بمعنى أَنه لا يرضى أَن يسمع أَيَّ إنسان ينال من شخصية (ابو تركي) أَي الملك عبد العزيز .

حدثني رشدان السعيد الذي لا زال على قيد الحياة والذي يتحدث حديثاً بعيداً عن التنسيق والتزويق ، لأَنه بطبيعته يتصف ببراءة كبراءة الطفل يقول : إنه سمع أَكثر من واحد من الحاشية الخاصة للأَمير سعود بن رشيد ـ من الذين سبق أَن ذهبوا للملك عبد العزيز ثم عادوا ـ سمعهم يتصدون لخصومة أَي إنسان ينال من شخصية عبد

ـزيز يفعلون ذلك وهم في وسط قصر أميرهم ابن رشيد ، وقد كان والد كاتب هذه السطور واحداً من اولئك الرجال على حد ما رواه رشدان .

فإذا كان هذا وضع الرجال الذين عادوا إلى بلادهم يدافعون عن عبد العزيز والحرب بينهم وبينه لا زالت قائمة على قدم وساق ، فإن بعض الذين ذهبوا إلى عبد العزيز من عشيرة ابن رشيد وأقاربه ولم تسمح لهم ظروفهم بالرجوع إلى بلادهم ، أو الذين فضلوا البقاء عند عبد العزيز على العودة إلى أهلهم وذويهم ، هؤلاء ومنهم قسم كبير من قبيلة (شمَّر) قبيلة ابن رشيد ومن أهل بلاده مدينة حائل ، وأكثر من ذلك منهم عدة فرسان من أسرة آل رشيد ، جميع هؤلاء عندما التقى الجمعان بين ابن سعود وابن رشيد في معركة (جراب) السالفة الذكر جميعهم تقدموا صفوف عبد العزيز ، بل وحملوا رايته ، هاجمين بها على من يا ترى .. ؟ على أهلهم بل وعلى آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وأبناء عمهم ، وفي هجومهم هذا قدم عدد وافر منهم حياته على مذبح الإخلاص والتفاني

والتضحية ، قدموها فداءً لعبد العزيز الذي أسر أفئدتهم بأخلاقه إلى درجة جعلتهم يرون أن انتصاره على أهلهم وذويهم أَعَزّ عندهم وأحب من حياتهم الغالية ، والذين قتلوا من أُسرة ابن رشيد في تلك المعركة هم نهار بن مهنا ابن رشيد وطلال الجبر وابنه عبد الرحمن كما جرح ابنه الثاني فيصل الطلال . أما الذين قتلوا من فرسان أهل حائل فمنهم فهد بن خرينق وعقل بن جراد ، ومن لا أُحيط به علماً أكثر ممن ذكرت من هؤلاء الشجعان الأبطال الذين دفعوا حياتهم بحافز الوفاء والولاء والإخلاص لعبد العزيز .

* * *

لماذا يلقب الملك عبد العزيز ب (معزّي)

الذين عاشروا الملك عبد العزيز في فتوحاته إبان نضوج رجولته يذكرون عنه بأنه إذا حمي الوطيس وامتطى الفرسان صهوات الخيل – واشتبكت الأسنة بالأسنة ، واصطدمت نصال السيوف بالسيوف. أو إذا جاءت مناسبة حربية ، أو مشكلة عسكرية وسياسية لا مجال فيها لأي حل من الحلول الوسط ، سوى الإقدام الذى لا مجال فيه إلا لأحد الاختيارين: إما ميتة الأبطال الأحرار ، وإما النصر على العدو ، في مثل هذه المناسبة يقال عن عبد العزيز إنه ينتخي ساعتذاك قائلاً: (أنا أخو نوره معَزي) هذه الكلمة الأخيرة (مُعَزِّي) لها معناها البعيد المدى ، ومغزاها الشاسع المرمى . فمعنى مُعَزِّي على حد التعبير الذي يعنيه عبد

العزيز وهو تعبير ما كنا نفهم معناه لولا أن الرواة الذين عاصروه نقلوا لنا تفسيره عن ابن عمه المغفور له سعود بن عبد العزيز المعروف بـ (سعود الكبير) أن الملك عبد العزيز إذا حكمت الظروف السياسية أو العسكرية بحكمهما القاسي الذي لا يعرف العاطفة أو الرحمة واضطر عبد العزيز بأن يقتل المرء الذي حكمت عليه تلك الظروف ـ فإن عبد العزيز بعد التنفيذ يبذل ما لديه من العطف والرحمة والشفقة والسخاء لأبناء ذلك المقتول ، إن كان له أبناء أو على والديه إن كان له والدان ، أو على منْ يَمُتُّ له بالقربى ، حتى يشعر ذوو المقتول أن عبد العزيز عزّاهم بمقتولهم فعلاً ، ومحا كل ما في نفوسهم من رواسب البغضاء والحقد ، بأعماله هذه ، ومن خلق العربي الذي فطره الله عليه ، أنه عاطفي يختلف عن كثير من الشعوب المتحجرة العاطفة .

ثقة عبد العزيز بشعبه صادرة عن عدله

يقول الشاعر العربي :

لا أسأل الناس عما في ضمائرهم
ما في ضميري لهم عن ذاك يكفيني

معنى هذا البيت جدير أن يكون قاعدة مطردة ، لا بين الأفراد فحسب ، بل بين أي حاكم ما وبين مواطنيه ، فالحاكم إذا شعر في نفسه ريبة من غضبة شعبه ، فمعنى ذلك أن ريبته هذه صادرة من إساءته لشعبه وظلمه وعدم عدله ، إساءة جعلته في وجل مستمر ، ووحشة دائمة ، وفقاً للمثل المعروف : أسأت إليَّ فاستوحشت مني .

وحشة يتصور هذا الحاكم أن شعبه سوف ينقضُّ عليه ، حالما تتاح له الفرصة المواتية ، أما إذا كان الحاكم واثقاً من

شعبه . فإن مصدر ثقته هذه ناتج عن عدله وعما في نفسه لمواطنيه من نيَّات حسنة ، توحي إليه بالثقة والاطمئنان ، وما بذله ويبذله من رفق وعفو وسماحة وعدل ، كما قال الهرمزان لعمر بن الخطاب: (عدلت فأَمِنْت فَنُمْتَ) وبهذا المعنى يقول حافظ إبراهيم في حق عمر :

أمنتَ لما أَقمت العدلَ بينهم   فنمت فيهم قرير العينِ هانِيْها

ومما لا ريب فيه أَن الحاكم إذا شعر من نفسه العدل فإن شعوره هذا يوحي إليه بالثقة المطلقة بنفسه وبرجاله وبشعبه ، وبالاختصار فالثقة من أَهم العوامل الرئيسية التي توطد أَواصر الولاء والإخلاص بين الحاكم ومواطنيه ، يحدثنا التاريخ عن حاكم من حكام العهود الماضية وصل إليه تقرير يقول : إن طبيبك الخاص سوف يقدم لك في يوم كذا وساعة كذا دواء ممزوجاً بالسم القاتل . فما كان من ثقة ذلك الحاكم بنفسه وبرجال شعبه الذين منهم طبيبه إلا أَن احتفظ بالتقرير إلى أَن جاء إليه الطبيب في الوقت المعين وفي نفس الساعة التي ورد تحديدها في التقرير ، وحينما أَخذ الطبيب مكانه عند الحاكم قدم

له الدواء فتناوله الحاكم باحدى يديه وشربه ، وقدم للطبيب بيده الثانية التقرير .

هذه القصة تعبر لنا تعبيراً واضحاً عن ثقة الملك عبدالعزيز بنفسه وبرجال شعبه، بل وثقته بالرجال الذين كانوا أعداءله، وقاتلهم يوماً من الدهر، ثُمَّ باتوا يبادلونه حباً صادقاً وخلاصة القصة المشهورة والمتواترة من الرواة الثقات كما يلي:

في إحدى جلسات عبد العزيز التي يقضيها في مجلسه الخاص ، الذي يضم أحياناً صفوة الشعب من جلسائه ، التفت يميناً وشمالاً ثم ابتسم ابتسامة تعبر عن رضا واطمئنان ، وبعد ابتسامته هذه ، قال لجلسائه في ذلك النادي : لماذا لا تسألوني عن سبب ابتسامتي هذه ؟ وقبل أن يتولى الإجابة على سؤاله أي شخص ممن في النادي أجاب هو على سؤاله فقال : إن سبب ابتسامتي هو أنني عندما مددت بصري ونظرت إليكم واحداً واحداً وجدتكم جميعاً ما منكم الذي لم يقع بيني وبين أهله عداء شديد ، وصل إلى المواجهة بالسلاح ، والقتال العنيف الذي لا هوادة فيه ، ومع ذلك أرى لكم في نفسي منزلة من المودة كمنزلة

الأَبناء البارين والأَشقاء الأَوفياء .

وخذ ما قاله في هذا الصدد السيد جميل مردم رئيس وزراء سورية السابق :

(يمتاز الملك عبد العزيز فوق خصال الشجاعة والكرم والعقل بتبسطه في الحديث وعدم التكلف فيه ، والمؤانسة لزائريه ، وهو في جزيرة العرب ليس ملكاً ، بل رئيس أسرة ومن عجب شأْنه أن هذه الاسرة جمعت خصومه الأَولين، وأَعداءه وأَولياءه في ساحته وكان مما يعجبني – وقد تشرفت بأَن كنت ضيفاً له مرتين – أَن أَرى على مائدته أَو في الصيد معه أَولئك الذين قاتلهم أَو قتل آباءهم من قبل ، يعاملون معاملة الإِخوة والأَبناء)[1].



السيد جميل مردم

(١) « شبه جزيرة العرب في عهد الملك عبد العزيز » للأستاذ خير الدين الزركلي ج – ٢ ص ٧٣٨ .

نموذج من الأسلوب الكريم
الذي ملك به عبد العزيز قلوب أعدائه

حدثني شخص ـ توفاه الله ـ ولو كان على قيد الحياة لذكرت اسمه ، علماً بأن حديثه الذي أسمعني إياه ذكرته عند أكثر من واحد من أصدقائه . فأكدوا أنهم سمعوه منه على الصورة التي حدثني بها على الوجه الآتي :

يقول محدثي إنه في الحين الذي كان الملك عبد العزيز في مكة يؤدي مناسك الحج وكان ولي عهده الأمير سعود في مدينة الرياض ، في تلك الأيام اتهم محدثي بتهمة شملته هو وفئة يقال إنهم شاركوه في تلك التهمة ، إلا أنهم دون منزلته شعبية ووجاهة اجتماعية ، وتلك التهمة وإن كان وزنها خفيفاً ، ولا يعاقب فاعلها في أي بلد من البلاد التي لا تقام فيها حدود الشريعة الإسلامية ، بل

ليس لها الأهمية الاجتماعية التي تسيء إلى سمعة ومنزلة فاعليها في البلاد التي يقال لها (بلاد الحضارة) إلا أنها تهمة يستحق صاحبها العقاب والخزي معاً في المملكة .

ولما كان وجود هذه التهمة في بلاد تحكم بشريعة الإسلام كافياً بأن يوضع من يتهم بها في غياهب السجن ، فقد بادر الأمير سعود على الفور فأمر بإدخال المتهمين جميعاً سجن (المصمك) سجن الرياض القديم ـ إلا محدثي الذي لا يستطيع الأمير سعود أن يسجنه ما لم يأخذ موافقة والده ، الأمر الذي جعله يبلغ والده الأمر ، وكان جواب الملك عبد العزيز بأن لا يتخذ سعود أي إجراء يسيء إلى ذلك الشخص .

ظل صاحبنا موفور الكرامة ، كما كان من قبل إلى أن عاد الملك إلى الرياض ، وقد مضت عدة أيام لم ير صاحب التهمة أدنى إشارة توحي أو تدل على أي تبدل أو تغير من الملك ، فكل محادثاته لصاحبنا ومجاملاته له بل ومداعباته التي كان يداعبه بها أحياناً ، كل ذلك ظل على ما كان عليه .

وبعد أَن أَمن هذا وزال ما في نفسه من خشيته اللوم أَو العتاب اللذين يخشى مواجهتهما من الملك، بعد ذلك هيأ الملك الاجتماع بصاحبنا على إنفراد ، وفي ذلك الاجتماع بدأ الملك يلاطفه بالحديث الرقيق الوديع ، تمهيداً لما بعد ذلك من الكلمات التي لا تصدر إلا من الوالد الرقيق العاطفة ، أَو من الرجل الذي طبعت القيم الانسانية والشيم العربية والتعاليم الإسلامية بدمه ولحمه ، تلك الكلمات التي أَنقلها عن الراوي بكل صدق وأَمانة ، كما رواها هو عن عبد العزيز ، يؤكد صاحب الرواية ان الملك عبد العزيز قال له : (يا ابني (فلان) نحن وأَنتم من رؤوس العرب ، وشرفكم شرف لنا وللعرب ، وعيبكم عيب علينا وعلى العرب يا ابني سمعت عنك ـ قال البطل هذه الكلمة ثم وقف عن التعبير على حد ما نقله الراوي وقف خجلاً وحياء من أَن يعبر عن ذلك الفعل الذي اتهم به الراوي ـ ثم أَراد التعبير محاولاً أَن ينطق مرة ثانية ولكنه وقف أَيضاً ، فكان التعبير دمعاً ينهمر من مقلتيه . وعلينا أَن ندرك أَن دمع عظيم وشهم كعبد العزيز يستحيل

أن يفيض من عينيه إلا في موقف شهامة ونخوة أو غيرة تهيمن على كيانه ، أو ما شابه ذلك .

وهكذا وقف لسان العبقري عن مواصلة الحديث ، وانهمرت عيناه تسكب الدمع ، وخرج راوي القصة من عنده وهو ينثر الدمع مدراراً ، متأثراً بهذا الموقف الكريم من ذلك البطل الشهم العظيم .

كلما أذكر هذه الحادثة أقول بيني وبين نفسي - :

أبعد البون بين أخلاق وشيم موحد جزيرة العرب الذي وقف هذا الموقف النبيل تجاه رجل كان يوماً من الأيام عدوًّا لدوداً له ، هو وآباؤه وأجداده وقبيلته ، وبين أخلاق بعض الحكام العرب الذين ينصبون الفخاخ ليصطادوا بها اصدقاءهم وزملاءهم ورفاقهم في المصير ، ويحرصون كل الحرص بأن يحصوا عليهم عثراتهم . بل اكثر من ذلك يضعون أمام أصدقائهم جميع الوسائل من المغريات الجنسية وغير الجنسية حتى إذا وقعوا في فخهم الذي نصبوه لهم ، بتسجيلهم عليهم أعمالهم ومحادثاتهم (وعربدتهم) عند ذلك ذهبوا يهددونهم بنشر هذه العورات فيجعلون منهم عبيداً أذلاء لهم ، طول ما هم يتربعون على أريكة السلطة .

عندما ملك عبد العزيز قلوب خصومه منحهم الحرية المطلقة

ويسرني أن أختم هذا الفصل بما هو آت :

عندما استولى عبد العزيز على آل رشيد ، سلك معهم سبيلين : سبيلاً عاملهم فيه معاملة الأُخوة والأُبوة وكل ما تشير إليه معاني الحفاوة والإكرام والعطف .

وقد ظل عبد العزيز سائراً على هذا السبيل إلى أن لقي ربه .

وأما السبيل الثاني - الذي هو سبيل الحذر والحزم - فإنه سلكه فترة من الوقت ، ثم بدأ يتخلى عنه تدريجياً حتى تركه نهائياً .

فما هو تعريف السبيل الثاني ؟ ... ومتى ولماذا تخلى

عنه ؟ ... الجواب على هذين السؤالين كما يلي : الأول ـ أنه بعد أن استولى عبد العزيز على إمارة آل رشيد ـ وفي الفترة الأولى التي كانت رواسب الماضي لا زالت عالقة بالأذهان ، وليس من السهولة بمكان أن تزول تلك الرواسب بين عشية وضحاها ، ففي تلك الفترة القريبة العهد من فتح بلادهم وضع عبد العزيز رقابة على الأمير محمد بن طلال والأمير عبد الله المتعب ، وهي على الأول أكثر دقة ، على اعتبار أن هذا أخذ قَهْراً ، خلاف عبد الله الذي جاء إلى عبد العزيز راضياً منقاداً ـ ـ كما مر بنا ذكره .

وأما الجواب على سؤال متى تخلى عبد العزيز عن رقابته على هذين الأميرين ؟ ـ فهو أنني لا أستطيع أن أحدد تاريخ ذلك ، وذلك أنني كنت خارج المملكة في ذلك الوقت ، وإنما أستطيع أن أؤكد أنه تخلى عن رقابتهما وتركهما يتصرفان بكل حرية وانطلاق ـ منذ عام (السَّبَلة) اي عام ١٣٤٧ ـ وأوضح دليل على ذلك أن عبد العزيز ترك أمراء آل رشيد يحاربون (الإخوان) المتمردين عليه ، تركهم واثقاً بهم كثقته بأبنائه وقد أبلوا بلاء حسناً في تلك المعركة .

والذي تجدر الإشارة إليه أن هناك ـ على ما نُمِيَ إلي من جاء إلى عبد العزيز يقول له : كيف تترك آل رشيد وتمنحهم السلاح ليحاربوا بجانبك في هذه الفترة التي فيهاأصبح قسم كبير من قبائل نجد متمردين عليك ؟ ! . فما كان جواب عبد العزيز لناصحيه إلا أن قال : عندما كنت في شكٍّ منهم ومن محمد بن طلال بالذات ، كنت مستعملاً أقصى ما يمكن أن أفعله من الحذر والحزم إلى درجة أني أعرف عنه كل حركاته وسكناته ، وحتى أنواع طعامه الذي يتناوله في منزله ، كنت أعرفه ، ولم أتركه يحارب بجانب أبنائي وإخوتي إلا بعد أن وثقت أنه هو وجميع أسرته بات لديهم من الإخلاص لي الشيء الذي لا يختلف عن إخلاص أَي واحد من أبنائي وإخواني وبقية اسرتي .

فكأنَّ عبد العزيز يقول للائميه : بعد أن أصبحت قلوب آل رشيد طوع بناني فلتذهب أجسامهم إلى حيث تريد .

وبعد فإذا كنت أوردت في كتابي هذا « من شيم عبد العزيز » القسم الوافر عن مثله وشيمه التي يستولي بها

على أعدائه بصورة عامة . وعلى آل رشيد بنوع خاص فإن السبب إلى ذلك يعود إلى أمرين : الأمر الأول يعود إلى ما ذكرته في المقدمة وهو أن مما لا شك فيه أن آل رشيد هم في حروبهم لعبد العزيز كانوا أشدّ وأشرس وأثقل وزناً من كل الذين اصطدم بهم عبد العزيز . الأمر الثاني يعود إلى أن صلتي المباشرة بهؤلاء كانت أقوى ، وأرسخ من صلتي بأيٍّ حاكم من الحكام الذين وقعت حرب بينهم وبين عبد العزيز ، كالأشراف مثلاً الذين لم يكن بيني وبين أحد منهم صلة بل ولا معرفة ، وربما لو أتيحت للملك حسين ولأبنائه الفرصة التي أتيحت لآل رشيد في ملازمتهم لعبد العزيز لَوُجِدَ لديهم من الولاء والوفاء لعبـــد العزيز الشيء الذي لا يقل عن وفاء وإخلاص آل رشيد له لأنني واثق كل الثقة بأن عبد العزيز سوف يعامل الملك حسيناً معاملة الابن البار لوالده ، كما يعامل أبناءه كمعاملته لإخوانه الأوفياء .

ولو تم ذلك لتوفرت لديَّ مادة دسمة « من شيم عبد العزيز » التي يشهد بها له الأشراف كشهادة آل رشيد .



الملك علي بن الحسين

والجدير بالذكر هو أننا نجد من الملك علي بن الحسين ومن شقيقه الملك فيصل شهادة بحق عبد العزيز مؤيدة ومثبتة لما المحت إليه من شهادة آل الرشيد. فخذأولاً شهادة الملك علي بن الحسين .

يقول الملك علي [1] :

(إن عبد العزيز ، هو خير من يستطيع أن يحكم الجزيرة العربية) .

أما الملك فيصل بن الحسين فإنه عندما خرج من دمشق سنة ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) دار الحديث في حيفا بينه وبين الدكتور عبد الرحمن شهبندر وجميل مردم وسيدة إنكليزية فقال الملك فيصل [2] : (أنا ذاهب الآن إلى لندن

---

(١) و (٢) و « شبه الجزيرة في عهد عبد العزيز » تأليف خير الدين الزركلي ج ٢ ص ٧٣٦ .

فإذا نجحت في مهمتي واستطعت أَن اعيد للسوريين استقلالهم ، فَبِهَا وإلا فليس أَمامنا جميعاً غير ابن سعود ، فهو الوحيد الذي ينتظر منه توحيد البلاد العربية وتوطيد استقلالها) .

وإليك أَيضاً ما شهد به أَمير الكويت السابق أحمد الجابر الصباح . (من نعم الله على الجزيرة ، أَن يحكم فيها ملك عظيم الشأْن ، كالملك عبد العزيز عرفت جلالته وصحبته من خمسة وثلاثين عاماً ، قبل أَن يلي الحكم ، وبعد أَن وليه ، فما غرَّه الحكم ولا فتنه التاج والسلطان . وما برح الفارس الشجاع ، والقاضي العادل ، والسياسي المحنك[1]) .

---

(١) « شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز » ص ٦

الفصل السادس

عن وفاء عبد العزيز بالعهد وعدم رغبته في الحرب

هناك حقيقتان متجسدتان في شخصية الملك عبد العزيز ، هما وفاؤه بالعهد ، وعدم رغبته في الحرب من أجل الحرب والتوسع.

فإذا كانت الأولى ظاهرة محسوسة بأخلاق عبد العزيز وشيمه ، لا ينكرها إلا جاهل أو متجاهل ، فإنني حينما أعرض طرفاً موجزاً منها ، فإنما أردت أن أوضح للأول ما يجهله وأسلط الأضواء على الثاني حتى أتركه مبهوتاً .

أما الحقيقة الثانية ـ التي هي عدم رغبة عبد العزيز بالحرب من أجل الحرب ، وان كان كثير من المؤرخين أشار إليها إشارة عابرة ، إلا أنها تظل دون الأولى وضوحاً ، نظراً لغموض الأسباب ، وتواري الدوافع التي في كثير من الأحيان تضع عبد العزيز في موضع اضطراري لا يسعه إلا العمل لتنفيذ الحكمة التي سجلها الشاعر العربي بقوله :

إذا لم يكن إلا الأَسنَّة مركبـــاً

فما حيلة المضطر إلا ركوبهـــــا

وعدم وضوح رؤية السر الذي أرغم عبد العزيز على خوض معارك حربية لا حصر لها ، يجعل القاريء لا يقتنع بكل سهولة ، بحجة من يقول : إن الحرب في نظر عبد العزيز لم تكن غاية في حد ذاتها ، ولن يقنع قطعيّاً ما لم يشاهد البراهين النيِّرة ، ويحس الأَدلة القاطعة ويلمس الحجج الدامغة التي تدعم هذه الحقيقة ، بالاستناد إلى الأَحداث التاريخية التي فيها من الأَدلة الثابتة ما يزيح ذلك الغموض ، ليحل مكانه شواهد لا يرقى الشك إلى صحتها بفضل وجود الجيل الذي يذكر جيداً الوقائع التي تعتبر أَهمّ وثيقة تاريخية ، وهي وقائع ينبغي أَن يعرفها الجيل المعاصر ، والأَجيال القادمة معاً .

والحديث عن هذه الحقيقة الأَخيرة سوف أَورده بعد ما أَنتهي من ذكر الحقيقة الأُولى التي هي وفاء عبد العزيز بالعهد ، مع العلم أَن في أحداث كل من الأُولى والأَخيرة ما يؤيد بعضها بعضاً .

فالحديث عن الأُولى يأْتي كما يلي :

أُتيحت للإمام عبد العزيز فرصةٌ كان في إمكانه أَن يحتل عاصمة إمارة آبن رشيد بكل سهولة وبدون أَن يبذل أَي مجهود حربي ، لولا التزامه وتقيده بالعهد .

وفي إمكانه أَن يأْتي بأَلف مبرر ومبرر لكي يلغي العهد الذي بينه وبين سعود بن رشيد ، ولكن عبد العزيز لم يفعل ذلك لا وفاء بالعهد فحسب ، بل وتَقَيُّداً بالشيم العربية التي جعلته يربأُ بنفسه أَن يأْتي عدوه من الخلف وعلى وضع لم يكن للعدوّ مجال يدافع فيه عن نفسه .

متى كان ذلك ؟ ... وبأَية مناسبة ؟ ... كان ذلك في عام ١٣٣٨ هـ ، أَما المناسبة فهي عندما غزا الأَمير سعود بن رشيد (الجوف) تلك الغزوة التي أَصدق ما يقال عنها أَنها (إنتحارية) إلا أَن النصر كان حليفاً للأَمير الغازي ، كما كان الحظ دائماً وفي أَكثر المناسبات ـ يخدم ذلك الأَمير الشاب وخاصة في غزوته تلك التي غامر فيها بإمارته وذهب

غازياً للجوف الذي كان تحت نفوذ الشيخ نوّاف بن شعلان .

جاء الأمير الشاب سعود بن رشيد غازياً الجوف وذلك تلبية لنخوة (رجا بن مويشير) أحد زعماء مدينة الجوف الذي قام بمغامرة (انتحارية) وقتل عامر المشورب نائب الشيخ نواف بن شعلان بسبب يبعد بنا شرحه وتفصيله عن جوهر البحث الذي نحن بصدده .

الشاهد أن ابن مويشير لما قتل ذلك الرجل بعث أخاه حمداً يستنجد بابن رشيد لينقذه من عقاب حاكم الجوف الشيخ نواف بن شعلان الذي كان هو وقبيلته في الصحراء المتاخمة للأراضي السورية ، إلا أنه جاء فوراً من صحرائه هو وفرسان قبيلته ، وطوقوا رجا بن مويشير قاتل نائبه .

وهكذا جاء سعود بن رشيد منجداً ابن مويشير المطوق ، جاء غازياً برجال مدينة حائل ممتطين ثلاثمائة راحلة فقط ، كما وصفهم الشاعر العوني [1] بقصيدته الرائية البالغة ستة

---

(١) كان الشاعر محمد العوني في جانب الامام عبد العزيز ثم عاد إلى جانب ابن

وخمسين بيتاً .

ولما كانت تلك القصيدة المرجع التاريخي الوحيد فإنه ليطيب لي أن أورد منها خمسة أبيات ، أوضح فيها الشاعر عدد القوم الذين جاء بهم ابن رشيد نجدة لابن مُوَيْشير ، فقال :

جِينا ثلاثماية ذلولٍ نِحِثِّهِنْ
نبغي نْعَدِّلْ مايْلٍ ويْسَارْ

يعني الشاعر أن قوم ابن رشيد جاؤوا ممتطين ثلاث مائة ذلول ، فإذا بالغنا في عددهم قلنا إنهم ستمائة على اعتبار أن كل واحد له ، رديف ، ويلي هذا البيت الأبيات الأربعة الآتية :

لَمَّا وردنا (الْحِزْل)[1] جتْنا ركايِبْ
يقولون : كلٍّ اللِّي يُقَال بَـوارْ
يقولون (ابن شعلان) بالجوف نازِلْ
ومنْ هُو لكم قَبْلٍ صديـقٍ بَـارْ

= رشيد والحديث عن العوني مبسوط في كتاب مستقل ألفته بعنوان « تاريخ جيل وحياة رجل » .

(١) الحزل : بئر تقع بين حائل والجوف .



الأمير سعود بن عبدالعزيز بن رشيد

وابن (مُوَيْشِير) تبيَّنَ بفعلـــه

وقامت عليه الدِّيرتيـــنْ وْحـــارْ

وينخاك يا زَيْن الرّفيـــق ودُوْنـــه

نارٍ يشطـــر عن حْماهـــا نَــــارْ

من معاني هذه الأَبيات وخاصة البيت الأَخير يبدو الأَمر واضحاً أَن ابن رشيد وضع نفسه في مأْزق حرج ، كاد أَن يكون لقمة سائغة يبتلعه ابن شعلان بدون عناء لولا قضاء الله وقدره .

وهكذا دخل ابن رشيد برجاله المحدودي العدد مدينة الجوف ، وجاء ابن شعلان برجال قبيلته الرُّوَلة البواسل ، وضرب عليه حصاراً طوقه في بلدة (سكاكا) التي قسم منها محاصر فيه ابن رشيد والقسم الأَكبر من رجال تلك البلاد بجانب ابن شعلان .

رفض عبد العزيز أن ينقض عهده ويأتي عدوه من الخلف

أراد الانتهازيون الموجودون في كل زمان ومكان أن يؤثروا على الإمام عبد العزيز ليلتمس العذر الذي يبرر به نقض معاهدات الصلح المعقودة بينه وبين سعود بن رشيد ولكنه كان أشرف نفساً وأسمى خُلُقاً ، وأعلى همة وأوفى عهداً ، وأبعد نظراً في إدراكه للمسؤولية التاريخية من أن يركن إلى رأي أولئك الانتهازيين ، حيث كان جوابه لهم على ما نقله الرواة الثقات ما يلي :

اولاً - إن بيني وبين ابن رشيد عهد الله وميثاقه ؛ ولا يمكن أن أتخلى عن عهد الله الذي وضعته في عنقي إلا بعذر يقبله العقل والدين والخلق . وتطمئن إليه نفسي .

ثانياً - حتى لو لم يكن بيني وبين ابن رشيد عهد

فإن ديني وخُلُقي وشيمتي لا تقبل أن أغزو بلداً لم يكن فيها إلا الأطفال والنساء .

وهكذا امتنع عبد العزيز من أن يستجيب لرأي الانتهازيين ، ولو استجاب لرأيهم لكان في إمكانه بكل سهولة أن يستولي على حائل قبل استيلائه عليها بسنتين ، وذلك باتخاذه تدبير أمْرٍ يجعل ابن رشيد يقع بين فكي الكماشة ، ومهما حاول أن يقاتل هو ورجاله الشجعان فإن النهاية إما الإبادة ، وإما الاستسلام بدون قيد ولا شرط ، وخلاصة هذه التدابير كما يلي :

لا يعدو الأمر في أن يبعث الإمام عبد العزيز من قبله رسولين ، واحداً للشيخ نواف بن شعلان . وآخر الأمير سعود بن رشيد نفسه ، فالرسول الذي لابن رشيد يحمل رسالة تتضمن إخباره بأنه أنهى من قبله عقد الصلح المبرم بينهما ، وإذا أراد عبد العزيز أن يلتمس عذراً يبرر له ذلك فسيجد الأعذار متوفرة ، وواحد منها يبرر له إعلان الحرب ، وإن أراد أن يلغي معاهدات الصلح من جانبه بدون أن يكلف نفسه جهداً بالتماس العذر فبإمكانه أن

يفعل ومن الذي يحاسبه .

أَما الرسالة التي للشيخ ابن شعلان فمضمونها يؤكد على ابن شعلان بأَن يشدد الحصار على ابن رشيد ، وأَنه هو بدوره متجه إلى إحتلال حائل عاصمة الرشيد ، وبعد احتلالها وحمل أُسرة آل رشيد بكاملها ، بعد ذلك يؤكد لابن شعلان أَنه في طريقه إليه ، ليطوق معه إبن رشيد حتى يستسلم مرغماً ، ويحمله أَسيراً مع بقية أَسرته .

هذا الأَمر هو الذي سيتم فيما لو كان عبد العزيز انتهازياً أَو (مكيفيلياً) من نوع الرجال الذين يرون أَن الغاية تبرر الوسيلة ، أَولئك النوع من أَشباه الرجال ، ممن لا يلتزمون بالوعد ، ولا يفون بالعهد ، ولا يردعهم خلقٌ ولا مُثُلٌ ولا دين من أَن يسعوا للوصول إلى تحقيق مآربهم بشتى الوسائل ومختلف الأَسباب .

لم تكن الحرب عند عبد العزيز غاية في حد ذاتها

أَما وقد ذكرت أُنموذجاً من الحقيقة الأُولى الخاصة بوفاء عبد العزيز بعهده فلا بُدَّ بعد ذلك من أَن أُورد الحقيقة الثانية التي تعني أَن عبد العزيز لم تكن الحرب عنده غاية في حد ذاتها بل إن كل من تعمق في دراسة حياة عبد العزيز يجد أَنه يحرص كل الحرص على أن يتحاشى الحرب ، ويبتعد ما إستطاع عن الاقتتال ، ويبذل مختلف الوسائل وأَهم الأَسباب التي يحقق بها أَهدافه عن طريق السلم ، حتى إذا تعذرت الأَسباب ، وأُغلقت أَبواب السلم بوجهه ، وأَصبح لم يكن أَمامه إلا أَحد الأَمرين الآتيين : (١) إماأَن يترك بلاده مسرحاً للحروب الأَهلية ، ومرتعاً خصباً لافتراس القوي للضعيف ، ووكراً للقرصنة والنهب والسلب ، ومناخاً رحباً للتفرقة ، بصورة كان بها

كل أَمير مقاطعة محدودة المساحة ـ يشكل حكومة وسط حكومة ، بل كل أَمير قبيلة ، أَو رئيس عشيرة يقوم مقام الدولة ، بحيث لا يستطيع المرء أَن يتجاوز أَقرب حدود بِلاده ، ما لم يكن عرضة لقطاع الطرق ، لا لنهب ماله وأَسلابه ، وحتى ما يستر به عورته ، بل كان المرء عرضة لإِزهاق روحه وتيتيم أَطفاله وترميل نسائه ، هذا إِذا كان حضريًّا ، أَما إِذا كان بدويًّا فإِنه لا يستطيع أَن يتجاوز حدود منازل قبيلته ، ما لم يكن عرضة لأَعداء قبيلته للمصير نفسه الذي يلاقيه أَخوه الحضريُّ .

أَقول : إما أَن يقبل عبد العزيز السلام على الحياة التي يعيشها قومه حضراً وبدواً تلك الحياة التي كان القويُّ يفترس فيها الضعيف .

(٢) وإما أَن ينتضي سيفه لا محارباً من أَجل الحرب والتوسع ، ولا مقاتلاً حُبًّا للقتل ، من أَجل الفوز بالغنيمة وللنهب والكسب ، وإنما هو يحارب من أَجل السلم الدائم ويقاتل من أَجل الحياة الشريفة ويناضل من أَجل توطيد أَمن بلاده المزعزع .

لو قَبِلَ ابن رشيد شروطَ السِّلمْ
لظلَّ أميراً في بلادِهِ

أَي قارىء درس تاريخ بلادنا ، وبلغت دراسته معرفة ما عانته البلاد في السنين المنصرمة من حروب أَهلية ، دارت رحاها في (نجد) بين الإمام عبد العزيز وبين أُمراء حائل آل رشيد أَي قارىء يعرف هذه الحقيقة سيحكم للوهلة الأُولى أَنه من المستحيل قطعاً أَن يتم السلم ويتوطد الأَمان وتحقن دماء الناس ، وتسلم أَموالهم ويعيشوا في أَمان واطمئنان ، ما دامت قوة هذين الحاكمين متكافئة ، ما لم ترجح كفة أَحدهما على الآخر ، وفي رجحان قوة أَحدهما ستكون النتيجة الحتمية التي لا مناص منها أَحد أَمرين :

إما سلمٌ دائم وأَمان مستمر ، يملي القويُّ شروط هذا السلم على من هو دونه ، فإذا رفض هذا قبول الشروط

أجهز القويُّ عليه وأنهى سيادته حتى تتم له السيطرة الكاملة التي يوطد فيها ومن خلالها الأَمن في أَرجاء بلادنا الشاسعة المساحة والفسيحة الأَطراف ، كما فعل عبد العزيز في نهاية الأَمر عندما وحَّد البلاد ، ووطد الأَمن فيها وطيداً راسخ الجذور إلى الأَبد ـ بعون الله ومشيئته .

وإما انتفاضات المغلوبين على غالبهم بين فترة وأَخرى مما يعني استمرار الحرب ، وهذا ما لم يتم كما ذكرنا .

* * *

اضطر عبد العزيز إلى الحرب
حين رفض ابن رشيد شروط السلم

كانت هناك معاهدة صلح أُبرمت بين الأَمير سعود بن رشيد وبين الإمام عبد العزيز بن سعود ، وتقضي معاهدة الصلح هذه أَن يكون من قرية (الكهفة) شرقاً وجنوباً للإمام عبد العزيز ، ومنها غرباً وشمالاً للأَمير سعود بن رشيد ، كانت هذه المعاهدة سارية المفعول إلى أَن قُتِل أَميرُ حائل سعودُ بن رشيد ، وعندئذ استلزم الأَمر أَن تتجدد معاهدات الصلح . وفقاً للعرف المتبع بين حكام البلاد ، وهذا العرف يقتضي أَنه إذا مات أَحد الحاكمين اللذين أُبرمت معاهدات الصلح بينهما يكون الصلح الأَول باطلاً وملغى وفقاً للمثل الشعبي القائل : (شيخ مات وعهد فات) معناه أَنه بعد وفاة أَحد الحاكمين المتعاهدين ، تبطل المعاهدة الأُولى ويؤتى بعد ذلك بمعاهدة صلح جديدة ،

توضع حسب قوة وضعف أحد الجانبين وتكافئهما ؟ فإن كانا متكافئين جددت الشروط على النهج الذي كانت عليه من قبل .

أما إذا كانت ثمة كفة راجحة على الأُخرى ، فإن الحاكم الذي يشعر برجحان كفته هو الذي يملي شروطاً أثقل وزناً من الشروط السابقة ، وأكثر فائدة له من الأُولى .

ولما كانت كفة الإمام عبد العزيز راجحة رجحاناً واضحاً على خصمه ابن رشيد الذي باتت زعامته (على كَفِّ عفريت) من جميع النواحي ، سواء بالنسبة للسياسة الخارجية التي كانت تعتمد على السلطنة التركية التي انقرض عهدها بعد الحرب العالمية الأُولى ، أَو بالنسبة إلى وضع البلاد الداخلي الذي وصل من التفكك والانهيار درجة بات حكم الإمارة فيها يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ومعاول الهدم تجتث جذور تلك الإمارة والبؤس ينخر في كيانها من القاعدة إلى القمة . والسيف يلعب دوره الخطير في ضرب أَعناق أَفراد الأَسرة وفقاً لقول الشاعر :



الأمير سعود بن رشيد ، وفخري باشا وعبدالله بن طلال بن رشيد
قاتل الأمير سعود ، ودرعان قاتل عبدالله بن طلال

الحمد لله حمداً لا نفـاد لـه

إذ لم يكن صفعنا إلا بأيدنـا

ومما زاد تلك الإمارة ضعفاً أن رجال الأسرة قسم منهم انحاز إلى الإمام عبد العزيز وذهب يقاتل رجال قبيلته ، وقسم آخر ذهب إلى العراق وترك البلاد ومن عليها .

مضافاً إلى ذلك أن أسرة آل رشيد في تلك الفترة بالذات قُتل من فتيانها شابّان الأول أمير البلاد سعود ، والثاني ابن عمه عبد الله الطلال الذي قتل الأمير وقتل هو في حينه على يد حراس الأمير المقتول ، والثالث محمد الطلال شقيق عبد الله القاتل الذي أُودع في غياهب السجن ، واما الأمير عبد الله المتعب الذي جلس على أريكة الحكم فإنه صبي لم يبلغ سن الرشد بعد ، كل هذه العوامل من شأنها أن تضعف إمارة ابن رشيد بقدر ما تقوي عبد العزيز بن سعود بصورة جعلته يملي شروطه الآتية :

اولاً ــ أن لا يكون لابن رشيد أي نفوذ خارج بلاده بصورة يغزو بها القبائل التي لا تذعن لطاعته كما كان يفعل من قبل .

ثانياً ـ أن لا يكون له أدنى صلة بأية دولة أجنبية .

ثالثاً ـ أن يسلم ابن رشيد ـ ما يسمى (شوكة الحرب) أي جميع الأسلحة والذخيرة التي في بلاده والتي يحملها رجاله ، مقابل ذلك أن يظل الأمير في بلاده مستقلاً استقلالاً داخلياً محصوراً في بلاده فقط .

ماذا كان جواب ابن رشيد ؟ ... الجواب هو ما أنقله عن الشيخ عبد العزيز بن زيد الذي كان في ذلك العهد في مقدمة الرجال أصحاب الحل والعقد في إمارة الرشيد ، أنقل عنه الرواية الآتية : كنت وخدام الفائز [1] ممن يرى أن لا محيص لنا في الوقت الحاضر من قبول الشروط التي يطلبها ابن سعود ، وذلك أننا قدرنا وطأة ما تعانيه إمارتنا من تفكك وضعف من شتى النواحي الداخلية والخارجية . فمن حيث الوضع الداخلي وجدنا أنفسنا في حالة سيئة ، فأميرنا صبي دون سن الرشد ، وقبيلتنا شَمَّر انقسمت إلى قسمين : القسم الأول تبنى عقيدة الإخوان وهجرنا معتقداً كفرنا ، ومؤمناً بأن قتالنا شرعاً ينال به

(١) خدام من أبرز رجال أهل حائل في ذلك العهد .

ثواب من الله ، كما ينال غضب الله وعقابه إذا لم يجاهدنا .
وأما القسم الثاني فإنه عندما وجد نفسه مهدداً بلهيب ثورة (الإخوان) العارمة خشي على نفسه من أن تلتهمه نيران تلك الثورة المتأججة . فذهب هارباً إلى جزيرة الفرات في العراق واضعاً بيننا وبينه (نهر الفرات) والشيء الذي أسوأ من هذا وذاك أن صفاء القلوب بين ساكني حايل أنفسهم لم يكن كما كان عليه قبل مقتل سعود بن رشيد ، هذا ما كانت عليه الإمارة من حيث وضعها الداخلي . أما من حيث سياستها الخارجية فهي أيضاً في حالة لا تحسد عليها ، فالدولة العثمانية التي كانت حليفة لها هزمت في الحرب العالمية الأولى ؛ ولم يكن لها أية صلة بدولة أخرى ، ويمضي ابن زيد في حديثه فيقول : ونظراً لسوء وضع إمارتنا الداخلي والخارجي فقد رأينا ـ خدام الفائز وأنا ـ أن نذعن لطلب ابن سعود إلى أن تتاح لنا الفرصة المناسبة ، وعندها نستطيع أن نرسل لابن سعود رسولاً يبلغه بطلب معاهدة أفضل ، وذلك عندما نشعر بقوتنا . ويسترسل ابن زيد في حديثه قائلاً : لما كان الأمير عبد الله المتعب

صغيراً . ولا مجال للبحث معه في هذا الشأن ، فقد حاولنا أن نقنع بصحة رأينا هذا المحيطين بالأمير . وقد استطعنا إقناع بعضهم ، ولكن البعض الآخر لم نستطع إقناعه وكان اللذان يتبنيان معارضتنا الشيخ عقاب بن عجل ، وكاتب الأمير الخاص حمد أَبو عُرْف .

وقد نقلت عن ابن زيد قوله : إن من بين الحجج التي حاولنا أَن نقنع بها معارضينا أَن قلنا لهم : علينا أَن نقبل شروط ابن سعود ، على أَن يكون هذا القبول مؤقتّاً إلى أَن يكبر أَميرنا الطفل ، ونعرف مدى قدرته على إدارة الحكم ، هذا من الناحية الداخلية ، وأَما من الناحية الخارجية فإنه في إمكان الأَمير أَن يبعثني إلى الخارج أَو يبعث غيري بحجة أَن المبعوث مُبْعَدٌ عن البلاد من قبل الأَمير ، وهذا المبعوث يذهب باسم الأَمير ليتصل بأَية دولة أَجنبية نوطد صلاتنا معها ، ويمضي ابن زيد فيقول : إننا جلسنا في قهوة آل سبهان ـ أَي نادي الضيافة ـ جلسنا خدام الفائز وأَنا من ناحية ـ وحمد أَبو عرف من ناحية ثانية ، وقد امتدت جلستنا من أَول النهار حتى آخره

محاولين أَن نقنع أَبا عُرْف ، وبالتالي تظاهر لنا بأَنه قانع بصواب رأينا ، بينما هو في الحقيقة لم يقنع ، إذ ذهب إلى عقاب بن عجل شريكه في الرأْي المعارض لرأْينا فأَلَّبَهُ علينا ، وكنت وخدام على غير علم بما جرى بالخفاء بين أَبي عرف وبين عقاب بن عجل . فذهبت ووضعت مسودة المعاهدة التي ينبغي أَن تكون بيننا وبين ابن سعو د وفيها قبول الشروط التي طلب ابن سعود أَن لا يتم السلم إلا بموجبها ، وقدمت تلك المسودة إلى مقام الإِمارة وكانت النتيجة أَنه مجرد ما رآى عقاب بن عجل تلك المسودة المشيرة إلى قبول شروط ابن سعود صاح وهاج وقال : (يجب على الأَمير أَن يقطع يد من كتب هذه المسودة) . هذا وقد إنتهت رواية ابن زيد عند هذا الحد . والشيء الذي تهمنا الإِشارة إليه هو أَن ابن رشيد - أَو بالأَصح عقاب بن عجل وحمد أَبو عرف - رفضا قبول السلم وفق الشروط التي طلبها ابن سعود ، وهذا يعني قيام الحرب بين ابن سعود وبين ابن رشيد . فكأَنَّ إمارة آل رشيد بعدم موافقتها على هذه الشروط كأَنها بعملها هذا حفرت قبرها بيدها .



الشيخ عبد العزيز بن زيد

هل كان عبد العزيز سيترك آل رشيد في بلادهم لو قبلوا شروطه

هذا السؤال معقول ومنطقي ، والجواب عليه سيكون إيجابياً وسلبياً في آن واحد أي : نعم ولا .

فهو إيجابي : نعم ، سيترك عبد العزيز آل رشيد مستقلين في بلادهم ، وفقاً للشروط السالفة الذكر ، سيتركهم إلى الأبد ، ولكن بشرط واحد هو أن يكون قبولهم لشروطه مبنيا على حسن النية ، بصورة تكون محسوسة وملموسة بأنهم قطعوا آمالهم من أيّ تفكير يعودون به إلى ما كانوا عليه ، فإذا فعل آل رشيد ذلك فإن عبد العزيز سيترك لهم إمارة بلادهم ، كما ترك آل سُلَيْم أمراء مدينة عُنَيزة الذين ظلوا يتوارثون إمارة بلادهم عُنيزة من الأجداد إلى الأحفاد ، سنين بعيدة المدى ، وإلى يومنا هذا .

بل كما ترك عبد العزيز أمير (تَيْماء) عبد الكريم بن رُمّان الذي ظل مستقلاً في بلاده استقلالاً داخلياً كاملاً ليس لأيّ حاكم عليه نفوذ ، لا في عهد حكم آل رشيد الذين تمرد عليهم ، ولا في حكم الملك عبد العزيز الذي فعل ما فعله من تمرد ليكون مستقلاً فترفع عبد العزيز شيمة منه عن عقابه ، تركه مستقلاً في قريته (تيماء) الصغيرة التي لا يتجاوز عدد نفوس أهلها الألفين ، تركه يسرح ويمرح رافلاً في استقلال بلده ، بدون أن يطلب منه عبد العزيز أن يأتي وافداً إلى الرياض كما يأتي غيره من بلدان العالم العربي ، فضلاً عن أمير قرية صغيرة في وسط مملكته . أكثر من ذلك تركه عبد العزيز يتمتع باستقلاله إلى درجة كان بها يأمر جنود عبد العزيز أن يتركوا سلاحهم عند السور المحيط بقريته ، ولا يدخلونها إلا وهم عُزْلٌ من السلاح ، وقد ظل ابن رمان منفرداً في استقلاله في بلاده .

جنوده منه وإليه ، زكاة بلاده له يتصرف فيها كيف يشاء ، يحكم في قرية (تيماء) كما يحكم أي حاكم (دكتاتور) مطلق الصلاحية في شؤون مواطنيه .

تركه عبد العزيز على ما هو عليه إلى أن وافاه أجله .

تركه عن قدرة تمكنه أن يبعث سرية تهدم قريته فوق رأسه ، ولكنه تركه عفة منه وكرهاً للقتل ، ما دام أن ابن رمان لا ضرر للبلاد منه ، ولا محذور منه بأن يخرج من قريته غازياً أو مجيراً لأحد ارتكب جرماً أخلاقياً أو سياسياً من أبناء المملكة العربية السعودية ، أو محاولاً أن يتصل بأية دولة أجنبية أو عربية .

وهكذا نقول نعم ، سيترك عبد العزيز آل رشيد في إمارة بلادهم إذا التزموا بتنفيذ الشروط ، ورضوا أن يسيروا في استقلالهم المحلي الداخلي على صورة الاستقلال الذي سار عليه ابن رمان .

أما إذا قال قائل : بأن أمراء آل رشيد بزعامتهم العريقة وبقوة شكيمتهم ، وكثرة عدد رجالهم البواسل ، ووفرة عدد فرسان قبيلتهم ، يختلفون عن آل سُلَيم وعن ابن رمان اختلافاً بعيداً كبعد مشرق الشمس عن مغربها ، بصورة تجعل بعضاً من رجالهم لا يمكن أن يقبلوا شروط عبد العزيز بأي وجه من الوجوه مفضلين عليها القتال حتى

الإبادة ، كما صرح بذلك أَحد أَهل حائل المدعو (محمد العودي) الذي عندما عرضت شروط الإمام عبد العزيز المشار إليها آنفاً قال العودي بأَعلى صوته : (الموت على عز أَفضل من قبول هذه الشروط) ـ وأَضاف : (إن أَقبح شيء في الحياة الذل بعد العز)(١)).

فإذا كان رأْي العودي هذا هو رأي الأَكثرين من الذين تعصبهم العنصري والإقليمي والقبلي طغى على عقولهم ـ فإن الرجال المعتدلين الذين يركن إلى رأْيهم ، والداعين لقبول شروط عبد العزيز لم يكن قبولهم هذا قبولاً صادراً عن قناعة مصحوبة بحسن النية ، بل إن قبول العقلاء منهم هو من قبيل ما يقال : انحناء للعاصفة ، وإن تظاهروا بقبول شروط عبد العزيز فإن هذا القبول لا يعدو أَن يكون فترة محدودة يستردّون فيها أَنفاسهم ويتربصون فيها الدوائر ، حتى إذا سنحت لهم الفرصة وشعروا من أَنفسهم

---

(١) ومحمد العودي هذا الذي قال تلك الكلمة ـ طبق قوله عملياً ـ حيث قاتل في معركة النيصيّة التي وقعت بين عبد العزيز ومحمد بن طلال أثناء حصار حائل ، قاتل قتال الأبطال ، في تلك المعركة إلى أن قتل هو وولداه الاثنان سلامة وعبد الكريم .

بالقوة ألغوا المعاهدات المبرمة بينهم وبين إبن سعود ، كما هو رأي عبد العزيز بن زيد الذي عبّر لي عنه على الصورة التي ذكرتها قبل قليل .

فإذا كان هذا هو الأمر المحتمل فإن عبد العزيز بن سعود سوف يمضي في سبيله الذي حقق به وحدة البلاد التي ينعم بها المواطنون في جميع أرجاء المملكة .

* * *

حاول عبد العزيز أن يقنع آل رشيد بقبول السلم

بعد أن رفض أمير حائل عبد الله المتعب الرشيد قبول شروط السلم التي عرضها الإمام عبد العزيز ، حاول عبد العزيز مرة أخرى أن يقنعه بقبولها وفقاً للشروط السابقة ، وكانت هذه المحاولة الثانية عن طريق وفد يرأسه (خدام الفائز) الذي ذهب إلى الإمام عبد العزيز موفداً من الأمير عبد الله المتعب بشأن طلب السلم على صورة المعاهدة التي كانت مبرمة بين الإمام عبد العزيز وبين الأمير السابق سعود بن رشيد ، تلك المعاهدة التي أشرت إليها في السياق ، وقد اجتمع بالإمام عبد العزيز في مدينة بريدة ، وكان الاجتماع الأول بحضور عدد من زعماء القبائل الذين التفوا مؤخراً تحت لواء عبد العزيز ، وانصاعوا لقيادته ،



جيش عبد العزيز الشعبي

وذلك بعد أن وجههم التوجيه الروحي ، وجعلهم يهاجرون من الصحراء إلى بناء بيوت من الطين ، في حالة ائتلاف وتضامن بينهم . فشكلوا كتلاً مرهوبة الجانب ، وما من قبيلة من قبائل نجد إلا وسارت على هذا المنوال ، ومن ذلك قسم لا يستهان به من قبيلة شَمَّر الذين هم قبيلة إبن رشيد نفسه .

وبلغ من انقياد هؤلاء ، أَنهم جميعاً لو يأْمرهم عبد العزيز بأَن يلقوا بأَنفسهم في مغامرة مجهول مصيرها لما تأَخر واحد منهم عن أَن ينفذ أَمره ، لا رغبة بالنهب والسلب كما كانوا يفعلون من قبل ، بل ينفذون أَمره بحافز العقيدة الإسلامية ، وبإِيمان منهم بقوله تعالى في القرآن الكريم : (أَطيعوا الله وأَطيعوا الرسول وأُولي الأَمر منكم) .

قلنا : إن الإمام عبد العزيز اجتمع بالوفد بحضور قادة هؤلاء (الإخوان) الذين هجروا البداوة ، وأَصبحوا جيشاً مناضلاً طوع بنان عبد العزيز ، بل أَصبحوا قوة لا تقهر ولم تقهر عندما كانوا متضامنين .

ولما كان عبد العزيز إذا تحدث في أي موضوع يريده ، يؤثر بحديثه على سامعه تأثيراً يملك به قلوب الرجال ببيانه الذي لا يضارعه فيه إلا الأفذاذ ، فقد تحدث مع رئيس الوفد (خدام الفائز) حديثاً أفحم به خداماً حين أقام عليه الحجج الدامغة ، بصورة ما استطاع أن يفند أية حجة أقامها الإمام على الأمير ابن رشيد ، من الحجج التي تتنافى مع ما يؤمن به زعماء البدو الحاضرون ، بل تتنافى مع الشريعة الإسلامية .

مثال على ذلك وجه عبد العزيز إلى (خدام) عدة أسئلة أختصر منها هذا السؤال الذي قاله عبد العزيز : قل لي بالله يا خدام أليس أميركم تاركاً قبيلته شمر تحكم بـ (الطاغوت)[1] الذي كان يحكم به عرب الجاهلية ؟ ! . فلم يسع خداماً إلا الاعتراف بالأمر الواقع ، ثم بعد ذلك تلى عبد العزيز قوله تعالى الآيتين الكريمتين وهما : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ـ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) .

(١) الطاغوت يعني الحكم بالعُرْف المعمول به وفقاً للعادات الموروثة .

فلما قرأ عبد العزيز هاتين الآيتين ببيانه المؤثر ما كان من رؤساء القبائل الحاضرين إلا أن بكوا بكاء خشوع وحماسة في آن واحد ، وبلغت تلك الحالة درجة أرادوا أَن يهجموا على رئيس الوفد ورفاقه ويقطعوهم إِرَباً لولا أَن عبد العزيز نهاهم ، فانصاعوا لأمره سامعين طائعين .

بعد ذلك خرج عبد العزيز من ذلك النادي ، وأَمر رجال الوفد بأَن يخرجوا معه حتى دخل في غرفة خلا بها مع رئيس الوفد وأَعضائه ، هنالك قال لهم : (اتقوا الله في أَنفسكم ، وفي أَبنائكم وإِخوانكم ، اقبلوا السلم كما طلبته منكم ضمن الشروط التي عرضتها عليكم . ولا تضطروني فأُفلت عليكم هؤلاء الرجال ، الذين لولا أَنني قابض لزمامهم لما منعهم مانع من أَن يذهبوا اليكم . ويقتلوا من وقع في أَيديهم دون أَن تأْخذهم رحمة بكم ولا رأْفة) .

هذا ما نصح به عبد العزيز وفد الأَمير إبن رشيد باذلاً كل ما لديه من الجهد ليصل إلى سلم يحول دون الحرب ، مع العلم أَنه واثق في ذلك الوقت أَنه إذا أَعلن الحرب على أَمير حائل ، وأَفسح المجال لِ (الإِخوان) أَي

جنوده الأبطال الذين لو جاؤوا في زمن لم يكن فيه إلا السيف والرمح ـ كما في عهد النبي (ص) لمثلوا بشجاعتهم وفتوحاتهم الدور نفسه الذي قام به أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام .

نعم كان عبد العزيز واثقاً كل الثقة من أن أولئك الرجال عندما يعلن الحرب على ابن رشيد سوف تكون نهاية النصر لهم ، مهما واجهوا من شجاعة رجال حائل الذين قاتلوا قتالاً (انتحارياً) .

ومهما تكافأ أهل حائل بالشجاعة هم وجند عبد العزيز فإن البون شاسع بين من عدد مقاتليهم منحصر في ألف ومئتين وعشرين فقط [1] ـ وبين مقاتلي رجال عبد العزيز الذين يزيدون على اثني عشر ألف مقاتل.

وهكذا كان عبد العزيز واثقاً أن يفتح مدينة حائل عسكريا ، فيما إذا أعلن الحرب ، ولكنه كما سبق أن قلت وأقول : إن الرجل لا يقدم على الحرب، حتى تتعذر عليه جميع وسائل السلم .

---

(١) يقول ابراهيم السالم السبهان : إن حملة السلاح من أهل حائل ١٢٠٠ .

هذا وكان (خدام الفائز) يفهم جيداً أن نهاية إمارة بلاده في حالة إعلان الحرب ، وعدم قبول السلم يفهم أن نهايتها قتل نخبة النخبة من شجعان البلاد ، والاحتلال في آخر الأمر ، ولكن ماذا يفعل خدام أمام شجعان القلوب ومفتولي السواعد الذين شعارهم الجملة التي قالها المرحوم محمد العودي ، وقد تقدمت .

وقد عاد خدام الفائز فاشلاً في مهمته التي بعثه أميره من أجلها كما قوبل بالسخط والسخرية هو وأعضاء الوفد المرافقين له ، قوبل بذلك من قبل أهل البلاد ، لأنه عاد يحمل آراء السلم المرفوضة من قبل الأمير من ذوي الحل والربط في البلاد ، وقد تضاعف السخط والسخرية على خدام ورفاقه أعضاء الوفد ، لأنهم جاؤوا يحملون البسة قشيبة منحهم إياها عبد العزيز ، كما منحهم هبة مالية على العادة التي سار عليها (أبو تركي) مع أي وافد يأتي إليه .

وكانت نهاية رفض أمير حائل قبول شروط السلم أن غزا الإمام البلاد ، واحتلها بعد معارك دامية ، وقتال مرير ذهب على مذبح الدفاع عن البلاد صفوة الصفوة من شجعان حائل ، ولقد كان عبد العزيز حريصاً كل الحرص على تحاشي تلك المذبحة المؤلمة .

حجة تحتاج إلى تنفيذ
ومنطق يفتقر إلى برهان

ربما يقال : ما دام أن الأَمير ابن طلال قبل شروط الإِمام عبد العزيز التي رفضها سلفه الأَميرابن متعب فلماذا لم يوافق الإِمام عبد العزيز على قبول الشروط التي عرضها هو بنفسه قبل ذلك بعام واحد فقط ؟ !

والجواب على هذا يتلخص بما يلي :

اولاً ـ أن الأَمير ابن طلال عندما تولى إمارة البلاد لم يبعث رسولاً من عنده إلى الإِمام عبد العزيز ليفاوضه على أَنه سيقبل الشروط التي رفضها ابن متعب ، بل كان ابن طلال يطمح إلى أَن يعيد إلى إمارة آل رشيد مجدها الذي كان يجترُّه رجالها في عهد أَميرها محمد العبد الله الرشيد ،

ناسياً أَنه هو والذي قبله ابن متعب ، وحتى الأَمير سعود الذي هو أَسعد الإِثنين حظًّا أَنهم كلهم جاؤوا إلى كرسي الإِمارة ، وهي كالمريض المصاب بنوع من الأَمراض القاتلة ، بصورة تدريجية وبطيئة ، يتجرع فيها المصاب سكرات الموت يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر إلى أَن يأْتي الأَجل المحتوم ، وهذه الظاهرة تخفى على الأَمير محمد الطلال اليافع ، كما تخفى على العدد الوافر من سكان حائل ،بمن فيهم الشاعر محمد العوني الذي يعتبر أَذكى وأَدهى الرجال المحيطين بالأَمير ابن طلال . ومع ذلك ذهب ينظم قصائد عندما تولى الإِمارة ابن طلال كل بيت منها يوهم السامع بصورة عامة ، ويوهم الأَمير ابن طلال ويغريه بنوع خاص أَنه مجرد ما يتولى سلطة الإِمارة ، فإِنه سيبدل مجراها وموقفها العسكري من الدفاع إلى الهجوم ، ولو أَردت أَن أُورد القصائد التي أَنشدها العوني لطال الشرح ، وأَبعدت عن صميم الموضوع ، وإِنما أَقصر ذلك على مطلع كل قصيدة من قصائد الشاعر بادئاً بالأُولى التي مطلعها قوله :

دارٍ ما هيْ سوالِيف المراوي

إهْجِعِي جاك شيَّالَ الْجنايا

والثانية قوله :

دارِ لا تحسبين إنَّ البَطَّا مِنَّا

غَفْلة عنكِ باطْمَاعٍ نْبَدِّيْها

لو تَردَّد رِعْدِيْدِ ما تَرَدَّدْنـا

نضرب الوكود والديرة نعفيها

وهذه الثالثة :

يا عَنُودٍ قَرْنَهَا ضافِــي

حظٍّ مَنْعُورٍ تَهَيَّا لَـــهْ

حَرّمتْ حكــام الأَشْرَاف

كُود (ابو بندر[1]) تبي جالهْ

وأَما الرابعة فان فيها بيتين صرح فيهما بالتهديد والوعيد لعبد العزيز بن سعود تهديداً يوجهه الشاعر على لسان أَميره ابن طلال ، بأَن يبتعد عن حربه وحصاره لحائل ، وأَن لا يدنو من حِمَى الأَمير ابن رشيد ، وأَما

---

(١) أبو بندر الأمير محمد الطلال .

عجز البيت الثاني فإن فيه وعيداً سافراً لعبد العزيز يؤكد فيه الشاعر أَن أَميره سوف ينقل الحرب من الدفاع عن جبل شمَّر ، إلى الهجوم على مدينة الرياض عاصمة آل سعود ـ وها هو الشاعر يقول :

قِلْ لِ (أَبو تركي) تَرَى العَصْرِ لهْ دَوْرَهْ

لا يغرّه (حَرْب) و (سْهولٍ) و (مِطْرَانِ)

انزحوا عن ماهْ وِخْمَاه وِحْيُورَهْ [1]

والوعد غير الجبل راس بنبان

وعلينا أَن نفهم أَن كل بيت من هذه الأَبيات التي تنشد أَثناء العرضة الحماسية التي تقرع فيها الطبول وتنتضى فيها السيوف ، ويتمايل فيها الشبان المحاربون هوساً وحماسة ونشوة مأْخوذين بمعاني هذه الأَبيات التي كل بيت منها يزرع كبرياء وغروراً في نفس المحارب العادي من سكان حائل ، فضلاً عن الأَمير الشاب محمد الطلال الدافق حماسة وعنفواناً يوحيان في نفسه بأَنه فعلاً سوف يفك الحصار عن حائل ، وأَنه سينقل الحرب

(١) الحيور ـ المزارع مفردها حير . وبنبان القرية التي بقرب الرياض

من دفاعه دون (جبلي طي) إلى هجوم يغزو به الإمام عبد العزيز في عقر داره .

فإذا كان الأمير ابن طلال عندما تولى إمارة البلاد يحدث نفسه بهذه الخواطر ولم يبعث وفداً إلى الإمام لقبول الشروط التي رفضها سلفه ابن متعب إلا بعد أن أحكم عبد العزيز الحصار على حائل عسكرياً وسياسياً واقتصادياً ، وأصبح استسلام البلاد أمراً مفروغاً منه ، وكل ما في الأمر أن الاستسلام يتطلب وقتاً قد يمتدُّ الأشهر المحدودة أو الأيام المعدودة .

ثانياً - كيف يقبل عبد العزيز السلم الذي عرض شروطه على ابن متعب منذ سنة - وهو في الفترة التي حاصر بها حائل كانت رسل إبراهيم السالم السبهان وكتبه تغدو ذهاباً وإياباً بينه وبين عبد العزيز - وكلها تشير إلى ضعف أهل البلاد وعجزهم عن الدفاع ، وعدم صبرهم أكثر مما صبروا .

ثالثاً - هل يعقل أن أي قائد عسكري يرى نفسه ظافراً بالنصر الكامل على طول المدى ، أن يقبل (بأنصاف



الشيخ ابراهيم السالم السبهان وعن يمينه الاستاذ محمد أسد مؤلف كتاب «الطريق الى مكه»

الحلول) ما دام يرى العدو منتهياً أمره ، كما يرى النصر محققاً ، وما دام أن عبد العزيز يدرك أن هذا العدو وأهل بلاده الملتفين حوله ، ليسوا من الأعداء الخفيفي الوزن ، إذا تركهم في بلادهم ورحل عنهم سيتركون صراعه إلى الأبد [1] ، ما دام الأمر كذلك فإنه لا بُدَّ لعبد العزيز من أن يصفي حسابه مع هذا العدو ، وأتباعه الذين يختلفون بشراستهم وقوة بأسهم عن جميع الأعداء الذين صارعهم عبد العزيز من أهل نجد ، ومن نفس الفصيلة (الفولاذية)

---

(١) كنت جالساً في مجلس الملك فيصل بمكة عندما كان أميراً ، وكان رجاله يتهيئون لغزو الامام يحيى غزوة الفيصل التي حالفه فيها النصر ، وهناك قال احد الجالسين في ذلك المجلس الذي ينتظرون به مجيء أميرهم – قال : نسأل الله أن ينصرنا على القوم الذين سنذهب اليهم ، فأجابه سلطان راعي القودا ، قائلا : القوم الذين سنذهب اليهم مثلهم مثل الأرانب المُجْحِرة – أي كالأرانب القابعة في جحرها – وواصل حديثه راعي القوداء إلى أن قال : ما دام ان الله نصرنا على هؤلاء الرجال الذين إذا تركناهم ما يتركوننا ، واذا ما زرناهم زارونا ، وراعي القوداء يشير بيده في قوله هؤلاء – الى رجال حاشية الأمير فيصل الذين كانوا في ذلك المجلس – وهم تركي المرزوق وادريس الشيباني وعبد الرحمن الحوطي ، وكلهم من حائل والذي قال تلك الكلمة التي جاءت كلمة راعي القودا جواباً عليها – هو سعد بن عيسى الذي لا زال على قيد الحياة ، هذا إذا لم تخنّي الذاكرة .

التي يُعَدُّ عبد العزيز جزءاً منها ، وقديماً قال المثل : (لا يفلُّ الحديد إلا الحديد) .

وأَخيراً فلَّ الحديد الحديد ، وانتهت إلى غير رجعة تلك الحروب الأَهلية ، كما انتهى معها النهب والسلب ، والقرصنة ، وقطع الطرق ، وافتراس القويِّ للضعيف ، وزعزعة الأَمن ، وحل محل تلك الفوضى ما ننعم به الآن من وحدة وطنية ، وأَمان واطمئنان نرفل فيهما نحن وأَبناؤنا وأَحفادنا إلى الأَبد إن شاء الله ..

دليل آخر يؤيد أن عبد العزيز لا يرغب في الحرب حباً للحرب

ذكرت في الصفحات السابقة أن الإمام عبد العزيز بذل كل ما في وسعه من الوسائل مع آل رشيد ، من أجل أن يصل معهم إلى السلم ، وفق الشروط السالف ذكرها ، وأوضحت أن آل رشيد رفضوا ذلك جملة وتفصيلا .

وأريد هنا أن أورد دليلاً آخر متصلاً بفتح الملك عبد العزيز الحجاز ، وما وقع بينه وبين شريف مكة الحسين بن علي واولاده ، وفي هذا المجال أستطيع أن أؤكد أن عبد العزيز تحاشى ما استطاع أن تقع حرب بينه وبين شريف مكة ، وإن يكن وقع شيء من ذلك فإنه لم يكن بحافز ولا رغبة من عبد العزيز بقدر ما كان الحافز

إلى تلك الحرب والداعي إليها شريف مكة الملك حسين

لا أُريد أَن أَذكر جميع العوامل والأَسباب التي أَدت إلى حرب عبد العزيز للشريف حسين وفتحه للحجاز ، فتلك أُمور ذكرها بوضوح كثير من الكتاب الذين تصدَّوا لكتابة تاريخ تلك الفترة ، وإنما أَود أَن أَختصر الموضوع فأَذكر الحادث الرئيسي الذي جاء على الوجه الآتي :

منع الملك حسين الحجاج النجديين عن تأْدية فريضة الحج بصفتهم من رعايا عبد العزيز بن سعود وتكرر المنع خمس سنوات على التوالي ، وأَهل نجد ممنوعون عن تأْدية فريضة الحج ، وأَخيراً اجتمع أَعيان اهل نجد وشكوا أَمرهم إلى الإمام عبد الرحمن الفيصل – والد عبد العزيز – حيث كان عبد العزيز ذلك الوقت في الأَحساء ، إلا أَنه حضر فيما بعد ، وقد تكلم من حضر ذلك المجلس من وجهاء النجديين . وقال المتكلمون : (منعنا الشريف حسين خمس سنوات عن تأْدية فريضة الحج ، وبعد ذلك لا نستطيع أَن نصبر أَكثر مما صبرنا من أَن نمنع عن تأْدية

فريضة من فرائض الإسلام ، مع قدرتنا على تأدية هذه الفريضة ، وأكدوا رغبتهم في أداء الحج بالقوة الحربية ، مستندين في ذلك على حجة شرعية وردت في الحديث النبوي «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان . »

ومن هذا المنطلق يجدر بنا أن نقول : ما دام قوم ابن سعود يشعرون بأنفسهم القدرة على إزالة هذا المنكر بالقوة فعلام يقبلون منع الملك حسين لهم عن تأديتهم ركناً من اركان الإسلام الخمسة ؟ !

نقلت عن الشيخ عبد العزيز بن زيد الذي كان حاضراً ذلك الاجتماع الشعبي – نقلت عنه قوله : (ان عبد العزيز ابن سعود. قال : لقد فعلت كل الذي أستطيع أن أفعله لمنع الحرب مع الشريف حسين ، إلا أنه وضع يده في حلقي ، أنا لا أريد حكم الحجاز لأن حكمه سوف يجلب لي مشكلات لا حدود لها ، مثال على ذلك : الحجاز فيه تعظيم القبور إلى درجة تشبه العبادة من قبل العوام وعند

سدنة هذه القبور المنتفعين من وجود هذه البدعة ، وهذا شيء ينافي السنة الإسلامية التي ندين الله باتباعها فإن أزلت هذه البدعة سوف نواجه حملة (دعائية) سيئة يروجها سدنة هذه القبور الذين عاشوا سنين طويلة من ورائها وباسمها ، ولا يمنعهم مانع من أن يصورونى في نظر العالم الإسلامي بأنني خارج عن الملة الإسلامية ، وإن أقررت وثنية القبور معناه أنني تنكرت للدعوة السلفية التي قام بها أهلي الأولون ، وقمت بها من بعدهم) .

وهكذا استمر الملك حسين بتحديه لابن سعود ومنعه أهل بلاده عن تأدية ركن من أركان الإسلام ، نتج عن ذلك أنهم نسراً وبدواً فرغ صبرهم فأكثروا الإلحاح على عبد العزيز بأن يحجوا بقوة السلاح ، فلم يسع عبد العزيز بين تحدي الملك حسين له من ناحية وبين الحاح قومه عليه من ناحية أخرى إلا أن يطلق العنان لقومه ففتحوا أولاً الطائف ومكة ـ دون أن يواجهوا حرباً تضارع ما واجهه المقاتلون منهم في حربهم · حصارهم مدينة (حائل).

فتحوهما دون أن يدفعوا ضحايا كثيرة من رجالهم



الملك عبد العزيز وبجانبه الملك عبدالله بن الحسين

بل فتحوا مكة دون أن تسفك نقطة دم ثم جاء عبد العزيز وتم له فتح الحجاز كله على الصورة التي ذكرها من دونها من الكتاب والمؤرخين .

وخلاصة الحديث في هذا البحث ، أن عبد العزيز لا يذهب إلى الحرب حُبًّا للحرب ، ولا ينتضي السيف إلا بعد أن تتعذر عليه جميع وسائل السلم ، بل إلى أن يرى نفسه لا سبيل له إلى السلم الدائم ، ووحدة البلاد ، وتوطيد الأَمن ، واجتثاث جذور الفوضى ، وتوثيق أَواصر الإخاء بين المواطنين ، إلا بالحرب عند ذلك يقوم بالحرب من أَجل السلم والأَمان .

هذا وقد اكتفيت بذكر المناسبات التي اضطرت عبد العزيز إلى حرب ابن رشيد ، وحرب الملك حسين قاصراً هذا الموضوع عليهما ـ وذلك للأَمرين الآتيين :

اولاً ـ هو أَن كلاًّ من ابن رشيد والملك حسين لهما من الثقل والأَهمية والشأْن العظيم ما يقصر دونه جميع الرجال الذين وقعت الحرب بينهم وبين عبد العزيز ، بما في ذلك فتنة (الإخوان) بقيادة فيصل الدَّوِيش ، وسلطان بن حُمَيد .



أبناء أمير حايل سعود بن رشيد وهم مشعل بين أخويه سعود عن يمينه ومحمد عن شماله

مع العلم ان السيادة المطلقة لعبد العزيز لم تتم بصورة لا تشوبها شائبة إلا بعد أن قضى على تلك الفتنة قضاء مبرماً تامًّا .

ولكن الشيء الذي لا جدال فيه أن ابن حُميد والدويش ومن التف حولهما مهما عظم شأنهما لا يشكلان من الناحية العسكرية الخطر الذي يشكله أمير كابن رشيد ، أو ملك كالشريف حسين ، وأوضح دليل على ذلك أن الحرب مع هؤلاء انتهت بمعركة فاصلة ، وهي وقعة (السَّبَلة) الكائنة في سنة ١٣٤٧ هـ - بينما الحرب مع ابن رشيد والملك حسين بذل فيها عبد العزيز جهداً عظيماً ، وخاصة الحرب مع ابن رشيد فقد ظلت الحرب بينه وبين عبد العزيز حوالي واحد وعشرين عاما .

ثانياً - هو أن ما أوردته من الأَدلة وبيان الوسائل التي بذلها عبد العزيز مع الملك حسين وابن رشيد مستهدفاً من خلال تلك الوسائـــل الوصول إلى السلم معهما ، حَرِيٌّ أن يجد فيها القاريء دليلاً ناصعاً ، يستطيع أن يجعله مقياساً على جميع الرجال الذين وقع بينهم وبين عبد

العزيز الحرب ، من آل عايض حكام (عَسِير) إلى الأَدارسة حكام (تهامة) مروراً بفتنة (الإِخوان) السالفي الذكر ، ووقوفاً في النهاية إلى الحرب التي وقعت بين الملك عبد العزيز وبين إمام اليمن في عام ١٣٥٣ هـ .

* * *

الفصل السّابع

السياسة التي وطّد عبد العزيز حكمه في تطبيقها



كل من درس تاريخ حياة العباقرة الأفذاذ ، والقادة العظماء ، فإنه يجد في شخصية عظيم كعبد العزيز جوانب إيجابية متعددة ، ومتباينة ، تبايناً تجعل المرء يقع في حيرة ومتاهة بحيث لا يستطيع أن يحدد معالم شخصية هذا العظيم ، أو يحكم حكماً قاطعاً يحصر به مواهبه أو يستوفي به سجاياه الوافرة المتنافرة .

وهكذا كان عبد العزيز ، فبينما تجده أحياناً سلس المِقْود ، لين العريكة ، رقيق العاطفة جمّ الرحمة ، متسامحاً بعفوه وإحسانه إلى من يسيء إليه ، تسامحاً قلَّ أن يُضَارَع به ، هكذا يكون عبد العزيز في بعض المواقف التي تقتضي أن يكون كذلك إلى درجة يوهم من ينظر إليه من هذه الزاوية أن مزاياه هذه صادرة عن ضعف أو عجز ، وأكثر ما يقع هذا الوهم في نفس نوع من الناس

ممن يجتمع فيهم عاملان : عامل الغرور ، وعامل اللؤم ، وواحد من هذين العاملين كافٍ أن يوقع صاحبه في عقاب صارم عنيف ، لا رحمة فيه ، وذلك عندما يتمادى المغرور بغروره أو يسرف المجرم في إجرامه ، أو يحكم القضاء والقدر على امرىء سيء الحظ - فيرتكب أخطاء لا تغفر ، عند ذلك ينقلب ذلك الإنسان الوديع الهادىء الرحيم المتسامح إلى أسد مفترس ، لا تأخذه رحمة ولا عاطفة بمن يسرف في غروره ، أو يتمادى في إجرامه .

وإذا كان اللسان - كما يقال - هو ترجمان القلب ؛ فإن هذا الترجمان أحياناً لا يترجم الحقيقة بكل أمانة وصدق ، غير أن الرجل الذي يحترم نفسه كعبد العزيز يخجل من نفسه أن يتحدث حديثاً لا يطبقه ولا يعمل به ولا يؤمن به .

مَا يتحدَّثُ بهِ عبدُ العزيز عن سياسَتِهِ قـولاً يطبقـهُ عمـلاً

هناك من يتحدث في الأندية ، وعلى مسمع من الناس حديثاً شيِّقاً وبليغاً ، ولكن أعماله تختلف كل الاختلاف عن أقواله ، ولذلك نجد الباري جلت عظمته نهى عن ذلك بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وإذا كان الرجال الذين تطابق أقوالهم أعمالهم قليلين جدًّا . فإن عبد العزيز من أولئك القلة الذين أقوالهم مطابقة لأعمالهم ، وتلك ظاهرة يعرفها من له أدنى صلة بعبد العزيز ، سواء أكانت هذه الصلة مباشرة كذوي الحظوة من رجاله وجلسائه وندمائه المقربين ، أو ممن له صلة بهؤلاء أو أولئك .

ولما كان عبد الله المتعب الرشيد من جلساء عبد العزيز ومن ندمائه الذين يأنس بهم فقد التقيت به ذات يوم

وهو خارج من مجلس عبد العزيز ، وبعد فترة قضيتها معه نتحدث خلالها أحاديث عامة قال عبد الله ما معناه : إنني سمعت من الملك عبد العزيز هذا اليوم كلاماً يكتب بماء الذهب ، ثم مضى عبد الله قبل أن أسأله عن الكلام الذي سمعه ـ وقال : تحدث عبد العزيز اليوم حديثاً قال فيه : إنني لو أصغي أذني إلى حديث الناس عن الناس ، أو لو أنني أطاوع الخواطر التي تمر أحياناً على ذهني كنت بين أمرين : إما أنني قتلت العدد الوافر من بني وطني . وإما أن أهل بلادي قاموا علي وقتلوني أنا وأبنائي وأقاربي ، ولكنني أسير على نهج أخالف به الحديث الذي ينقله إلي الناقلون ، كما أخالف خواطري ، أخالف الجميع وإن كان ناقلو الحديث ثقات ، وحتى لو كنت على يقين بأن ما دار بخاطري تجاه الناس الذين أعرف أنهم أعداء لي عداوة قديمة ، وأعرف أيضاً أن العدو ليس من السهولة أن يكون صديقاً موالياً ، ولكن مع ذلك أكذِّب ما نقله الناقلون ، وإن كنت أعتقد صدقهم ، كما أكذب ما يدور في خاطري وإن كنت على يقين بأن ما ظننته هو الصحيح ،

فأذهب بعد ذلك وأعامل بالحسنى والمعروف ذلك العدو بالأمس ، رغـم كل القرائن والأدلة وحـديث الرواة الصادقين وظني الذي لا أشك في صحة صوابي فيه ، أذهب أعامله بكل معنى من معاني العطف واللطف ، وأغدق عليه المال ، وأعتني بإكرامه والحفاوة به ، وأجعل عملي هذا معه علناً وأمام شهود العيان ، وقد أثبتت لي التجارب في عملي هذا بأنني لن أندم على ذلك ، والسبب أن هذا الإنسان لا يعدو أن ينتهج أحد الأمرين : إما أن يكون كريماً فيملكه معروفي ، ويكون لي بمنزلة الابن أو الأخ وتتبدل عداوته الأولى إلى محبة وولاء ، وإما أن يكون لئيماً لا يملكه المعروف ، وحينئذ يكون قدم لي هو بنفسه على نفسه السلاح الذي يبرر لي أن أضربه به ضربة قاضية ، ويكون معروفي هذا هو الشاهد لي عليه ، كما لا يجد من يرحمه أو يشفع له من الناس الذين شاهدوا ما فعلته معه من جميل ، بل سوف يقف الناس كلهم بجانبي بدون أن يجد هذا الشخص أي مناصر له ، فالأصوات كلها تقف بجانبي في الحين الذي لا يجد هذا المعاقب المجرم صوتاً بجانبه الخ .. أو ما هو بهذا المعنى .

سياسة عبد العزيز للرجال

سياسة الملك عبد العزيز للرجال ترتكز على عدة اسس ، فإذا كان اولئك يختلفون بقوة وضعف شخصياتهم ، كما يختلفون بمواهبهم التي وهبهم الله ، فإنَّ عبد العزيز يقدِّر الرجال عنده وينزلهم المكانة التي يستحقونها .

وعندما أَقول الرجال فإنني أَعني بذلك الذين برزوا على مسرح الأَحداث في عصره ، وأَخص بالذات الرجال الذين ناصبوه العَداء ، أَو الذين يتوقع أَنهم قابلون للبروز ، فسياسته مع أَمثال هؤلاء تقوم على الصورة الآتية :

رجل قوي كريم ، وله شأْن ، ومجد غابر دارس ، فهذا يبذل عبد العزيز كل ما في وسعه ليكرمه وينسيه مجده . ويملك لُبَّهُ ، إما بمنصب يسنده إليه إن كان ممن يصلح لإدارة الأَعمال السياسية أَو الإِدارية ، وإما بمال

وحفاوة وإكرام ، إذا كان ممن لا يصلح للمناصب أو ممن يرى أنه أكبر من المنصب .

الثاني : يكرمه ويحسن إليه ،فإن أفاد فيه ذلك فبها ونعمت ، وإن تمرد وتنمرد ، رأى أن الإكرام لا يفيد فيه ، وأن خُلُقَهُ اللؤم ، أو أن التمرد والمشاغبة ممزوجان بدمه ولحمه ؛ ويرتوي بهما كما يرتوي الظمآن بالماء الزلال ، كما هو خلق بعض الناس الذين لو لم يجدوا إلا والديهم لشاغبوهم .

فالرجل الذي من هذا النوع يعامله عبد العزيز إما بالسجن الأبدي[1] ، وإما بضرب عنقه .

وأما الرجل الثالث ، فهو الذي لا خير فيه ولا شرَّ منه ، فهذا يعامله عبد العزيز إما بالرحمة والعطف ، إن كان من ذوي القربى أو ذوي العبادة ، وإما بالإهمال . وعدم الاكتراث به .

وإذا كان بعض الحكام عندما تتم له السيطرة على

(١) مثل الشاعر الشعبي المحرّض محمد العوني الذي سجنه عبد العزيز إلى أن توفي في السجن كما أوضحت ذلك في كتاب خاص به .

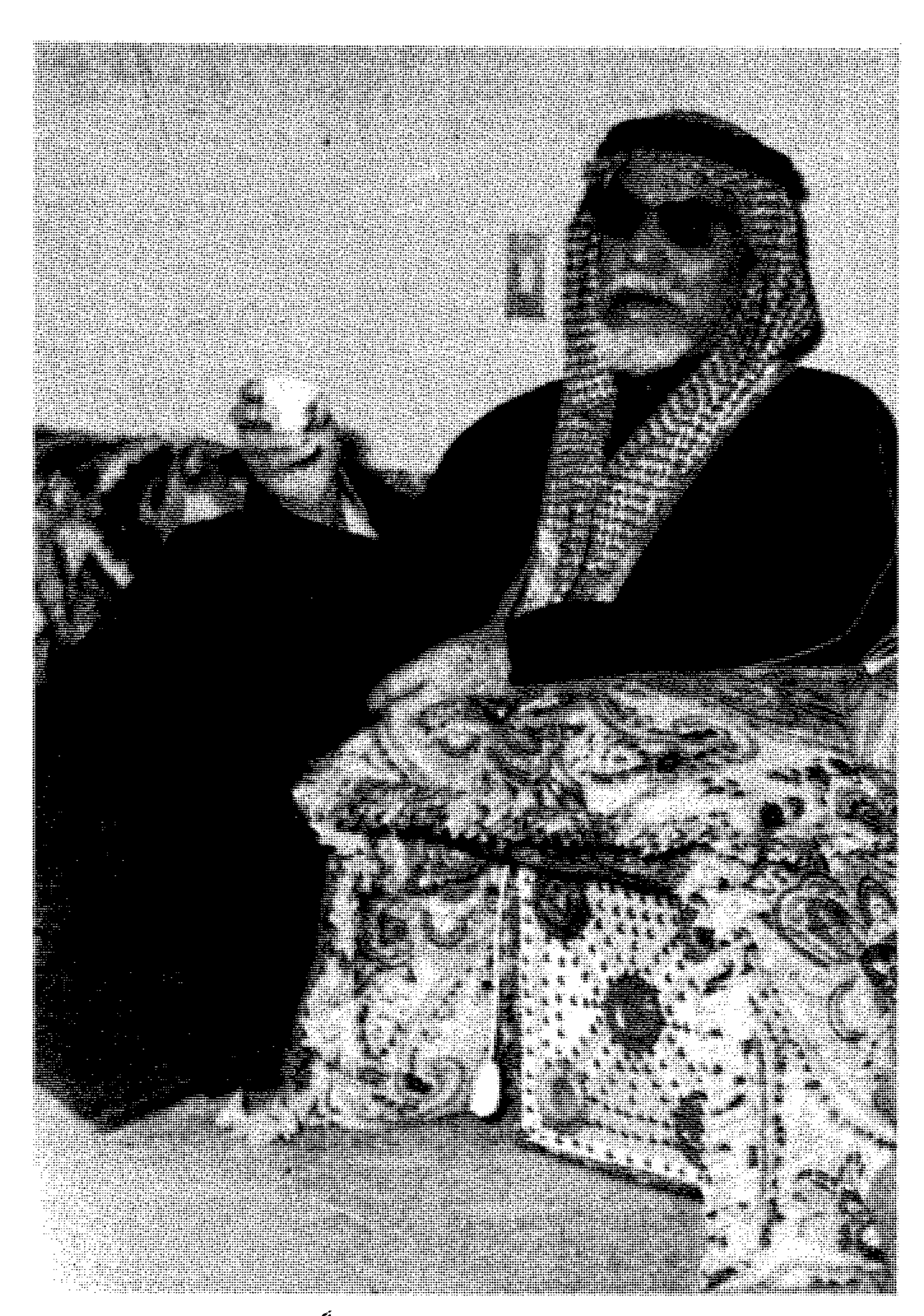
العدو يختلق الشبه والتهمة على عدوه ليأخذه أخذ عزيز مقتدر ، ومنهم من لا يختلق الشبه ، ولكنه يأخذه ويعاقبه بأدنى شبهة أو تهمة توجه إليه من واشٍ لا أخلاق له ، أو من عدوٍّ حاقد حاسد ، ومنهم من لا يبالي بالعدوّ ويستهتر به ، ولا يعمل له أدنى حساب ، فإن عبد العزيز يتخذ موقفاً وسطاً ، ومليئاً بالحكمة ، فهو لم يكن من النوع الذي يأخذ بالشبهة ، كما أنه أبعد وأكرم نفساً من أن يختلق التهمة ، ولا هو أيضاً ممن يستهين بالعدوّ ويستهتر به مهما قل شأنه ، بل نجده يأخذ حذره من العدو من ناحية ـ ويدنيه منه من ناحية أخرى ، ويغدق عليه من معروفه الماديّ والمعنوي ، فهو بعمله هذا لا يعدو أن يكون هذا المتهم إما أن تكون تهمته حقيقة فيتراجع عن إكمالها فيما إذا شعر أنه مشكوك فيه ، هذا من ناحية وموضع عناية وحفاوة من ناحية أخرى ، وإما أن تكون التهمة لا أساس لها من الصحة فيكون الملك عبد العزيز حفظ لنفسه خط الرجعة من عقاب يتخذه تجاه شخص من مواطنيه ،

يجعل هذا المواطن يسخط ويحقد على عبد العزيز ، لأن سخط البريء وحقده عنيفان ، كما يجعل عبد العزيز يندم فيما بعد ، وذلك عندما يثبت لديه أن هذا المتهم بريء ، وهذا ما رويته عن شخص لا زال على قيد الحياة ، وهذا الشخص أحضره الملك عبد العزيز من بلاده وأسكنه عنده في مدينة الرياض وأنعم عليه بمسكن ورواتب شهرية تجري له باستمرار ، وقاعدة سنوية من نقود تدفع كل رأس سنة ، إلا أن الإنسان إذا أُتي به بغير إرادته . فإنه لا بد أن يبدر منه الضجر حتى ولو وضع في جنة الفردوس ، وهذا مما جعل ذلك الرجل يبدي للملك اعتذاره قائلاً : إنني لا أعرف أيَّ عملٍ قمت به يستدعي إحضاري من بلادي . فكان جواب عبد العزيز لهذا الرجل قوله : إنني قانع أنه لم يبدر منك عمل يستوجب العقاب ، ونحن لم نتخذ معك أمراً يؤخذ منه أدنى رائحة من العقاب ، وإنما جئت بك عندي خشية أن تكثر الأقاويل فيك ومن ثم أتخذ نحوك عقاباً قاسياً ، وبعد ذلك تثبت عندي

براءتك وهناك أندم يوم لا يفيد الندم [1] .

---

(١) هذا ما فعله الملك عبد العزيز مع آل سبهان أصهار آل رشيد ، وقد أكد لي علي الحمود السبهان عبارة قال فيها – عندما أمر الملك عبد العزيز بجلبنا من بلادنا حائل . وابقائنا في الرياض أنا وأخي متعب أبدينا اعتذارنا لعبد العزيز قائلين : إننا لا نعرف أي عمل بدر منا يوجب نقلنا من بلادنا .. فكان جواب عبد العزيز لعلي الذي نقلته منه في أكثر من مناسبة (أنا واثق أنه لم يبدر منكم شيء يوجب نقلكم ، وإنما الذي أخشاه هو أن يكثر الحديث عنكم ويتكرر مرة بعد مرة وأتخذ نحوكم عقاباً ثم بعد ذلك تثبت براءتكم ، وعندئذٍ أندم على ما فعلته بكم ، ولذلك رايت أن أفعل الأحوط ، وهو أن تظلوا عندنا إخواناً مكرمين حالكم من حالنا » .
ويمضي الأخ علي الذي لا زال حياً يرزق – فيقول : كان جلالة الملك عبد العزيز أحسن الينا غاية الاحسان في إسكانه لنا في الرياض ، حيث أغدق علينا هباته السخية ، ووفر لنا جميع وسائل الراحة والرفاهية ، وأصبحنا الآن رافلين في النعم شاكرين المولى على ما نحن فيه ، طالبين من الباريء لعبد العزيز أن يسكنه فسيح جناته . ويؤكد علي بأن نقلهما من حائل كان سبباً لراحتهما المعنوية والمادية معاً .



علي الحمود السبهان جالساً

شتان بين سياسة عبد العزيز بإصلاحه بين خصومه السابقين وبين معاوية الذي يضع الشقاق بين ذويه الأقربين

قد يقال : إن سياسة عبد العزيز أقرب إلى سياسة معاوية بن أبي سفيان ، وهذا القول قد يكون فيه شيء من الحقيقة ، ولا سيما حينما نعود إلى الأسلوب الذي اتخذه معاوية مع عبد الله بن الزبير عندما بعث له ابن الزبير رسالته المشهورة في كتب التاريخ والأدب ، تلك الرسالة التي تتضمن أن ابن الزبير هدده فيها ، ولم يلقبه بـ (أمير المؤمنين) ، فما كان من معاوية إلا أن أجاب ابن الزبير برسالة رقيقة ، ووهبه أرضاً ومزرعة ومن فيها من العبيد والدواب ، فتراجع ابن الزبير بعد هذه الهبة الكبيرة وكتب رسالة أخرى معترفاً فيها بالخلافة لمعاوية ، وداعياً له بالتوفيق . ومعبراً عن رضاه وإجلاله لمعاوية .

فهذه القصة تعبر عما يتمتع به معاوية من الحلم

والدهاء يوجد عشرات أو مئات من أمثالها لعبد العزيز .

وإذا سلمنا جدلاً بالتشابه بين سياسة معاوية وسياسة عبد العزيز فيما يختص باستمالة الأعداء ، فإن البون شاسع بين سياسة معاوية في سلوكه مع ذويه وأقاربه وبين سلوك عبد العزيز وسياسته في أقاربه ، فالأول نجده يذهب أحياناً إلى إيقاع النفرة والشقاق بين أقاربه بني أمية ، الذين يخشى معاوية من أن يكونوا يداً واحدة يتكتلون بعد وفاته ضد ابنه وولي عهده يزيد ، كما سعى لإيقاع الفتنة بين اثنين من شيوخ بني أمية ، ومن أبرز الأمويين نفوذاً ومكانة بين بني قومهم ، وهما مروان بن الحكم ، وسعيد بن العاصي المعروف بسخائه ، وشهامته ، وكان والياً لمعاوية على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعزله وجعل مروان عليها ، وأكثر من ذلك أن معاوية أمر مروان بأن يهدم دار سعيد ويصادر أمواله ، وكان قبل ذلك أمر سعيداً أن يهدم دار مروان . وأن يأخذ أمواله ، فلم ينفذ سعيد أمر معاوية ، فغضب عليه وعكس الأمر بتولية مروان ، وأمره بهدم دار سعيد ، فأمر مروان العمال بأن

يهدموا دار سعيد ، فجاء سعيد إلى مروان يلومه على عمله هذا قائلاً : أَتهدم داري يا أَبا عبد الملك ؟ ...

قال : نعم ، كتب إليَّ أَمير المؤمنين ولو كتب إليك بهدم داري لفعلت .

فقال : ما كنت لأَفعل .

فقال : بلى والله .

قال سعيد لغلامه : ائتني بكتاب معاوية ، فلما رأَى مروان كتاب معاوية قال :

أَكتب إليك ولم تفعل ولم تعلمني ؟ ! ..

قال سعيد : ما كنت لأَمُنَّ عليك ، وإنما أَراد معاوية أَن يحرض بيننا .

فقال مروان : أَنت والله خير مني .

وعاد مروان ولم يهدم دار سعيد ، وكتب سعيد إلى معاوية يقول : (العجب مما صنع أَمير المؤمنين بنا في قرابتنا ، أَيفتن بعضنا على بعض) الخ ...

فكتب إليه معاوية يعتذر عن ذلك . ويتنصل ...

وهكذا كان معاوية يوقع الشقاق بين أقاربه ، وهو المعروف بحنكته ودهائه .

ومن هنا يبدو التباين سافراً وبعيد المدى بين سياسته في أقاربه ، وبين سياسة عبد العزيز بعدم إثارة الضغينة والفتنة بين خصومه ، فضلاً عن أقاربه .

بل نجد عبد العزيز عكس ذلك ، نجده يسعى لإصلاح ذات البين ويبذل جهده للوفاق لا بين أقاربه وذويه فذلك أمر مفروغ منه ، بل نجده يسعى لإصلاح ذات البين بين آل رشيد أنفسهم ، وذلك عندما بلغه أن بين أميري حائل السابقين خلافاً – وهما عبد الله المتعب ، ومحمد الطلال – فمجرد ما بلغه ذلك بذل جهده لإصلاح شأنهما ، وكان ذلك في وسط مجلسه في بلدة (الخرج) في إحدى المناسبات التي خرج فيها عبد العزيز إلى النزهة ، وآل رشيد معه كما جرت به العادة ، عند ذلك قام عبد العزيز وأمسك بيد أحدهما ، وذهب به إلى ابن عمه ساعياً



الأميران الرشيديان عبد الله المتعب ومحمد الطلال (لم يبد سوى بعض وجهه)

في إصلاح ذات البين مع رجال ربما يرى الحاكم الفاقد الثقة بنفسه وبرجاله أنه من المصلحة لسياسته أن تكون العداوة بينهما على أعنف وأشد ما يمكن أن تكون .

هكذا كان عبد العزيز فذًّا في سياسته مع قومه وقلَّ أن يضارعه في حسن إدارته ، وكرم خلقه ، وبُعْدِ نظره وعدله أيٌّ حاكم من الحكام الذين عرفناهم ودرسنا تاريخ حياتهم .

* * *

لو لم أعرف مصدرها لقلتُ إنها لعبدِ العَزيز

قرأت في أَحد كتب الأَدب حكمة نسبها المؤرخون إلى الإِسكندر المقدوني وكم اعجبت بتلك الحكمة التي تعتبر خير (دستور) صالح ، يعمل بها ويطبقها رجل الدولة في كل زمان ومكان ـ وهي ما يلي :

وجه إلى ذي القرنين السؤال الآتي : ما هو السر الذي أَقمت عليه أُسس ملكك ؟ ...

فقال : باستمالة الأَعداء وتعهد الأَصدقاء .

وهكذا كان (أَبو تركي) وفيًّا للأَصدقاء وبارًّا بالأَقرباء ، وحكيماً عادلاً باستمالته للأَعداء . إلى درجة يصل بها إلى نزع ما في قلوبهم من عداء فيملؤها محبة وولاء .

والواقع الذي لا جدل فيه ولا مبالغة أَن عبد العزيز

فلتة من فلتات التاريخ ومفخرة يعتز به ويفخر بسجاياه ومثله ناطقو الضاد من الخليج إلى المحيط . وهي ظاهرة لم أقلها تخرصاً أو ظنًّا ، بل إنها الحقيقة التي عبر عنها وشهد بها عدد من قادة الرأي والفكر والسياسة ، فأصغ إلى شهادة قسم من هؤلاء السادة .

يقول الفريق – وزير الدفاع السابق عزيز علي المصري : (لو خرج فتى في العشرين من عمره في مثل الظروف التي خرج فيها ابن سعود يتطلب الغاية التي تطلبها عبد العزيز ، لقيل : مجنون مهوس ، أو مغامر بحياته يسعى إلى حتفه عامداً ، ولكن عبد العزيز لم يكن مجنوناً ولا مهوساً ، وإنما كان فتى أنضجته التجارب ، والنكبات ، وأنضجت عقله الحوادث التي رآها صبياً .

ليس ابن سعود من أعظم رجال القرن العشرين فحسب ، بل هو من أعظم رجال التاريخ كله .

ولست أنا الذي أصدر هذا الحكم ، وإنما أصدره إنجليزي عرف عبد العزيز من زمان طويل ، وتتبع سيرته منذ كان فتى شريداً طريداً إلى أن أصبح الملك المطلق في

جزيرة العرب[1] .

ويقول السيد عوني عبد الهادي رئيس حكومة الأُردن سابقاً : الملك ابن سعود من الرجال الذين لا يجود الزمان بمثلهم بسهولة ، وقد تنقضي خمسمائة عام كاملة من دون أن يأتي مثله .

ويقول الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني : ان الذين عرفوا الملك عبد العزيز ، قبل الحرب الكبرى وبعدها ، يشهدون بأنه أبدى من الشجاعة والعبقرية السياسية ما أبلغه بحقٍ إلى المقام الذي صار إليه ، ولم يكسب هذا المقام بشجاعته ومقدرته العبقرية وحدهما ، بل أبدى من المقدرة الإدارية وتنظيم الأحكام ما مكنه من تحقيق إصلاح كبير في بلاد حرمت أسباب الثروة والعلم ، واشتهرت بما يضطرم فيها من نيران الحقد والمنافسة ، فعرف هذا الملك كيف يسوسها ، ويوفق بين نزعات

(١) شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز لمرحوم خير الدين الزركلي .

أهلها ، ويلطف من الطباع الجافية ، مع الحرص على فضائل أصحابها ، وشجاعتهم وتقشفهم ، وعدم استرسالهم في المسرات والملذات ، وقد رأى سوء فعلها في البلدان الأخرى .

ويقول عوض البحراوي وزير مصر المفوض : كنت كلما تعمقت في درس شخصية ابن سعود ، أزداد تقديراً له ، فالطريقة التي استرد بها إمارة نجد ، والمشاقّ التي كابدها في حروبه مع ابن رشيد ، وطرده الترك من الحسا ، واستيلاؤه على الحجاز وعسير ، وحربه وصلحه مع اليمن ، وتدخله بعد ذلك في الشؤون العربية بالتدريج أكسبه عطف العرب جميعاً ، وضاعف إجلاله في العالم كله .

